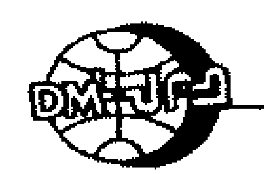

حنفى المحلاوى
لطفى الخولى
ميلاد حنا
عبد الصبور شاهين
جمال الغيطانى
صلاح عيسى
محمود السعدنى
حكايتى
مع
السجن
الدار المصرية اللبنانية

مفكرون وقضبان

حكايتى .. مع السجن

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

حنفى المحلاوى

مفكرون وقضبان

حكايتى .. مع السجن

الحكاية الاولى: مصطفى أمين

الحكاية الثانية محمود السعدنى

الحكاية الثالثة: د. عبد الصبور شاهين

الحكاية الرابعة: د. ميلاد حنا

الحكاية الخامسة: لطفى الخولى

الحكاية السادسة: جمال الغيطانى

الحكاية السابعة: صلاح عيسى

الحكاية الثامنة: جمال بدوى

الحكاية التاسعة: مختار السويفى

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ

(صدق الله العظيم)

(سورة يوسف)
جزء من الآية (٣٣)

مفكرون وقضبان:

حكايتى مع السجن

كم مرة ....
دخلت فيها السجن ؟ !

رأيت من حقي وقبل بداية رحلتنا داخل عقول المفكرين الذين هم ضيوف هذه الصفحات.. أن أتساءل .. (كم مرة .... ؟). ولكنني سرعان ما أدركت خطأ السؤال .. الذى ربما ستكون الإجابة عليه خطأ أيضاً لأننى أعرف طبقاً للقواعد العامة أن مابنى على خطأ فهو خطأ .. ومع ذلك وجدت بداخلى إصراراً غريباً لتوجيه هذا السؤال .. رغم اقتناعى الكامل أنه سوف يثير فى النفس الشجون ، ويسترجع من اللاوعى الألم والفزع..

ـ كم مرة دخل هذا المفكر أو ذاك السجن ؟ وعاش خلف القضبان ؟

والعبرة من الحصول على الإجابة لم يكن معرفة الزمن، أو المدة التى قضاها هناك أو هنا ، بقدر ماكانت الرغبة فى معرفة الكثير عن الماضى القريب . فكنت على يقين من أننى حين أوجه هذا السؤال على الرغم من ألفاظه التى لايعترف بها المفكر .. فسوف أحصل على القدر الكافى من خلاصة التجارب التى عاشها أو سجلها المفكر سجين القبضان .. الذى وجد نفسه بين لحظة وأخرى وسط عالم غريب .. ربما لم يتصوره مرة واحدة فى كتاباته وأفكاره ..

ولاشك أن الآلاف غيرى .. بل إن شئت قل الملايين الذين هم فى شوق الآن .. يريدون أن يعرفوا الإجابة على السؤال .. والظروف التى واجهتنى نفسياً حين كنت ألقى به على ضيوفى عبر هذه الصفحات .

بداية .. وللأمانــة وللتاريخ .. اسجل هنا .. وبقلمى .. أننى عبر رحلتى الطويلة التى استغرقت كل هذه الاوراق .. بعدما نقلت فوقها أحاسيس هؤلاء المفكرين، وسجلتها فى جلسات طويلة .. قد شعرت انهم أى المفكرون فى حاجة مثلى إلى توصيل انطباعاتهم عما لا قوه فى داخل السجون .. بالــرغم من أن كل واحد منهم قد عبر عن فترة وجوده خلف القضبان بطرق شتى ، وبآلاف الصفحات .. وبألوان متعددة من أدوات الاتصال مابين رواية أو قصة أو مسرحية وسيناريو فيلم ومابين كتاب مطبوع .

وكانت البداية دائماً .. عبر أسلاك التليفون .. ومن قبلها كنت أعيش لحظات تعيسة .. أبحث خلالها عن أرق الكلمات التى سوف تكون سبيلى لإقناع محدثى على الخط الآخر بالموضوع وجديته .. ومن ثم الفوز بلقاء نتحاور فيه وندخل خلاله سوياً ولو للحظات إلى زنزانة .. وكثيراً ما انجح .. وقليلاً ما أفشل .. وأنا كلى تقدير لهؤلاء الاعلام المفكرين الذين قبلوا أن يفتحــوا لى قلوبهم وصدورهم .. ولم يصبنى اليأس ، فتكــرار المحاولة يعنى المزيد من الجديــة .. والحمد للــه .. اقتربت كثيراً من عالم هــؤلاء العظماء الذين فى غفلة من الــزمان وضعوهم وراء القضبــان مع نخبة من المجرمين والقتلــة .. وتحدثنا كثيراً .. وعــدت إلى نفسى مراراً أسأل عن المدخل والمخــرج .. وأجرى وراء كل حــرف أعيــد سماعــه من الشرائط العديــدة التى سجلت عليهــا هــذه الحوارات .... والتى هى خلاصة ماكتبته فوق هذه الأوراق.. مستعيناً بتلك الكتابات التى سطروها فوق أوراق دفنوها داخل كتب عديدة .. محاولاً أن أعيش الجو النفسى الذى كان يسيطر آنذاك على هــذا المفكــر أو ذاك .. لأننى أجلس الآن أمامهم بعــد مــرور عشرات السنين على هــذه التجربــة .. ومطلوب أن أسجل مــابداخلهم بأمــانة وما أشعــر به أنــا أيضاً بأمــانة .. وماســـوف تشعــرون أنتم بــه أيضاً .. وكــان شاغلى الشاغل أن أحصـــل ولو حتى على عناوين هذه المؤلفات أو السطور التى كتبوها ولو فوق جدران الزنزانة ..

ومن أجل تأكيــد منهجى فى التفكير والكتــابة والتعــريف بضرورة أن يعيش المؤلف

لحظات الاخرين حين يكتب عنهم .. ماسمعته من أحدهم وهو يروى عن واقعة لمفكر مصرى دخل السجن .. وأبعدوه في الواحات حيث الصحراء .. وجردوه من كل شيء حتى اسمه .. وحولوه إلى شيء يتحرك ويحمل رقماً .. هذا الفنان المفكر طبقاً لرواية الراوى .. رغم أنه عاش حياة صعبة كلها تعذيب وتغريب فقد كان في أوقات فراغه يحن إلى مايفكر فيه ويسعى جاهداً إلى أن يخرج فكره فناً مكتوباً أو مرسوماً .. ورغم عدم وجود الأدوات التى تعينه على ذلك فقد استمر يحفر بأظافره فوق باب خشبى مهمل ألقوه في فناء السجن .. ولما اكتشفوا حيلته .. بعد أن أكمل حفر اللوحة .. قذفوا بالباب في النار .. واعتبروا أن ذلك هو آخر مطاف تقييد المفكر الفنان وحرمانه من أدوات التوصيل التى اكتشفها هو رغماً عنهم .. ولم يصبه اليأس فقد لجأ إلى باب الزنزانة نفسها .. ومع ليالى القمر وآهات التعذيب ودموع الفرح والضيق .. أخذ يحفر ويحفر .. بأسنانه وأظافره وأخيراً .. وبعد سنوات تحول الباب إلى لوحة .. وتحولت جدران السجن إلى متحف ..

وبعد سماع هذه القصة .. سعيت للقاء هذا المفكر الفنان .. لكننى عرفت أنه رحل عن عالمنا .. وعلى أية حال لقد تعلمت منها الكثير وسعدت حين علمت أن باب الزنزانة معروض الآن في أحد المعارض الفنية .

❋ ❋ ❋

وكانت تلك هى المرحلة الأولى .. لقاء وأكثر من اتصال .. إقناع .. ثم حوار وتسجيل ولقطات تذكارية .. وكلمات توجع العقل قبل القلب .. أما الشيء اللافت للنظر أننى في كل لقاء مع مفكر عملاق .. كنت أشعر بأن واقعة السجن أو الحبس أو الاعتقال .. بالنسبة له كانت واقعاً بدأ مؤلماً ثم تحول إلى حلم جميل كانت تتخلله لحظات رعب بين الحين والحين .. عندما تتدخل أدوات التعذيب ولكمات الزبانية .. فقد اعتبرها معظمهم فترة لإعادة الحسابات واختبار النفس .. وبداية الانطلاقة نحو التمسك بالفكرة والموت من أجلها ، بل وكانت بالنسبة لبعض هؤلاء فرصة اللقاء والمحاورة والتأمل .. مع أنه كان ينقصها أدوات التعبير من أوراق وأقلام .. تلك المشكلة التى نجح في التغلب عليها

المفكرون والفنانون الذين كانـوا يعبرون عن واقعهم حتى بدمائهم ويستخدمون القش فى رسم هـذا الـواقع .. كما كانـوا يحفـرون بأصـابعهم وأسنانهم .. وأظـافـرهم على الجدران.

❋ ❋ ❋

والسؤال الثانى الـذى رأيت أن أعرف الإجابة عليـه مثلكم .. هو (لماذا .. هؤلاء..؟). لأن المعرفة وكما يقول أصحـاب الفكر هى بداية الطريق نحو الفكـر ، فما دمنا نريد أن نعرف فسـوف نبحث .. ومادمنـا نبحث سوف نعثـر على الحقيقة أو لا نعثـر عليها .. عندئذ تبدأ مرحلة التفكير حتى نستطيع أن نميـز بين ماهو حقيقى وماهو غير حقيقى.. والمعرفة التى أقصدها محددة بكلمات السـؤال .. وهى تختلف عن المعرفة المطلقة .. أو المعرفـة التى ليس لها حدود .. والتى لها أسماء متعددة فى عالم الفلسفـة والاقتصاد .. والتخصصات العلمية والأدبية الأخرى .

لكننى سرعان ماعدت مستدركاً كلمات السؤال .. قبل الوقوع فى الخطأ فكيف أسأل عن لماذا هـؤلاء .. ؟ .. وأنا لم أبين من هم .. ؟ إذن علينـا منذ هـذه اللحظة .. أن نعـرف ضيوف هـذا الكتاب .. عددهم .. اتجاهاتهم .. أفكـارهم .. الدور الذى لعبـوه .. ميولهم السياسيـة والاجتماعية .. وليس المقصد أن نصنفهم .. فالفكـر يرفض التصنيف .. بل علينا أن نتعقب خطواتهم وكلماتهم ولانبغى من وراء ذلك سوى أن نعيش معهم وبهم داخل الزنـزانة أو خارجها .. نعرف كيف كانـوا يفكرون ؟ .. وكيف كانـوا بيننا رغم وجودهم هم داخل جدران سوداء وأسوار عالية ، وحراسات مشددة ؟ ..

❋ ❋ ❋

لقد وقع اختيارى على مفكرين مصريين معاصرين .. مازالوا يمشون بيننا تاريخاً .. مكسوا بـاللحم والعظام القـادرة على الحركة والتحمل رغم أن معظمهم بلغ مـن العمر عتياً ..أثْرَوْا حياتنا الفكرية فى مختلف نواحيها .. فمنهم الصحفيـون والأدباء والكتاب والعلماء .. وأسـاتذة الجامعـة بـدون تفـرقة .. وكنت فى حيرة مـن أمرى حين قـررت الاختيـار . لأننى لابـد وأن أقع فى المحظور قبل أن أعيش الفكـر معنى ولفظـاً ودوراً .. وهذه قصـة أخرى .. فقد جـاوزت حدود الأوراق وعشت لحظـات طالت وقصرت من

أجل أن أبحث عن معنى الفكر ودور المفكر .. ووجدت ضالتى فى قواميس اللغة ودوائر المعارف ، وعلى أفواه كبار مفكرينا هنا وهناك .. ولن أسوق ماعثرت عليه فى هذا المجال .. إلا حين نستكمل سوياً بقية الإجابة على السؤال (لماذا هؤلاء ..؟)

❋ ❋ ❋

والاقتراب من مجال الإجابة على السؤال : لماذا هؤلاء بالذات ؟ سوف يدخل بنا فى عالم التاريخ ويجعلنا نطوف داخل دروبه القديمة والمتوسطة والحديثة .. بحثاً عن المفكرين الذين عاشوا تجربة السجن أو النفى أو الاعتقال ولكننا آثرنا ألا نبتعد كثيراً .. لأن التاريخ بصفحاته الصفراء المتهالكة يحمل ألواناً من تجارب هؤلاء المفكرين الذين كانت تهمتهم الوحيدة أنهم كانوا يفكرون ويحلمون بواقع وحياة جديدة .. ولا هدف لهم فى الحياة سوى الأخذ بيد أفراد مجتمعهم للسير نحو الأمام .. وكثيراً ما أدى بهم الخلاف مع رجال الحكم إلى غياهب السجون .. إن تجارب هؤلاء المفكرين تملأ آلافاً من الكتب التى تعد سجلات تحمل علامات صفراء وحمراء وسوداء .. هى نقاط يتوقف عندها الزمن أسفاً وحزناً .. لأن معنى أن تزج بالمفكر داخل السجون أنك تحرم المجتمع من أفكاره .. ولن أناقش هنا .. هل تكون هذه الأفكار ضد المجتمع أو معه .. لأن المفكر لا شاغل له فيما يفكر سوى تقديم عصارة فكره فى ألوان من التعبير لصالح الجماعة .. إلا قليلاً .. فنادراً ماتجد طائفة من هؤلاء يسعون إلى خراب المجتمعات .. إلا إذا وقعوا تحت وطأة الدعاية التى تلون أفكارهم وتلوثها .. ولايحدث مثل ذلك إلا حينما يصطدم هؤلاء بالسلطة ورجال الحكم .. عندئذ يصورونهم شياطين بأجنحة وأنياب مصاصى الدماء ..

والصدام بين رجال الفكر وأصحاب المصلحة من رجال الحكم .. قديم قدم الإنسان على الأرض .. ولايخلو عصر من العصور القديمة أو الحديثة من قصة أو قصص تروى لنا كيف كان مصير هؤلاء المفكرين الذين يحلمون بالتغيير والذى كان حتماً ينتهى بالموت حرقاً أو تعذيباً .. والتاريخ بصفحاته المتهالكة يحوى هذه الحكايات لمن يريد المزيد .. ولكننا سوف نتوقف عند ذكر المفكرين المصريين المعاصرين الذين رحلوا عن عالمنا .. ولم يبق لهم بيننا سوى كلماتهم وعصارة أفكارهم .. هؤلاء المفكرون الذين

عاشوا تجربة السجن والاعتقال .. ولسوف نذكر بعضهم .. ولايعاتبنا أحدإذا أغفلنا مفكراً منهم .. لأن ذلك بالفعل لن يكون عن عمد .. فأنا أقف منحنياً لهؤلاء الذين حملوا مشاعل الفكر وأضاءوا بالكلمات أنوار الواقع والمستقبل .. ولكل منهم دوره البارز الذى لايزال يعيش بيننا .. ويكفي أنهم قد ودعوا عيش الحياة الهادئة و نذروا أنفسهم وأقلامهم وعصارة أحلامهم لنا .. وللأجيال القادمة .

ولسوف نحاول أن نرسم دائرة .. وبها أركان متعددة .. نلصق بكل ركن فيها اسم أحد هؤلاء الأعلام فى الفكر المصرى المعاصر .. الذين عاشوا تلك التجربة .. وقضوا أياماً وراء القضبان .. ولن يكون هناك ترتيب مسبق .. فإننى أعود وأكرر أن المفكر الحق .. لايعنيه أن يكون فى المقدمة أو فى المؤخرة من حيث الترتيب .. لأن أعمال المفكرين دائماً تتقدم وتعلن عن نفسها حتى ولو حاولوا إخفاء أو طمس أعمالهم .

وبالحديث عن أسماء هؤلاء المفكرين الذين لم يسعدنا الحظ من أجل استضافتهم عبر صفحات هذا الكتاب مثل غيرهم من المفكرين الأحياء .. تكون قد أكملنا إجابة السؤال عن السبب الذى حدا بنا إلى هذا الاختيار .. فأنتم معى، أننى كنت على حق ومازلت فى اعتقادى أن المفكرين الأحياء .. سوف يثرون التجربة ويضيفون إليها لقطات حية قد تكون غير حاضرة .. ونسوا تسجيلها داخل أوراقهم القليلة التى عبروا بها عن أيام القضبان .. أضاف إلى ذلك أن اللقاء مع هؤلاء المفكرين الأحياء .. أضاف عنصر الحيوية الذى نتج عن الحوار المتواصل.. والفرق شاسع بين أن نتعامل مع كلمات مكتوبة صماء .. وبين أن نتعامل مع أصحاب هذه الكلمات وجهاً لوجه .. وبمجرد أن نذكر أسماء مفكرينا الذين رحلوا عن عالمنا .. سوف نشعر بالفرق .. ليس من حيث القيمة والهدف والمعلومة أو الفكرة .. ولكن من حيث الحيوية التى تنبض بها كلمات هؤلاء، فإذا ماوضعت أصبعك على كلمة لمفكر لايزال يعيش بيننا .. حتماً سوف تشعر بأن الدماء لاتزال تجرى فى حروفها .. والعكس صحيح .. فكلمات غير هؤلاء تجدها باردة.. حيث تجمد الدم فى حروفهاولانقل أنها قد ماتت ، فالأفكار ووسيلتها الكلمة لاتموت أبداً .. ولكن ربما يتغير مفهومها .. ومع ذلك تظل نفس الكلمة نابضة بما فيها من فكرة .

لقد أخذتنا الشجون بعيداً .. عن ذكر أساتذتنا من المفكرين الذين رحلوا عن عالمنا .. وحتى لانتهم بداء النسيان الآن .. علينا ذكر أسمائهم مع الإجلال والتقدير .. لأن أعظم مافى الحياة هى الكلمة الطيبة ومصدرها الفكر .. فالكلمة الطيبة أبداً لاتكون فارغة .. بل هادفة . ويأتى فى مقدمة هؤلاء المفكرين المعاصرين .. الذين عاشوا تجربة الغربة داخل جدران السجون ووقفوا ساعات طويلة بالليل والنهار خلف القضبان الحديدية عباس محمود العقاد .. الدكتور لويس عوض .. الدكتور يوسف إدريس .. سيد قطب .. الشيخ حسن البنا .. توفيق دياب .. الكاتب الصحفى محمد التابعى وآخرون ..

***

ومن الأمور الإجرائية التى صادفتنى وأنا أتحدث عن تجربة سجين الفكر .. هو كثرة ترديد عدة ألفاظ .. تصب جميعها فى معنى واحد هو تقييد حرية المفكر .. فكثيراً ماسمعت ألفاظاً مثل «الاعتقال» «التحفظ» «السجن» .. وكلها تدور فى فلك واحد .. أقصد أنها تؤدى إلى نتيجة واحدة مؤداها أن يتم إبعاد المفكر عن واقعه .. وحرمانه من الحرية والحياة وأدوات التعبير أيضاً .. واستخدامى لكلمة الأمور الجنائية .. هى بالطبع فى محلها .. لأننى أتحدث بالفعل عن إجراءات قانونية تصاحب عادة الزج بالمفكر وراء القضبان .

ولكن إذا ما فتحنا المجال لحديث القانون وإجراءاته .. فلن تسعفنا هذه الصفحات القليلة .. لذا سوف نمس هذا الموضوع مسًا سريعاً .. حتى تكتمل وظيفة المعرفة لدينا .. ونكون قد وفينا المفكرين حقوقهم .. وإلا كيف نتحدث عن السجن والقضبان ولانتحدث عما يصاحبها من إجراءات ..

تقول كتب القانون الجنائى .. إن السجن يعنى إحدى العقوبات المحكوم بها فى الجنايات مثل الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة ..

أما الحبس فهو إحدى العقوبات المحكوم بها فى الجنح .. بالإضافة إلى الغرامة التى لاتزيد على مائة جنيه .

وبالتالى السجن والحبس يعنيان فى أصولهما تقييد الحرية .. إلا أن السجن يعد درجة أشد من حيث نوع العقوبة وطريقة المعاملة .. لأن السجن فى العادة يرتبط

بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .. ويكون ذلك فى الليمانات إلا إذا كان أقل من ثلاث سنوات ..

كما أن السجن والحبس بالإضافة إلى ذلك هما عقوبتان مرتبطتان بحكم قضائى صادر عن قاضى المحكمة ومشمول بالنفاذ.

بخلاف ذلك هناك مايسمى قانوناً بالتحفظ أو الاعتقال ، وهو إجراء يسبق المثول أمام المحكمة تقوم به جهة الضبط المتمثلة فى رجال الشرطة لضمان عدم هروب المتهم ، وعادة لايجوز أن تزيد مدة التحفظ هذه على ٤٨ ساعة .. وهو مايسميه المشرع فى القانون الجنائى «بالقبض» أما فى القانون العسكرى فإن مدة التحفظ بالنسبة للعسكريين لايجوز أن تزيد على عشرة أيام ..

أما من حيث أهمية اتخاذ مثل هذا الإجراء وفقاً للقانون الجنائى .. فهى مجرد مجموعة احتياطيات الهدف منها التحقق من شخصية المتهم .. ويجوز فيها حجزالمتهمين ووضعهم فى مكان أمين تحت تصرف رجال الشرطة ..

وهناك أيضاً مايسمى فى القانون بالحبس الاحتياطى .. وهو إجراء يتم تنفيذه أو اتخاذه بعد مثول المتهم أمام المحكمة .. وهو قد يطول لشهور وتختلف فيه الجريمة الجنائية عن الجرائم العسكرية .. والمهم يجب ألا تطول مدة الحبس الاحتياطى عن ستة أشهر ،. ويكون السبب فى ذلك راجعاً إلى الخوف من التأثير على أدلة الجريمة أو الخوف من الانتقام من المجرم نفسه أو منه على غيره .. وأخيراً ضمان سير التحقيق ..

وإذا ماعدنا من جديد إلى الفكر وجرائم المفكرين إن جاز هذا التعبير قانوناً .. وجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مفهوم الحرية .. ومفهوم الفكر .. الأمر الذى جعل الكثير منا يربط بين المفهومين لغوياً .. فكثيراً ما نسمع ونقرأ فى بعض الكتب «الحرية الفكرية» أو «حرية الفكر» .. رغم أن هناك اختلافاً كبيراً معنى ولفظاً بين الكلمتين .. وإن كان هناك ارتباط وثيق بين وظيفتيهما داخل المجتمع .. الأمر الذى جعلنى أحاول أن ألتمس هذه الفروق .. حتى تكون الفائدة مكتملة خاصة بعدما تناولنا هذه التفرقة فيما يسمى بـ «السجن» أو «الحبس» أو «الاعتقال» .. رغم أن الهدف منها واحد وهو تقييد حرية الإنسان ..

وبالنسبة لمدلول الحرية .. وكما يقول الاستاذ الدكتور عبد المنعم محفوظ : هى كلمة أرق من أن تكتب على ورق ، وأطهر من أن تنطق من ثنايا شفتين ، رغم أنها كانت ومازالت سبباً فى كثير من الأحداث والثورات والصراعات على مر العصور .. فكم قاست شعوب وقهرت من أجل الحرية .. وكم ضحت أمم ودمرت دول من أجل الحرية .. وكم قاسى مظلوم وعذب سجين ومات برىء من أجل الحرية .. وقد تبارى آلاف من الفلاسفة منذ فجر التاريخ في تعريف هذه الكلمة .. ووضع المفاهيم لها .. وكانت كلها تصب فى معنى واحد وهو أن الحرية ليست مجرد «أمنية» ، وإنما هى «إرادة» .. وبالتأسيس على ذلك تتأثر الحرية بالإمكانات المتاحة للإنسان ، فكلما تدعمت إمكاناته المادية والمعنوية كلما زادت حريته .. وعلى ذلك فإن الحرية المطلقة لاوجود لها .. ولايمكن أن يكون الإنسان حراً فى جميع الأوقات بشكل مطلق .. لأن الحرية يحدها النظام ..

ومع عدم تحديد معيار واضح ودقيق لمفهوم الحرية فقد اختلف الفلاسفة وعلماء السياسة ورجالها وفقهاؤها فى تحديد هذا المفهوم .

ويجرنا هذا الحديث إلى ضرورة معرفة أنواع الحريات التى ترتبط بحياة الإنسان داخل مجتمعه .. وإن كانت تختلف من مجتمع لآخر .. ومن عصر لآخر ، رغم أن الفقهاء استطاعوا أن يحددوا أنواع الحريات العامة وحصروها فى عدة أنواع هى : الحريات والحقوق التقليدية ، والحريات الاجتماعية ، والحريات والحقوق الاقتصادية ، وأخيراً الحريات والحقوق الفكرية ، أو بمعنى آخر هناك الحريات المادية التى تمثلها حريات الأمن والتملك وحرية المسكن ، وكذلك حرية العمل .. وهناك أيضاً حريات معنوية مثل حرية العقيدة والاجتماع والتعليم والصحافة .. وكلها تصب فى إطار نطلق عليه «حرية الفكر» وهذا هو مانعنيه ونرمي إليه من هذه الدراسة .. لأنها ترتبط بموضوعنا الذى هو مادتنا الأساسية فى هذا الكتاب .. ولأنه من الضرورى بيان هذه الحرية ومواصفاتها .. حتى نستطيع أن نلتمس الفروق الكبيرة بين مايقوم به المفكر ودوره فى المجتمع وبين مايقوم به اللصوص والمجرمون من جانب آخر وفقاً لنظرة القوانين.. ومدلول الحرية .. وقبل أن نعيش هذه التفرقة نود أن نبين أولاً ماهية الفكر .. وتعريفه وأهميته ودوره فى المجتمع .. وسبيلنا إلى ذلك قواميس اللغة العربية وبعض المعلومات التى عثرنا عليها فى دوائر المعرفة ..

** فى القاموس .. وتحت حرف «الفاء» نجد أن الفكر جمعها أفكار .. ومعناه تردد الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المعانى .. وشارد الفكر يعنى غافل وساه .. والفكرة تعنى إعمال الخاطر فى الأمر..

** فى دوائر المعارف .. تحت كلمة «فكر» : نجد المعنى يقول : الفكر والتفكر والتفكير هو التأمل .. ورجل فكير أى كثير التفكر .. والتفكير من أبحاث علم النفس وهو عملية عقلية نزوعية تهدف إلى الوصول إلى حقيقة مجهولة كحل مشكلة من المشاكل التى تعترض الإنسان .. لهذا كان التفكير من الصفات التى ينفرد بها الإنسان لأن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب ماضية وإدراك العلاقات بينها فى ضوء حقيقة ماثلة أمام الأفراد .. فكل عملية تفكير هى فى الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق وقد يكون التفكير إلى جانب ذلك فى صورة تفسير مجموعة من الحقائق المشابهة وهو مايعرف بالاستنباط تمييزاً له عن القياس .. إن التفكير فى جميع صوره ماهو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التى تواجهه ..

وقد اقترب مفهوم التفكير لدى الدكتور زكى نجيب محمود من هذا المعنى كثيراً .. حيث يرى شيخ الفلاسفة المصريين والعرب فى العصر الحديث أن التفكير هو عملية ذهنية نرسم بها خريطة العمل المؤدى إلى تحقيق هدف ما ، وبعد ذلك فلتتنوع الأهداف ماشاء لها صاحبها أن تتنوع ، لكنها جميعاً تلتقى عند هذا الأصل .. أو بمعنى آخر كما يقول الدكتور عبد المنعم محفوظ فى كتابه «علاقة الفرد بالسلطة» : إن عملية التفكير تقتضى من رجل الفكر أن يرسم لفكره هذا خريطة على هداها من أجل الوصول إلى هدف منشود .. وفى حالة تدخل رجال السلطة لإضافة ملامح لهذه الخريطة أو حذف بعض معالمها ، كان ذلك بمثابة تدخل سافر من أجل ألا يبلغ المفكر الغاية التى يستهدفها ، وحين نتحدث عن جانب من جوانب المنهج العلمى فى التفكير باعتباره جانباً بالغ الأهمية .. نجد أن كل تفكير منهجى مهما كان موضوعه لابد وأن يبدأ من أساس يوضع وضعاً .. وهذا يدل دلالة واضحة على أن حركة الفكر ديناميكية ولا تبدأ أبداً من فراغ ..

***

ولن ندخل فى تفاصيل ما يتعلق بموقف الفلاسفة من الفكر باعتباره أساس وجود

الإنسان فوق الأرض ، ونظرتهم لهذه الأصناف من البشر الذين يحملون هذه المهمة الشاقة فوق أكتفاهم لصالح المجموع قبل صالح الفرد أو صالحهم الشخصي .. ويمكن القول بأن فيلسوفاً عظيماً هو «كانت» قد قال عبارته المشهورة : «أنا أفكر إذن أنا موجود» .. وبالتالى فقد نفى صفة الوجود لهؤلاء البشر الذين لايفكرون .. لأن العبرة من وجهة نظره أن يعيش الإنسان بالعقل قبل الجسد ..

وليست الفلسفة هي وحدها التي نادت بضرورة أن يكون الإنسان مفكراً بل قبل الفلسفة جاءت الأديان السماوية التى عظمت تفكير الإنسان .. وجعلته الطريق الحقيقى للوصول إلى الحقيقة ..

هذا باختصار هو مضمون الفكر ومدلولات الحرية .. باعتبار وجود علاقة تواصل وتفاعل بينهما .. وبقي لنا أن نتحدث عن حرية الفكر من حيث التوصيف القانونى والدستورى وهو موضوع يطول الحديث فيه .. حيث تناولته العديد من المؤلفات وتصدى له أساتذة وفقهاء القانون فى مصر وفى غيرها من الدول الأوروبية .. ولكننا سوف نحاول إيجاز القول حتى نعرف موقع هذه الحرية بشقيها داخل المجتمع .. وموقف سلطة الدولة منها .. أو بمعنى آخر معرفة ماتثيره الحريات من تأثيرات فى مواجهة الآخرين .. وفى مواجهة السلطة العامة ..

والحديث القادم يستند على القاعدة التى تقول : إن الفكر يختمر فى عقل الإنسان ثم يخرج من إطاره الداخلى إلى المجتمع الذى نعيش فيه وأن الأفكار تتجسد فى قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته .. وهو مايسميه رجال القانون بالقدرة على التقرير الذى يقوم على الاختيار .. وعادة ماينعدم هذا التقرير إذا حرم الإنسان من حق الاختيار أو وسيلة التعبير .. ثم إذا فرض عليه مضمون هذا الاختيار رغماً عنه ..

وحرية الفكر مثل غيرها من الحريات الأخرى لابد وأن تتجسد فى الممارسة لأنها تبدأ بتكوين الفكرة ثم الإقدام على ممارستها أى تنفيذها .. ووفقاً لهذا المفهوم ، وكما يقول الدكتور محفوظ ، فقد تضمنت كل مواثيق الحرية والدساتير فى الدول المعاصرة النص على حرية الفكر .. أيا كانت فلسفات هذا الحكم .. وقد لاحظ فقهاء القانون صعوبة تصنيف حرية الفكر ووضع ضوابط محددة لها .. والسبب فى ذلك يرجع إلى

التـداخل بين الخطوات والمراحل التي تمر بها الفكـرة .. كما يعـود من جانب آخـر إلى الخلط بين الفكر والـرأى والعقيدة ، وصعـوبة تحديد ضـوابط ومعايير التفـرقة فيما بينهم..

ورغم ذلك .. فقد وضعت تصنيفات متعـددة لهذه الحرية نذكر منها : حـرية الرأى وحرية العقيدة وحرية الصحافة وحرية التعليم .. وكذلك حرية المسرح والسينما .. إلا أن حرية الرأى تعتبر في المقام الأول .. ويعدها الفلاسفة أهم هذه التصنيفات لأنها تمثل العمـود الفقـرى للأنـواع الأخـرى .. والـدليل على ذلك أن «الإعلان العـالمى لحقـوق الإنسان» الذى صدر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ قد نص في المادة «١٩» : أن لكل إنسان الحق في حـرية الرأى وحريـة التعبير بما يتضمنه ذلك من حريـة اعتناق الآراء بمأمن من.. وكـذلك حرية طلب الحصـول على المعلومـات والأفكار وتلقيهـا وإذاعتها بمختلف الوسائل دون التقيد بحدود الدولة ..

والشـىء اللافت للنظر .. وكما تقول كتب القانون .. إن حرية الرأى هذه مازالت تعد من أكثر الحريات التى أثير حولها الجدل داخلياً والسبب في ذلك ربما يرجع إلى مايمكن أن تثيره هذه الحرية من هزات اجتماعية عندما تتدخل السلطة لدى من يمارسـها ..

وفي الواقع .. وبعيـداً عن النصوص المكتوبة .. اتضح أن العبرة ليست بتـدوين هذه النصوص في كتب والتزين بها .. تلك التى تتحدث عن هـذه الحرية بالذات .. سـواء على المستوى العالمى أو مستوى كل دولة .. وإنما اتضح أن الأهم من هذه النصوص المدونة وتلك الدساتير والمواثيق هو القدرة على الممارسـة التى تعنى الإقدام على استخدام هذا النوع من الحرية .. وفي الوسـائل النفسية قبل الماديـة التي توفرها الدولة . والقدرة على الممارسة هنا بمعناهـا العملى تعنى الشجاعة التى يقوم بها الفرد على ممـارسة حريات فكره .. وعلى وجه الخصوص حرية رأيه في مواجهة السلطة العامة ..

وخلاصة القول لقد .. اتضح أن حريـة الرأى .. وموقف السلطات من المفكرين عبر العصور قـد جعلت الدول المعـاصرة تتدخل بـالتشريع لتنظيمها ووضـع الحـدود لها .. وكذلك ضوابط ممـارستها .. ولكن كيف يتم ذلك ؟ .. يؤكد الفلاسـفة ورجـال القانون وفقهاؤه أن دور الدولـة يتجسد في دور السلطة العامة .. لأن هدفهـا هو تحقيق النظام

العام فى الظروف العادية .. وقد اصطلح على تسمية هذا الدور قانونا بـ «الضبط الإدارى» .. وهو عبارة عن مجموع ماتفرضه السلطة العامة من أوامر ونواه وتوجيهات ملزمة للأفراد بغرض تنظيم الحريات لصيانة النظام العام فى المجتمع ..

ومدلول كلمة «الضبط الإدارى» فى فقه القانون يقوم على فكرة اختصاص السلطة العامة فى أن تفرض على الأفراد قيوداً تحد بها من ممارسة حرياتهم .. ويستمد النظام العام الذى يطبق هذا المفهوم قوته من ثلاثة عناصر هى : الأمن العام ، والسكينة ، والصحة العامة .. وعادة ما تلجأ الدول إلى العديد من الوسائل لتحقيق هذا النظام الذى يكون ضحيته فى المقام الأول حرية الفكر ..

***

فى بداية رحلتنا مع هذه الكلمات تساءلنا كثيراً .. واتخذنا العنوان من عدد المرات التى دخل فيها المفكر السجن .. ورأينا أن خير ختام لجولتنا عبر هذا الفصل هو تسجيل احاسيس هؤلاء المفكرين لحظة الخروج من وراء القضبان .. والاستعداد للرحيل بعد الإفراج .. لاننا عرفنا مسبقاً .. أنه فى الغالب يتم القبض على المفكر وإيداعه السجن دون علم مسبق منه .. كما أن الاعتقال أو الخروج.. يتوقف على حالات متنوعة وأوامر غيابية فى غالبية الأحيان تصدر من فوق .. وسبق أن قدمنا جولة قصيرة داخل عقل فقهاء القانون أوضحنا فيها هذه المفاهيم .. المهم الآن أن نسجل لكم هذه الاحاسيس من واقع كلمات كتبها عملاق الأدب العربى عباس محمود العقاد .. الذى ألف كتاباً حكى لنا فيه عن تجربة السجن فى حياته كرجل إنسانى .. وكمفكر إنسانى أيضاً ..

يقول العقاد فى كتابه «عالم السدود والقيود» الذى نشره عام ١٩٣٧ (يوم الإفراج ، أو يوم، البعث والنشور .. أو يوم الحرية .. أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذى انتظره مئات أو ألوف الأيام .. ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره تغتمض عيناه سروراً بلقياه ، وأوشك أن يطير فرحاً بالوصول إليه .. ويظل السجين ينتظره ويطيل انتظاره بالأشهر والأسابيع وتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبين الأشهر والأسابيع والأيام والساعات .. ولايفكر فى شىء غير هذا التفكير .. حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا

بالسجين يـراه كأنما وجه قـديم طالما رآه وأد من النظـر إليه .. فهـو منظر من منـاظر الماضـي السـحيق وليس بمنظـر طريف ولابموعـد جديـد ..) هذا عن إحسـاس الرجل العام الذى لايعيش الفكـر .. فما بالك بإحسـاس العقاد المفكر .. الـذى يقول عن نفسـه :
(جاءني مأمـور السـجن عصر اليوم الـذى سـأغادر فى غده .. وقـال لى إنه لايعلم فى أى ساعة سيكون الإفراج ، فيحسن بى أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وأنه سيرسل لى الحلاق ليحلق رأسي ولحيتي التي مضت عليها ثـلاثة أيام .. ولايحب رجال السجن أن يخرج السجين من عنـدهم فى هذا الحال .. لأن رؤيـة اللحية الطـويلة تلقي فى الروع أن السجين خارج من مكان يكثر فيه الإهمال وتقل فيه النظافة والنظام)

❋ ❋ ❋

❋❋ ترى هل هـذه الصورة مازالت على مـاهي عليه .. بعد مـرور أكثر من خمسـين عامـاً .. أم تغيرت .. ؟ .. وكيف عاش مفكـرو مصر فى السنوات العشرين الأخيرة خلف هذه الجدران .. هذه الأسئلة وغيرها .. هي موضوع كتابنا الذى بين يديك ..

حنفى المحلاوى

الحكاية الأولى يرويها مصطفى أمين :

تزعمت عصابة من المساجين
لتهريب الورق والقلم !!

لم أصدق حين قال لى أستاذنا الكاتب الصحفى «مصطفى أمين» أنه كان زعيماً لعصابة داخل السجن ..

ولكن وقبل أن تدور الكلمات برأسى وتأخذنى علامات التعجب بعيداً عما يقصده .. أضاف بقوله بالفعل كنت زعيماً لعصابة من المساجين .. تعبت كثيراً فى تكوينها .. والسبب يرجع إلى إدارة السجن نفسها التى جاءتها أوامر عليا .. لحرمانى من الورق والقلم .. حتى ورق التواليت منعوه عنى حتى لا أستخدمه فى الكتابة ..

لحظات صمت .. حسبته خلالها .. يكتب مقدمة مشوقة لحديث طويل .. واعتبرت كلماته السابقة .. بداية ساخنة لهذه المقدمة .. ولكننى وبالرجوع إلى الكتب الكثيرة التى كتبها فى السجن رغم هذا الحصار .. والتى ذكرها لى أثناء الحوار .. اكتشفت فعلاً أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قد نجح إلى حد بعيد فى تكوين هذه العصابة التى فشلت إدارة السجن لسنوات طويلة فى الكشف عنها ..

يقول «مصطفى أمين» فى أحد هذه الكتب :

القلم ممنوع .. الورق ممنوع .. الحبر ممنوع ..

لقد تنقلت بين عدة سجون .. وفى كل السجون والمعتقلات التى دخلتها كان يقال لى إن القلم ممنوع والورق ممنوع .. والحبر ممنوع .. وبلغ الأمر بمأمور طره أن منع دخول ورق التواليت خشية أن أكتب عليه .. وفى بعض هذه السجون كانت الكتابة ممنوعة على الإطلاق .. وفى سجن ليمان طره مثلاً كانت الأوامر والتعليمات التى

أصدرها وزير الداخلية أنذاك بشأن معاملتى .. ألا يوضع ورق أو حبر أو قلم فى زنزانتى .. وأن أضعها فى مكتب ضابط العنبر ، وأن أكتب إلى أسرتى مرتين فى كل شهر ، وألا يزيد كل خطاب على نصف ورقة كراس ، وأن أكتب بالخطاب فى مكتب الضابط وفى وجوده ..

وكنت مسجوناً نموذجياً ، أطيع الأوامر والتعليمات مهما كانت سخيفة وجائرة .. وكل تعليمات السجن سخيفة وجائرة .. ولكن التعليمات الوحيدة التى قررت أن أثور عليها وأخالفها هى الخاصة بعدم الكتابة ، وذلك لأن الكتابة بالنسبة للكاتب أشبه بالتنفس ، وكان معنى هذه التعليمات الجائرة أن أتنفس مرتين فى الشهر ..

وبدأت بمعاونة عدد من زملائى المسجونين عملية تهريب الورق والقلم ، ثم عملية تهريب الرسائل إلى أخى على أمين فى لندن وسعيد فريحة فى بيروت .. كانت عملية خطرة وشاقة ومستحيلة .. وكان الذين يقومون بها يعرضون حياتهم للخطر ومستقبلهم للضياع .. ولكن الرجال الشجعان الذين قاموا بهذه المهام الخطرة من أجلى ومن أجل عدد من المسجونين السياسيين لم يخافوا أبداً .. لقد استطعت خلال تسع سنوات أن أهرب إلى خارج السجن تسعة آلاف رسالة.. واستطاعت هذه الرسائل كلها أن تخترق الحصار المضروب وأن تقتحم كل القيود المفروضة .. ولم تضبط رسالة واحدة ..

***

وحينما نتوقف عند كلمات مصطفى أمين واعترافاته فيما يتعلق بتكوين هذه العصابة الغريبة التى وصف أفرادها بالرجال الشجعان الشهداء .. نكتشف قيمة الورق والقلم .. حتى ولو كانت قصاصات بالية .. وأقلام بلا أسنان أو أحبار .. كما نكتشف قيمة الرجال فى الشدائد .. وإلا فكيف يتحول الكاتب والمفكر ومن حوله من زملاء الزنزانة إلى أفراد عصابة تقوم بعمل نادر .. لا لتهريب الذهب والماس والأموال .. بل لتهريب الورق والقلم ..

وقبل الدخول فى تفاصيل الدور الذى كانت تقوم به عصابة مصطفى أمين ، وكيف تكونت ، ومن هم أفرادها .. وكيف استطاعوا اختراق حصار هذه السجون المنيعة .. تعالوا .. نبدأ الحوار الذى دار بينى وبين المفكر الكبير مصطفى أمين الذى استغرق

تسعين دقيقة فى مكتبه فى أخبار اليوم .. بعد خروجه من السجن وعودته إلى الحياة الصحفية والفكرية بأكثر من عشرين عاماً ..

فى مثل هذه الظروف .. تبدأ أولى خطوات المرحلة فى مكتب السكرتير الخاص الذى تفضل مشكوراً بالاتصال بالمفكر الكبير وحدد لنا موعداً معه .. وفور علمى بالموعد الذى حدده أعددت كل شيء .. الورق والقلم والأحبار .. جهاز التسجيل .. وعيون الكاميرا .. وشيئاً آخر مهماً جداً .. هو الاستعداد النفسى لمجابهة العملاق ، ودعوات فى صدرى من أجل أن يطول الحوار ساعات طويلة ..

وقبل الاستغراق الذاتى لتحديد معالم هذا الحوار الذى أعددت عناصره مسبقاً .. انطلق مدير مكتبه بأدب : تفضل .. مصطفى بك فى انتظارك ..

وعلى بعد خطوات .. طرقت الباب برفق .. ودخلت .. صحيح أنها لم تكن المقابلة الأولى بين كاتب هذه السطور وبين مصطفى أمين .. إلا أننى شعرت وكأنما أراه لأول مرة .. وقبل أن يزحف التراجع إلى نفسى .. بادرنى بالتحية .. وكأنما قرأ مايدور فى ذهنى .. خاصة أننى جئت إليه هذه المرة .. أذكره بهموم ماضية ، والأيام السوداء التى قضاها خلف القضبان ..

وجاءت ابتسامته .. التى عبرت عن فرحه بهذا اللقاء .. بداية طيبة لى حتى أستكين .. وأركز وأحدد بداية الحوار ..

وجلست أمام مكتبه البيضاوى الضخم .. أتطلع إلى كيانه الكبير، ورأسه التى هى مصدر كل همومه ومشاكله .. ومن بين أسنانى .. خرجت أولى كلمات الحوار ..

*** نبتدى يافندم ؟ ..**

ـ اتفضل ..

ومن قبلها .. أعطيت إشارة البدء لجهاز التسجيل .. واستعد المصور بآلاته .. وانسابت الكلمات فى هدوء .. أنا أسأل .. وهو يجيب ..

*** كم مرة دخل فيها الكاتب الصحفى والمفكر الكبير مصطفى أمين السجن؟**

وقبل أن يجيب بصراحته المعهودة .. استدركت الكلمات .. لأننى أحسست أنها

عبارة قاسية مغلفة فى كلمات أحسست من وقعها وكأننى ساويت بين المفكر الكبير وبين غيره من عتاة الإجرام .. لذا وجدتنى أعيد السؤال فى صيغة أخرى رأيت أنها أكثر تهذيباً وتليق بالمفكر والمفكرين ..

*** عفواً أستاذى .. هل تعرضتم لأى نوع من أنواع العقوبات .. قبل تجربة السجن الأخيرة ؟ .. فى عهد الرئيس عبد الناصر ..؟!**

ـ لقد قبض على عدة مرات .. لكنها كانت عقوبات بسيطة .. ففى عام ١٩٢٨ (أوقفت التسجيل .. حتى يتمكن الأستاذ من الرد على مكالمة تليفونية خاصة) .. ومن بعدها أخذ الكاتب الصحفى مصطفى أمين يروى لى قصته مع القضبان .. وأخذ يحيطنى بأسرار ربما يذيعها لأول مرة .. وحتى لانقطع تسلسل الكلمات وأفكار الأستاذ .. سوف أنقل لكم تفاصيل هذا الحوار .. بدون تدخل من كاتب هذه السطور لا بالأسئلة ولا بالتعليق ..

فى عام ١٩٢٨ .. كانت بداية تعاملى مع السجون ، ومانطلق عليه الآن «الحجز» حيث قبض على أنا وأخى المرحوم على أمين لأننا كنا نهتف فى محطة مصر ضد الدكتاتور محمد محمود باشا .. ووضعنا فى السجن ثلاثة أيام .. ثم أفرج عنا ..

ومرة أخرى قبض على وأنا عندى ١٦ سنة .. وكنت أيامها طالباً فى الخديوية الثانوية .. حيث نظمت إضراباً فى المدارس من أجل إلغاء الدستور ويومها دخلت السجن ومكثت فيه ثلاثة أيام ، واعتبرتها وقتها عقوبة قاسية جداً .

وابتداء من عام ١٩٥٠ وحتى قبيل قيام الثورة ، تم إلقاء القبض على ٢٦ مرة .. أثناء عملى الصحفى .. حيث كانوا يلقون القبض على فى الصباح بتهمة نشر أخبار صحفية ضد الحكومة .. وأستمر فى الحجز .. وفى المساء يتم عرضى على القاضى الذى يأمر بالإفراج عنى فوراً ، وبكفالة فى نفس اليوم .. وأنا أذكر أن مجموع المبالغ التى دفعتها فى الكفالات خلال هذه الفترة التى ذكرتها أكثر من ألف وثلاثمائة جنيه .. ولا تنس أن هذا المبلغ كان عام ١٩٥٠ ، والفرق فى قيمة العملة بين الأمس واليوم معروف .. لأننى كنت أدفع فى المرة الواحدة كفالة ٥٠ جنيهاً .. والشىء المضحك والمبكى فى آن واحد .. أن الثورة حين قامت وعلم عبد الناصر بهذه الغرامات .. أعاد إلى مبلغ ألف جنيه من قيمة هذه الكفالات ..

على أن أهم رحلة كانت لى عبر السجون .. تلك الفترة الأخيرة التى حدثت فى بداية الستينات فى عصر جمال عبد الناصر .. وأذكر تفاصيلها تماماً .. وقد سجلتها فى أكثر من كتاب صدر لى لأنها فترة كانت صعبة إذ ارتبطت فى ذهنى بعدة صور كان أهمها صورة التعذيب البدنى البشع الذى نالنى على أيدى رجال السجن الحربى آنذاك ..

وأذكر أنهم حين جاءوا للقبض علىّ فى عام ١٩٦٥، فى منزلى بالاسكندرية ورأيت الحرس يملأون حديقة المنزل ، تصورت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد حضر لزيارتى .. ثم تصورت بعد ذلك أنه حدث انقلاب ، وأن رجال الانقلاب الجدد جاءوا يقبضون علىّ ، لأننى واحد من المتصلين بالرئيس عبد الناصر ..

وعندما تبينت الحقيقة تصورت أن عملية القبض تمت بغير علم الرئيس عبد الناصر، وقد سبق أن قبض علىّ مرة فى أول الثورة ، ومرة أخرى بعد بضعة أشهر من قيامها .. بدون علم جمال عبد الناصر .. وعندما علم فى المرتين بأمر القبض علىّ وعلى أخى علىّ أمين أمر بإطلاق سراحنا .. ولكن عندما رأيت أن القوة التى جاءت تقبض علىّ صحبت معها مصوراً لالتقاط صورى .. تأكدت أن المسرحية مدبرة ..

ووضعوا القيد الحديدى فى يدى ، وأركبونى سيارة خلفها وأمامها عدة سيارات ، حراس من جهاز الأمن يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة .. ومشى الموكب فى الطريق الزراعى فى طريقه إلى القاهرة ..

أما عن تأثير تجربة السجن على حياتى كإنسان وكمفكر وصحفى وكاتب وصاحب رأى فقد اختلف التأثير من فترة لأخرى .. وإن كان تأثير التجربة الأخيرة التى حكيت عنها أقوى هذه التجارب .. ولكن بشكل عام داخل السجن شاهدنا أشياء لم أتخيل أبداً أنها موجودة بالسجون المصرية .. ولو روى لى سجين هذه الحقائق ونقل لى هذه الصور قبل أن أدخل السجن لما صدقت .. ويكفى أن أقول لك إننى دعيت فى عام ١٩٦٤ إلى زيارة سجن طره .. وكان ذلك قبل إلقاء القبض علىّ فى المرة الأخيرة بعام أو أقل .. وكانت زيارة صحفية من أجل نقل صورة صادقة لما هو عليه السجن فى مصر فى تلك الفترة .. وهناك فرشوا لى الرمل الأصفر بلونه الجميل وكأنما زيارة رسمية .. واستقبال حافل من الضباط ومن المدير .. وأخذت خلال هذه الزيارة أتجول فى أنحاء السجن .. مثلاً أخذونى إلى المطبخ وفيه شاهدت أطباقاً نظيفة بها قطع كبيرة من اللحوم

وحين سألت عن هذه القطع الكبيرة قالوا إنها لمسجون واحد .. ثم عرضوا على رغيفا من العيش مصنوعاً بشكل جيد .. كما أخذوني فى جولة أخرى لزيارة بقية أجزاء السجن فشاهدت حدائق كثيرة واسعة .. وأخبروني أن هذه الحدائق من أجل نزهة المساجين ..

ثم بعد ذلك دخلت السجن .. ففوجئت بصور مختلفة تماماً ..

رغيف العيش وجدته معجوناً بالتراب وحجمه صغير جداً .. ووجدت أن اللحم الذى يصل إلى المسجون كله دهون ، ولم نكن نرى فى الطبق المقدم إلينا سوى نقط اللحم .. يمكن أن تراها فقط تحت الميكروسكوب .. أما بخصوص الحدائق فكانوا ينبهون علينا أن من يغامر ويخرج إلى الحديقة سوف يحبس ويضرب بالنعال ، لأن هذه الحدائق المزعومة كانت مخصصة للضباط وليس للمساجين من أمثالنا ..

وكنت قد عرفت قبل دخول السجن هذه المرة متهماً .. أن السجن به مكتبة .. ولكل سجين الحق والحرية فى القراءة والكتابة .. ولكن هذه الصورة تغيرت أيضاً فكانوا يمنعون عنا الكتب وكل شيء يتعلق بالكتابة والقراءة .. وقد اكتشفت أن هذه التعليمات خاصة بى فقط .. والسبب أننى وجدت خطاباً قد سبقنى إلى هنا موجهاً من وزير الداخلية آنذاك إلى مدير السجن فيه تعليمات صريحة بمنعى أنا مصطفى أمين على وجه الخصوص من كتابة حتى الخطابات إلا مرتين فى الشهر فقط ..

لقد اكتشفت أن ماشاهدته فى رحلتى الصحفية للسجن قبل القبض على هو ديكور وهمى .. تم تركيبه قبل زيارتى من أجل أن أكتب عنه وأنقله للقراء .. وللأسف كنت كثيراً ما أشاهد هذا الديكور يتم تركيبه وترتيبه من جديد كلما زار السجن مسئول كبير .. وبعد الزياة سرعان ماتعود الأوضاع السيئة على ماهى عليه بل إلى أسوأ .. وأنا أذكر فى مرة من هذه المرات .. أن زيارة المسئول الكبير قد شملت مستشفى السجن.. وكنت وقتها أعالج فيها .. وعلى الفور تم استبدال المفروشات المتسخة والقذرة بغيرها نظيفة .. بل أكثر من ذلك جاءوا بزجاجات الدواء ورصوها بجوارنا بالقرب من الأسرة التى ننام فوقها .. لقد كانت بالفعل مسرحية هزلية ..

***

ورغم ماقاسيته طويلاً داخل جدران السجن .. من عذاب وتعذيب إلا أن السجن لم

يكن شراً كله .. فهو عالم جديد عليك خاصة أن تعيش فيه لأول مرة .. وفيه تتم صداقات حميمة نقية بعيدة عن الرياء والزيف .. لقد كانت لى صداقات من هذا النوع داخل السجن ، وامتدت حتى بعد الخروج والإفراج عنى .. وأكثر هذه الصداقات التى تأثرت بها وأثرت فى نفسى .. أننى تعرفت فى السجن على رجل عظيم عرض على أن يهربنى إلى الخارج .. وكان مستعداً لدفع مبالغ طائلة كى تتم عملية تهريبى من السجن .. ولكننى رفضت مع أننى لم أقابل هذا الإنسان الطيب من قبل .. ويبدو أنه كان من قرائى الأعزاء .. وعلى أية حال مازالت علاقتى به قائمة حتى الآن ..

***وهل يمكن الإفصاح عن اسمه الآن ؟**

ـ لا ..

أما الإنسان الثانى أو الرجل العظيم الآخر الذى تأثرت به وبصداقته فهو مأمور سجن طره اللواء عبد الله عمارة .. ذلك الرجل الذى كاد أن يرفت بسببى .. ولهذه الحكاية قصة .. فقد نما إلى علمى وأنا داخل السجن أن وزير الداخلية آنذاك وهو على ما أذكر شعراوى جمعةعلم أن مصطفى أمين يحصل على أطعمة خاصة داخل السجن وتأتيه من الخارج .. وقد نجحوا فى إثبات ذلك عن طريق الحصول على رسالة كانت ابنتى المرحومة رتيبة قد بعثت بها إلى مأمور سجن طره وبها قائمة الطعام التى تريد إرسالها إلى داخل السجن .. وقاموا بزيارة مفاجئة للسجن ضمت وزير الداخلية وعباس قطب مدير مصلحة السجون آنذاك وعدداً كبيراً من ضباط الوزارة ..وتفقدوا السجن .. وفى نهاية الزيارة طلب شعراوى جمعة قائمة الطعام المشار إليها ، والتى تم ضبطها فى مكتب مأمور السجن وأخذ يقرأ مابها بصوت مرتفع .. وكان بالقائمة طلب لإدخال جبنة «روكفور» .. حينئذ تقدم شعراوى جمعة من مأمور السجن وسأله :

هل تأكل هذه الجبنة فى منزلك ؟

وقبل أن يجيب مأمور السجن المسكين أصدر شعراوى جمعة قراره الفورى بنقل مأمور السجن اللواء عبد الله عمارة وحرمانه من الترقية .. وأفهمه أن ذلك هو إجراء مخفف بدلاً من الرفد ..

* * *

وخلاف ذلك كان معى مساجين كثيرون .. التقيت بهم بعد الخروج والإفراج عنى..

وقابلتهم .. وقدمت إليهم مساعدات كثيرة حين علمت أنهم فى حاجة بالفعل إلى هذه المساعدات .. ومع ذلك فإننى أعتبر ماقدمته لهؤلاء قليل جداً بالنسبة للخدمات التى كانوا يقدمونها إلى ..

وحين ينتقل الحوار إلى جانب آخر من جوانب تأثير تجربة السجن على الكاتب والمفكر مصطفى أمين .. يقول :

ـ بالنسبة لأهم النتاجات الفكرية التى ولدتها تجربة السجن هذه .. أقول لك إن كل الكتب التى أصدرتها .. كتبتها داخل السجن .. وأذكر لك بعضاً منها مثل «سنة أولى سجن » و«ثانية سجن» و«ثالثة سجن» وهكذا .. ثم قصة «أشرف امرأة فى الشارع».. وقصة «سنة أولى حب» وقصة «صاحب الجلالة الحب» وأيضاً قصة «لا» وقصة «الانسة هيام» .. بالإضافة إلى كتاب سياسى بعنوان «من واحد لعشرة» يعنى نقدر نقول إن كل هذه الكتب ألفتها فى السجن وكانت العصابة تهربها ورقة بعد ورقة ..

والشىء الغريب أننى لم أكتب عن السجن بعد الإفراج عنى ، لأننى كتبت كل انطباعاتى وأنا هناك خلف هذه الجدران الصماء ..

*** وهل السبب ربما يرجع إلى اعتباركم هذه الفترة سوداء فى حياتكم ؟**

ـ أبداً .. لم تكن فترة سوداء على الأقل بالنسبة لى .. فأنا دائماً أذكرها وأتذكرها.. هذا من حيث تأثير التجربة على مصطفى أمين شخصياً .. أما عن تأثيرها على حرية الرأى والفكر فى مصر بشكل عام .. فأولاً أنا دهشت لأننى اكتشفت أن هذا السجن قد دخله غيرى من الشخصيات العظيمة جداً أو الهامة جداً .. وللأسف لم يكتبوا عن هذه التجربة .. إلا القليل منهم مثل الأستاذ العقاد ومحمد التابعى وتوفيق دياب .. فمثلاً الدكتور أحمد ماهر دخل السجن مدة طويلة .. وكذلك النقراشى وإبراهيم عبد الهادى .. وربما يرجع السبب إلى أنهم كانوا يريدون نسيان هذه الفترة من حياتهم ، أما بالنسبة لى فالعكس صحيح .. لم أكن أريد أن أنساها .. لأننى بالإضافة إلى ماذكرته سابقاً أننى اعتبره دافعاً للتقدم إلى الأمام ..والشىء الثانى الأهم أننى وجدت فى قاع المدينة المتمثل فى المساجين ماهو أكثر قيمة ووفاء وأصالة مما كنت أجده فى مجتمع قمة المدينة .. وهم الناس الذين كانوا خارج الأسوار .. لقد كان الناس داخل السجن لديهم

وفاء وشجاعة وفدائية وأخلاق ..

*** هل تذكرون بالضبط فترة السجن الأخيرة ؟ ..**

ـ طبعاً .. كانت ثماني سنوات ونصف بالضبط .. فقد اعتقلت عام ١٩٦٥ ولم أخرج إلاّ عام ١٩٧٤ .. قضيت نصفها في عهد عبد الناصر ونصفها الآخر في عهد السادات الذي سمعت أنه كان ينوى الإفراج عني فور توليه منصبه كرئيس للجمهورية خلفاً لعبد الناصر .. ولكن ذلك تأخر ثلاث سنوات .. وربما يرجع السبب إلى وشاية نقلت إلى الرئيس السادات جعلته يحجم عن إتمام الإفراج .. فقد وصل إلى علمه أن مصطفى يعقد اجتماعات سرية مع علي صبري وسامي شرف في السجن .. وقد أكد لي هذا القول الرئيس السادات نفسه .. وقد اتضح فيما بعد أن أصل هذه الحكاية يرجع إلى رسالة نقلت إلى الرئيس السادات الذي بادر من فوره بالاتصال بوزير داخليته آنذاك ممدوح سالم .. كي يسأله عن تفاصيل مانقل إليه ..

ـ إيه الحكاية ياممدوح .. بقي مصطفى أمين وسامي شرف وعلى صبري يجتمعون يومياً في زنزانة واحدة ويكتبون كتاباً أسود عني ..

ورغم تأكيد وزير الداخلية بعدم صحة هذا القول .. حيث أبلغ الرئيس السادات أنني مسجون في زنزانة وهم في زنزانة أخرى .. إلا أن القرار قد تأخر ..ولم يصدر إلا في ١٨ مايو عام ١٩٧٤ بالقرار الجمهوري رقم ٥٨ لسنة ١٩٧٤ ..

* * *

*** ذكرتم في بداية هذا الحوار .. إنكم قد تعرفتم على شخصيات سياسية وصحفية كثيرة داخل أسوار السجن .. ولم تفصحوا لنا إلا عن بعضها ومنهم رجال طيبون وأصدقاء .. نريد أن نعرض بعض الشخصيات التى التقيتم بها هناك..؟**

ـ في السجن بقيت ٩ سنوات .. التقيت خلالها خاصة بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، بالعديد من القيادات السياسية التي سجنها عبد الناصر بعد الهزيمة وأذكر منهم الفريق صدقي محمود قائد الطيران في حرب ١٩٦٧ ، الذي قال لي إنه نصح عبد الناصر

بأنـه إذا لم نقم نحن بالضربـة الأولى فسوف نهزم .. ولكن عبـد الناصر أصر على أننـا لانضرب الضربة الأولى .. كما التقيت أيضـاً بـالشيخ حسن الهضيبي المرشـد العـام للإخوان المسلمين ، وقلت له آنذاك (أنا متوقع أن عبد الناصر هيفرج عن كل المسجونين السياسيين وهيسألهم عن رأيهم في هذه الكارثة)..

وعلى ذكـر حكايـة الإفراج عن الكـاتب مصطفى أمين الـذي تأخر أربع سنـوات .. تحدثنا كثيراً خلال هذا الحوار عن دور أم كلثوم في إتمام هذا الإفراج .. حيث اكد لى أن أم كلثوم كـان لها دور بارز في الإفراج عني خاصة لدى عبد النـاصر الذي لم يستجب لرأيها .. ولكـن ليست أم كلثوم وحـدها ، رغم أن دورهـا كان دوراً رئيسياً حتـى أيام الرئيس الراحل أنور السادات .. فقد كـانت هناك شخصيات أخـرى كثيرة قامت بهذا الدور غير أم كلثوم .. اذكر منهم .. الأمير طلال والملك فيصل .. وسعيد فريحة ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان ، وسفير العراق بالقـاهرة آنذاك فايق السمرائي .. وكثير من زعماء الدول العربية المعاصرين لجمال عبد الناصر والسادات..

وكـانت هنـاك عدة محاولات من أجل تبرئتـي من التهمة الظـالمة التي قبضـوا على بسببها ودخلت من أجلهـا السجن .. قام بها أيضاً العـديد من الأصدقـاء .. اذكر منهم رئيس وزراء السودان الأسبق محمد أحمد محجوب الـذي كان قد ذهب إلى جمال عبد الناصر بعـد محاكمتي وسأله : هل حقيقة مصطفى أمين جـاسوس ؟ .. فرد عليـه عبد الناصر أبـداً .. وأكد له أنـه هو الذي كلفني بـالاتصـال بـالأمريكان .. وكل مـاهناك أن مصطفى أمين قال لهم إنكم تريدون أن تقطعوا المعـونة من أجل أن يركع عبد الناصر .. وأنا يا أخ محجوب لا أركع لأحد .. فقا له رئيس السودان آنذاك .. علشـان هذه الكلمة .. يبقى تضعه في السجن ؟ .. فما كان من عبد الناصر إلا أن رد عليه :إنني حبيت أن أؤدبه لكن أنا في الوقـت نفسه مستعد أن أفرج عنه الآن .. لكن لـو حدثت ذلك فمعنى ذلك أن أفـرج عن الشيوعيين والإخـوان .. وإلا قالـوا إن أمريكـا هي التي أجبرتني على ذلك .. ولكن على العموم حين تحضر إلى مصر المرة القادمة ستجده في بيته .. ولم يحدث ذلك .. وكذلك فـائق السمرائي سفير العراق في القاهـرة الذي طلب مقابلة عبـد الناصر لنفس الغرض .. فذكر له نفس حكاية القمح والركوع .. وأنه أي عبد الناصر سوف يفرج عني من السجن وأيضاً ذلك لم يحدث ..

* * *

وفى غمرة حديث كاتبنا الصحفى عن تجربته داخل السجن .. وجدتها فرصة كى أعرف منه رأيه فى عقوبة السجن وتأثيرها على المفكر بشكل عام .. وهل من الضرورى أن يكون للمفكرين سجون خاصة بهم ؟ .. كذلك أردت أن أعرف منه بصراحته المعهودة رأيه فى سجون مصر الآن .. وهل هى فى رأيه وسيلة صالحة من وسائل التأديب والإصلاح ، أم تساعد على زيادة جرعة الإجرام .. وأشياء أخرى كثيرة متعلقة بهذا الموضوع ..

بادرنى الأستاذ مصطفى أمين قائلاً :

– والله شوف .. السجن لوحده مؤلم .. ولكن أسوأ مافيه رغم مايسببه من آلام نفسية ناجمة عن حبس الحرية .. هو أنظمة السجون فى بلادنا .. فأول شىء يقابل الإنسان داخل السجن أن يجرد من كرامته .. لأنه لايسمح لك بحمل ساعة أو فلوس أو ملابس أو أى شىء آخر .. ألم أقل لك إنهم داخل الجدران يجردون الإنسان حتى من كرامته .. إنهم يعطونك رقماً بدلاً من الاسم .. ويظل المسجون يتحرك داخل جدرانه المرتفعة والمرعبة تحت وطأة هذا الرقم .. فالإنسان المصرى بشكل عام يتحول داخل السجن إلى إنسان بلا كرامة ..

لذا لابد أن تكون للمفكرين سجون خاصة بهم .. فليس من المعقول أن أضعهم مع غيرهم من مرتكبى الجرائم الأخلاقية أو جرائم القتل وتجار الحشيش وأصحاب السوابق وقطاع الطرق .. والشىء الذى لفت نظرى خلال الفترة التى قضيتها خلف هذه الجدران أن مفهوم السجين السياسى لم يكن موجوداً لا فى اللوائح ولا فى عقول المشرفين عليه .. وكثيراً ما كانوا يعاقبون أهل الفكر بوضعهم فى العنابر الموبوءة بالأمراض خاصة مرض الجرب .

وبشكل عام .. إن حالة السجون فى مصر كانت سيئة للغاية .. لذا حين خرجت كثيراً ما كتبت مطالباً إعطاء مراتب للمساجين .. وأبلغونى أنها عممت .. ولكننى غير مصدق .. لأننى طالبت من عدة وزراء داخلية بعد خروجى من السجن بزيارة سجون مصر فرفضوا طلبى ..

وهذا بالطبع يجرنا إلى سؤالك عن أننا يمكن أن نعتبر السجون فى مصر الآن وسيلة

ناجحة من وسائل التأديب .. أم أنها تساعد على توالد الجريمة وزيادتها .. وأقول لك .. إن السجون بوضعها الحالى .. تزيد من أعداد المجرمين .. فهى عكس مايقولون .. ليست تهذيباً ولا تأديباً .. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب .. أولها أن السجانين أنفسهم أغلبهم غلاظ القلوب .. رغم أن منهم آدميين ويتصفون بالرحمة ، ولكن للأسف عددهم قليل ..

ولقد تقابلت مع النوعين .. الوحوش والآدميين .. واكتشفت أن الفرق بينهم كالفرق بين الإنسان والحيوان .. ويحضرنى هنا قصة سمعتها كثيراً تتردد داخل السجن .. فقد كان هناك ضابط من هؤلاء الوحوش .. همه الأول فى الصباح والمساء تعذيب وضرب المساجين .. وكان عنده عسكرى «مراسلة» حكى لنا أن هذا الضابط كانت تضربه زوجته كل يوم فى الصباح .. فيبدو أنه كان يعكس علينا معاملة زوجته السيئة له ..

*** ماهو تصور الكاتب الصحفى والمفكر الكبير مصطفى أمين عما يجب أن يكون عليه السجن فى مصر .. وخاصة بالنسبة للمفكرين ؟ ..**

ـــ أولاً لازم تعرف أنه فى كل البلاد الحرة ، لايوجد مانسميه نحن بالمسجون السياسى .. ولاتجد صحفياً أو كاتباً أو صاحب رأى فى السجن .. لكننا نشاهد مثل ذلك وأكثر فى البلاد غير الديمقراطية .. وما دمنا دولة غير مكتملة الديمقراطية ولانستطيع أن نكون دولة ديمقراطية بنسبة ١٠٠٪ فى الوقت الحاضر ، فلابد وأن نكون ديمقراطيين حتى ٨٠٪ مثلاً .. ونقيم سجوناً خاصة بالمفكرين والسياسيين حتى لانضع السياسى مع المجرم ودعنى أذكر لك .. أن هذه السمات غير الديمقراطية التى أثرت على أوضاع السجون كانت أيضاً قبل الثورة وأذكر لك مثالاً على ذلك .. زمان .. محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية حكم عليه بالسجن المؤبد والحقوه بالعمل داخل السجن .. مكوجى .. والأستاذ توفيق دياب عمل ترزياً داخل السجن ..

إننى آمنت دائماً بأن لامستقبل لمصر إلا بالديمقراطية .. وكلما أصيبت الديمقراطية بأزمة أو نكسة تضاعف هذا الإيمان .. إن الآمال العظيمة لاتتحقق إلا بتضحيات عظيمة ..

مصر عرفت الديمقراطية عدة مرات ، وفقدت الديمقراطية عدة مرات أيضاً .. ولم ييأس هذا الشعب .. لقد طالب عمر مكرم بالديمقراطية .. وطلب أحمد عرابى

بالـديمقراطية .. وقـام الشعب بزعـامة سعد زغلـول يدعـو لحكم الشعب وبأن الأمة مصدر السلطـات .. إنني متفائل جـداً بمستقبل بلادنـا على عكس مايرى الآخرون .. ولعلك تـلاحظ أن من سمات عدم وجـود الديمقـراطية في مصر الآن بشكلها المتكـامل والمتعارف عليه حضاريـاً .. أن المفكر أو الصحفي أو السياسي لايعتقل ولا يسـجن إلا بقرار من رئيس الدولة .. والمفروض ألا يقبض على المفكر وصاحب الرأى إلا بقرار من المحكمة .. ويحاكم أمام محاكم مدنية وليست عسكـرية .. إن ثبت تورطه في أى جريمة من الجرائم التى ينص عليهـا القانون المدنى ، كما تـلاحظ كذلك أن الإفـراج عن المفكر المعتقل لا يتم إلا بقرار سياسى كما تم من قبل اعتقاله بقرار سياسى ..

وهنـاك ظاهـرة طيبة تـدل على أننا نسير في الطـريق الصحيح نحو الـديمقراطيـة وحقوق الإنسان واحترام آدميته .. هو أن عـدد المسجونين السياسيين والمفكرين خلف القضبان قد قل كثيراً في أيام الرئيس السادات لأنـه أفرج عن عدد كبير منهم فور توليه الحكم .. وأيضاً في هذه الأيام قلت ظاهـرة اعتقال المفكر بشكل ملحوظ .. حتى وصلت إلى أدنى معدلاتها .. وقد بدأ الرئيس مبـارك فترة حكمه بالإفراج أيضاً عن المسجونين السياسيين وأهل الفكر . .

ولابد أن يكون واضـحا لك ولغيرك.. أن الدولة حين تتفرغ للحكم على المفكر وتقبض عليه وتسجنـه.. معناه أن الدولـة قد تحولت إلى سجـان.. وكل البلد تحولت إلى سجن كبير ليس للمفكر فقط.. بل لجميع الناس، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود خلل ما في المجتمع لأن الفكر لا يحاكم وكذلك أصحاب الرأى.

*** في كلمات تلغرافيـة.. ماذا يقـول الأستـاذ مصطفى أمين للمفكـر المصرى.. وكذلك للمسئولين عن السجون؟**

ـ أقول أولا للمفكـر إنه يجب أن يعرف أنه مـا دامت هناك ديمقراطية نـاقصة فهو معرض في أي لحظة وفي أى يـوم أن يدخل السجن.. لذلك عليه مـن الآن.. توظيف عقله وفكره وقلمه من أجل العمل على تحسين معاملة المسجونين..

وللمسئولين عن السـجن أقـول: أذكركم بأن بعض الذين وضعـوا لوائح السجن في

مصر دخلوا السجن وطبقت عليهم.. فليتعظوا.

***

الآن توقف دوران شريط التسجيل .. كي أعيده على الوجه الآخر .. الوجه الذي حكى لى فيه المفكر الصحفي الاستاذ مصطفى أمين حكايـة عصابة تهريب الورق والقلم التى كونها .. ونجح من خلال أعمالها المتقنة أن يوصل صوته إلى خـارج السجن ، وبالتالى نجح فى تهريب أكثر من تسعة الاف رسالة .. وأكثر من كتاب ..

وبعد لحظـات صمت جاء صـوت مصطفى أمين يحدثني ، وكأنما يشـدو بأغنيـة يعشقها .. ولم أكن أتخيل فى لحظـة من اللحظات أن يعترف لى هـذا العملاق أنـه كان فى يوم من الأيام زعيم عصابة ..

ـ حينما منعونى من الكتـابة فكرت فى أن أهرب الخطابـات .. فقمت بتأليف عصابة من بعض المسجونين غير السياسيين .. واخترتهم بدقـة من المظلومين ، لأننى أعتقد أن المظلوم هـو أكثر شجـاعة من غيره .. هـؤلاء اخترتهم من أجل تهريب ما أكتبـه خارج السجن .. وحين تسألنى كيف .. فلذلك قصة طويلة .. لقد كونت هذه العصابة فى سجن طرة وهو آخر سجن أقمت به .. وكنت فيه أقيم فى زنـزانة بالدور الرابع .. وقبل حكاية التفـاصيل أقـول لك إننى تنقلت فى أكثـر من خمسـة سجـون .. سجن الاستئنـاف .. والسجن الحربى وسجن المخابرات وسجن القناطر وأخيراً سجن طره .. وفى كل سجن كنت أقضى بعض الـوقت .. فى السجن الحربى مثـلاً اقمت اربعـة اشهـر .. وفى سجن الاستئناف ستة أشهر .. وكذلك سجن القناطر قضيت به عدة أشهر .. أما فى سجن طره فقد قضيت بقية المدة ..

وفيه تكونت هذه العصابة التى تعتبر عصابة من نوع خاص .. نوع شريف لتهريب الأفكار .. كما ذكرت لك كنت نزيل الزنزانـة الأولى بالدور الرابع .. وكان فى نفس الدور نزيل آخر بـالزنزانة رقم (١٤) رأيت فيه السجين المظلوم الـذى زج به فى السجن معنا بعد اتهامه فى قضية ثأر ظلماً .. والشيء العجيب أنه كان رجلاً أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة .. وقد اخترته نائباً لزعيم عصابة تهريب الخطابات لهذا السبب ، بحيث لايكون موضع شك من جـانب المسئولين عن السجن فيما يقـوم به من مهـام أكلفه بها .. وكل دوره أنه كان يهرب لى الورق والقلم عن طـريق استلام هذه المهمات وتسليمها إلى بقية

المساجين أعضاء العصابة الآخرين الذين وزعتهم على بقية أدوار السجن .. ومنهم من كانت زنزانته قريبة من الزنزانة التى أنزل بها..

كنا خمسة مساجين .. أنا والرجل الأمى وثلاثة آخرون فى بقية الأدوار .. يحتل كل واحد منهم الزنزانة الأولى فى الدور الذى يقيم به ..

هؤلاء كانت مهمتهم إطلاق كلمة السر المتفق عليها بيننا وبصوت نسمعه جميعاً حين تبدأ حملات التفتيش .. وعلى الفور تختفى الأوراق والأقلام وتزحف من يد إلى يد حتى تصل إلى الزنزانة رقم (١٤) التى يقيم فيها نائب زعيم العصابة والذى كما قلت لم يكن يقرأ أو يكتب ، وبالتالى كانت زنزانته بعيدة عن ذهن رجال السجن الذين لم يقوموا ولو مرة واحدة بتفتيشها .. وهكذا كنت أكتب وأهرب الورق إلى نائب زعيم العصابة .. الذى يحتفظ بها حتى تحين فرصة تهريبها إلى الخارج .. وكان ذلك يحدث رغم أنهم كانوا يفتشون زنزانتى مرتين فى اليوم وبلا مواعيد مسبقة ..

***وماهى كلمة السر التى كان متفق عليها ؟ ..**

ـ كانت اسم ضابط سجن سابق اسمه أحمد عبد الرحمن ..

*** ولماذا هذا الضابط بالذات ..**

ـ لأنه كان مشهوراً بوحشيته وجبروته .. وكان اسمه يخيف أى مسجون ..

***

وخلال هذا الحوار الذى قارب على الانتهاء كنت أتعمد أن أثير قضايا كثيرة ومتنوعة .. وكنت افترض أن الأستاذ مصطفى أمين سوف يعترض عليها .. ولكنه كان يجيب فى سماحة والابتسامة لاتفارق شفتيه .. مثلاً سألته لو أصبح فى يوم وليلة مأموراً لأحد السجون .. ماذا سيفعل مع هؤلاء الضيوف المساجين من المفكرين والمجرمين .. كما افترض فيه أن يكون فى يوم من الأيام رئيساً للوزراء أو وزيراً للداخلية ، وسألته عما سيكون موقفه من المفكرين وقضايا الفكر بشكل عام..

بادرنى بقوله : أولاً لو كنت مأموراً للسجن .. أطلق جميع المسجونين .. حتى المجرمين منهم .. لأننى أعتقد أن المسجون ماهو إلا مريض فى حاجة إلى علاج .. وأعتقد أن علاجه لايكون بحبسه أو سجنه .. أما بخصوص حكاية رئيس الوزراء أو وزير

الداخليـة .. فأولاً أنني لا أصلح للوزارة ، أو أن أكـون وزيراً .. أنـا فقط أصلح صحفياً وكاتباً .. ومع ذلك سيكون موقفي من الفكر والمفكرين الا يسجن هؤلاء الذين يحملون هذه الرسالة العظيمة رسـالة الفكر والرأى .. وحتى لو كانت أفكاراً معـارضة .. لأن التغلب على الفكر المعارض لايتم بالسجن .. بل بعرض أفكـار أخرى مؤيدة .. وأنا أذكر لك بالمنـاسبة واقعـة حدثت عـام ١٩٢٤ حين كان سعـد زغلول رئيسـاً لوزراء مصر ووزيراً للـداخلية ، وجـاءه مدير المطبـوعات ومعه كتـاب لمؤلف كبير عنوانـه «لماذا أنا ملحد؟».. وطلب مدير المطبوعات من سعد بـاشا زغلول الإذن له بمصـادرة هذا الكتاب فرفض .. وطلب من مـدير المطبوعـات تكليف عشرة مؤلفين من الأزهـر لتأليف كتاب بعنوان « لماذا أنا مؤمن؟» وبناء على ذلك رفـض مصـادرة الكتاب المذكور .. وبالفعل تم تكليف هؤلاء المؤلفين وصـدر الكتاب الجديد الذى محى آثار الكتاب الأول ..

وهكذا لابد من معـالجة الافكار بالأفكار .. وليست بالسجـون .. لذلك لا أوافق أبداً على اعتقال أى مفكر حين أكون على الفرض فى المنصب الذى طلبت مني أن أتخيل نفسي فيه ..

***على الفـرض ونحن نتحـدث الآن وعبر التليفـون طلب أحـد الذين عـذبـوا الأستاذ مصطفى أمين مساعدته فى أمر إنسانى .. ماذا تقول له ؟**

ـــ إذا كان داخل السجن أسـاعده .. ولكن خـارج السجن أرفض .. وقد عشت هـذا الموقف .. حين جاءنى إلى مكتبي أحد الضباط الزبانيـة الذين عذبونى بقسوة وكان قد فصل من الخدمة .. والشيء المضحك أنه جاءنى لأساعده فى العودة للخدمة من جديد .. طبعاً رفضت بشدة ..

*** وأخيراً .. هل تريدون إضافة كلمات أخرى ؟ ..**

قاطعنى ضـاحكاً وعـدل سؤالى بقـوله : لازم تقـول : هل لديك أقـوال أخرى .. ثم أجاب: أحب أقولك بكل صدق .. إن فترة السجن السـابقة لم تكن لى أياماً سوداء .. عكس مـايتصور الكثيرون منـا .. لقـد كانت دروسـاً طيبـة خرجت بها عبر ثماني سنـوات ونصف .. كما أحب أن أؤكـد .. أن الفكـر المصرى الحديث لايمكن أن ينتعش إلا فى ظل احترام حقوق الإنسـان عندئذ يصبح الفكر والمفكـر المصرى حراً طليقـاً يعانق السماء السابعة .. ولايتحقق ذلك بأمانة إلا فى ظل ديمقراطية سليمة ١٠٠٪.

الحكاية الثانية يرويها محمود السعدني:

الولد الشقي.. يكتشف حياة أخرى داخل السجن!!

رغم أنني قضيت معه أكثر من ساعتين.. فى شرفة منزله المطل على نيل الجيزة. ونسمات الصيف تداعب الأوراق.. وتصنع بهمسات اللمس فوق الزجاج.. سيمفونية بدائية.. تعزفها هوائيات غجرية تطير هنا وهناك.. ورغم أننى قد تمكنت خلالها من تسجيل لقاء حيوى وحوار عاشت كلماته داخل أسوار السجن العلية.. إلا أننى أخذت ابحث جديا عن كلما أخرى خارج هذا الحوار تكون مدخلاً لرحلتى هذه داخل عقل المفكر والكاتب الصحفي «محمود السعدني».. واكتشفت أن الولد الشقى قد سجل تجربته الطويلة فى عالم السجون فى كتاب واحد.. صدر له بعنوان «الولد الشقى فى السجن»..

وعرفت حينما تقابلنا أنه ينوى أن يضيف تجاربه الاخرى خارج السجن وداخله فى كتاب جديد.. لم يصدر حتى كتابة هذه السطور..

إن كلمات الاستاذ «محمود السعدني».. عن تجربة السجن فى حياته كمفكر وكإنسان تكاد تكون طبق الأصل لحياته التى قضاها فوق الكرة الأرضية.. طولا وعرضا.. تعلو به الظروف.. ثم سرعان ما تعود به إلى ما كان عليه من قبل..

ولا أنوى هذه المرة أن أفصح عن تفاصيل أسئلة هذا الحوار.. فقد آثرت أن يجهد القارىء عقله فى استنباط الأسئلة من خلال تتبع واع لحديث الولد الشقى.. وحتما لن يبعد حديثنا كثيرا عن موضوع هذا الكتاب.. الفكر والقضبان.. وكلمات أخرى يحتفظ بها الآن شريط التسجيل.. فى انتظار اللحظة التى أعطى له فيها إشارة البدء.. ولكننى وكما قلت منذ لحظات فى البداية الآن نفسح لها الطريق فى كلمات سطرها الأستاذ

محمـود السعدني.. ولن نفصح عـن عنوانها.. أوعنـوان الكتاب الـذى قـرأنا فيـه تلك الكلمات..

* * *

وكأنما كـان يقرأ أفكارى قبـل أن أذهب إليه حسب الميعـاد المتفق عليه بيننـا.. فقد قابلتني كلماتـه التى علقها فوق جدران منـزله.. ومن الغوص داخل معانيهـا.. عرفت الطريق الصحيح نحو الحوار الذى دام ساعتين فى أحد أيام الصيف..

تقول هذه الكلمات:

ـ «لقد سجنت عـدة مرات.. ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن الحقيقى إلا فى المرة الأخيرة.. فقد قدر لى أن أتعرف على عالم كنت سأذهب إلى قبرى حزينا لو مت دون أن أراه.. واكتشفت كذلك أن السجن جزء من الحياة، وما يجرى خارج الأسوار يجرى مثله وبالضبط فى السجن. وإذا كان خارج السجن أثـرياء يموتون من التخمة، وفقراء يموتون من الضيم.. وإذا كان فى الخارج أصحاب نفوذ وأبناء أكرمين وأبناء كلب.. وإذا كان هناك تسيب وسرقة ونهب ونصب، وإذا كان هناك فساد وأشياء لا ترضى الله ولا العباد.. ففى السجن أيضا تـدور هذه الأشياء بالتمام والكمال وتركيـز أشد، مع فارق بسيط، هو أن نزلاء السجن أصدق وأشرف..

وفى تواصل مستمر لما كتبـه «الولد الشقى».. وما تناوله هـذا الحوار.. وجدنا نقطة التقاء غريبـة.. لعبت المصادفة دورها العظيم فى ترتيبه.. فقـد اكتشفت وأنا أعيد سماع الشريط من أجل تفريغه.. أن بداية الحوار كانت هكذا:

*** نريد من الكاتب الساخر والمفكر الصحفى الكبير الاستاذ محمود السعدنى أن يحدثنا عن تأثير تجربة السجن والاعتقـال فى حياته كمفكـر وصاحب رأى أولا.. وكإنسان ثانيا؟..**

ـ شوف السجن فى حياة الإنسان حـادث مؤسف.. يعنى أسوأ من المرض. إنه أسوأ شىء فى حيـاة الانسان.. وليس من سلـوكيـات البشر..وإلا فكيف تحبس شخصا مـا وتتركه وحيدا وتنصرف عنه.. إن الحبس معناه أن تعزل هذا الشخص عن العالم.. إنها عقوبة يمكن أن تكون أشد خطرا على حيـاة البشرية من الجريمة التى ارتكبها الإنسان

فى حق نفسه وحق مجتمعه.. وفى تصورى أن الإعدام خير من السجن.. وأهون منه.. إلا إذا كان السجن فترة قصيرة.. شهرا أو شهرين.. فى هذه الحالة يكون عقوبة مفيدة ،إن السجن بعيد عن هذا المفهوم يحول الإنسان إلى حيوان.. لأنه بين يوم وليلة يجد نفسه بين أسوار عالية فى عزلة تامة عن العالم.. وبين حراس وضباط..

إنه عالم آخر.. وحياة أخرى غير الحياة التى يعتاد عليها الإنسان.. أو الانسان الذى ليس حيوانا.. ورغم أن السجن شىء صعب جدا.. إلا أنه من وجهة نظرى لابد للإنسان أن يجربه بشرط أن يكون فترة قصيرة.. وتجدنى شديد الأسى والأسف لهؤلاء المفكرين والصحفيين الذين قضوا فترة طويلة داخل السجن.. وعلى سبيل المثال المرحوم الكاتب الصحفى صلاح حافظ الذى عاش ٩سنوات متصلة فى السجن، وقد دخلت عليه مرتين.. ولم يفقد فيهما روحه ومرحه..

وتستطيع أن تقول أيضا إن السجن هو اختراع إنسانى سخيف.. وهو إجراء قديم قدم الانسانية.. استخدم كثيرا لعقاب المفكرين والمعارضين وأصحاب الرأى والمجرمين.. ومع ذلك فإن الجريمة كما هى لم تتغير ولم يستطع الانسان رغم تقدمه أن يقضى على الجريمة أو المجرمين.. من أجل ذلك بدأت بعض الدول الاوربية التفكير فى تغيير أسلوب مقاومة الجريمة بغير السجون..

*** يجرنا هذا الحديث إلى أن نسأل الأستاذ محمود السعدنى عن عدد المرات التى دخل فيها السجن؟..**

ـ أنا دخلت السجن ٤ مرات.. أول مرة سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ عندما أقيلت حكومة الوفد وكنت وقتهاتلميذا فى المرحلة الثانوية بمدرسة مازالت موجودة إلى الآن فى ميدان لاظوغلى وتسمى «المعهد العلمى».. وأنا اذكر تفاصيل هذا الاعتقال وسببه.. حيث كان بمناسبة ترشيح ناظر المدرسة واسمه مصطفى.. الذى بدأ فى استخدام طلبة المدرسة فى الدعاية الانتخابية وكان مرشحا مستقلا بجانب تمسكه بمبادىء حزب الهيئة السعدية.. وكان دورى فى تلك الفترة.. أن أخرج التلاميذ وأنظمهم فى مظاهرات.. وبالفعل اشتركت فى لجنة الدعاية لمبادىء ناظر المدرسة التى شكلت برئاسة ضابط المدرسة والذى مازال يعيش حتى الآن واسمه إبراهيم الحريرى.. وهو رجل من أهالى عابدين الاشداء والمعروفين بالرجولة.. وكان من بين أعضاء هذه اللجنة شاب اسمه

عبد السلام صار فيما بعد حانوتي القلعة.. وآخر اسمه النواوي صار فيما بعد من كبار الجزارين بالمذبح.. وهؤلاء الذين ذكرت لك أسماءهم ظلت علاقتي بهم.. وانقطعت تقريبا منذ عام ١٩٦٩..

في هذه الفترة قمنا بمظاهرات طلابية ضخمة ضايقت الحكومة الى درجة الاشتباك بالايدي مع مؤيدي مرشح الخصم.. فدبروا لنا مكيدة وعن طريقها قبضوا علينا.. ونقلونا إلى قسم السيدة زينب داخل الحجز.. ولأول مرة أدخل إلى قسم بوليس.. ولأول مرة أعرف ما اصطلح على تسميته بالحجز.. وبداخله تعرفنا على المجرمين.. وكنت وقتها في الثامنة عشة من عمري.

المهم مكثنا فيه طول الليل.. وطول النهار.. وبعد يومين أعلنوا نتيجة الانتخابات ونجح ناظر المدرسة مصطفى عبد الهادي الذي صار فيما بعد صهر الملك فاروق.. حيث تزوجت ابنة اخته «ناريمان» الملك فاروق.. والذي توسط لدى مأمور السجن للافراج عنا.. وخرجنا من حجز السيدة زينب.. وبعد الخروج لم أكن اتصور وجود مثل هذا المكان على وجه الأرض.. بهذه القذارة وبهذا السوء لقد قضيت بداخل هذا الحجز أربعة أيام.. خفت بعدها من السجن جدا..

أما في المرة الثانية.. فقد قبضوا على بعد أن أنهيت تعليمي.. وكنت وقتها مراسلا صحفيا في السويس لجريدة النداء لتغطية معارك القناة عام ١٩٥١.. معارك الفدائيين. وقتها دخلت في معارك عديدة قبل اتمام إلقاء القبض على في هذه الفترة.. وكنت وقتها في سن الخامسة والعشرين وكان معي في هذه الفترة مجموعة كبيرة من الصحفيين لتغطية معارك القناة وفي السويس قضيت أربعة أشهر وعندما نويت أن أغادرها.. عرفت أنه مطلوب القبض على.. وقد أبلغني بذلك أحد الضباط الوطنيين وأذكر اسمه الأول محمد ولا يزال يعيش حتى الآن.. وله ورشة بلاط في بور سعيد..

هذا الضابط الوطني كان يعلم تمام العلم أنني على خلاف مع بعض الضباط الكبار الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز والذين اتهمتهم علانية بعدائهم للمصريين وتعاونهم مع الإنجليز المحتلين لمصر آنذاك.. ووفقا لاقتراح الزميل الصحفي حمدي عبد العزيز.. تقدمت لمحافظة السويس بطلب أثبت فيه أنني أحمل سلاحا بدون ترخيص من أجل أن يقبضوا على ويتم ترحيلي في حراسة إلى القاهرة بعيدا عن شبح الاغتيال والقتل الذي

كـان ينتظرني من هـؤلاء الضباط الـذين حكيت لك عنهم منذ لحظات.. ولكن ذلك لم يحدث.. كما تصور حمدى وأصر محافظ السويس أن أبقى بالمدينة من جديد فى أمان.. إلا أن بعض الضباط المصريين الوطنيين وأذكر منهم ضابطا اسمه الصاغ زكى جبران اقترحوا أن أخرج من السويس حفاظا على حياتى عن طريق مركب.. ووقتها طلبوا منى مبلغ ستـة جنيهات من أجل إتمام عمليـة الهروب هذه.. وبـالفعل تم ذلك ووصلت عن طريقها إلى الاسكندرية.. ومنها إلى القـاهرة التى وصلتها بعد الحريق.. وفور وصولى إليهـا تم إلقـاء القبض على العبد للـه بسبب (حـريق القـاهـرة).. فدخلت حجـز أحـد الاقسام.. ومكثت فيـه أربعة أيام.. وكـان حجزا أسوأ من حجـز قسم السيدة زينب.. وعندما أثبت لهم أننى لم أكن موجودا بالقاهرة لحظة وقوع الحريق أفرجوا عنى..

أمـا المرة الثـالثـة فكانت عـام ١٩٥٩.. حيث قبضوا على فجـر أحـد الأيام بمنـزلى بالجيزة.. وأنا أذكر اسم الضابط الذى جاءنى فى تلك الساعة وأعتقد أن اسمه طوسون وكنا وقتها فى شهر رمضان.. وقد أبلغنى الضابط أننى مطلوب هناك لمدة خمس دقائق فقط.. ومن مباحث الجيزة حولونى إلى معتقل القلعـة ومكثت فيه شهراً وشهراً آخر فى الفيوم ومنهـاإلى الواحات وكان معى عبـد الستار الطويلة فى سلسلـة واحدة.. ومكثت هناك سنة وشهرا بالضبط وقد قاسيت خلالها ألوانا من التعذيب..

وقاطعته قائلا:

***وما هى التهمة يا أستاذ محمود؟..**

ـ دا كان اعتقال.. ولا يقـولون لك السبب.. ولم يكن يتم بمحاكمة، المهم رأيت بعينى كيف يكون التعذيب على أصوله.. والشىء الغريب أننى فى البداية كنت آخذ هذه المسألة «هزار فى هزار».. لأننى كنـت غير متصور حتى هذه اللحظة أنه سيفـرج عنى بسرعة.. وثانيـا لأننى شاهدت ألـوان التعذيب بل وتعرضت لها كثيرا. وأكثـر من ذلك هناك فى الواحات عهدوا إلينـا بأشغال شاقة ومرهقة.. وتصور لقـد كسرنا زلط الجبال هناك.. وحملنا الطوب والرمل فوق أكتـافنا.. من أجل ذلك كنت أعتبرها فترة هزلية.. رغم أنها كانت أسـوأ فترة اعتقال وسجن وتعذيب مرت على..

*** وتفتكر دا كان المقصود؟..**

ـ وقتها كانـت هناك معركة شرسة بين جمال عبد الناصر وعبـد الكريم قاسم.. وفى

فترة الطفولة السياسية آنذاك انضم جزء من المفكرين المصريين إلى عبد الكريم قاسم حاكم العراق ضد جمال عبد الناصر.. المهم أن جمال عبد الناصر قد اعتقل هؤلاء ممن يعتنقون الشيوعية وكذلك المشتبه فيهم.. وكنت أنا من الصنف الثانى.. ولحظتها كان النظام الناصرى فى عنفوانه.. وأنا أذكر وأنا داخل معتقل الواحات أن الدنيا قد تحولت فى لحظة بالنسبة لى إلى مسرحية هزلية سخيفة.. والدليل أنهم كلما كانوا يضربوننى كنت أضحك.. أقهقه.. لقد انتابتنى حالة من الهيستريا..

ومن الواحات رجعت إلى سجن الفيوم حيث أقمت فيه أربعة أشهر ومن الفيوم أفرجوا عني.. يعنى تقدر تقول مدة السجن هذه كانت سنة وستة أشهر أو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا.. وقتها خرج معى لطفى الخولى الصحفى المعروف والدكتور لويس عوض.. بل أقول لقد خرجت بصداع شديد وإحساس بطعم آخر للحياة.. والسبب ربما كان يرجع إلى مقارنتى الدائمة بين الحجز فى الأقسام وما كنت أراه فيه من قذارة ومجرمين.. وبين السجن والمعتقل وما قاسيت فيه من تعذيب وإهانه ولعلك تتعجب حين أقول لك إن السجن رغم ما كان فيه.. هو بالقياس أنظف من ذلك الحجز الذى حدثتك عنه منذ قليل.

المهم خرجت من هذه التجربة صاحب مرض مصحوب بحالة هيستيريا أنقذنى منها الدكتور أنور المفتى الله يرحمه.. وقتها امتنعت عن الكتابة.. وخاصمت العمل الصحفي.. ورفضت ما عرضه على الاستاذ احسان عبد القدوس آنذاك.. لأننى بالفعل فضلت أن أجلس فى بيتى هذه الفترة.. وبأمانة كنت أذهب إلى روزاليوسف أقبض مرتبى فقط.. حتى أقنعنى الكاتب الروائي فتحى غانم أن أكتب بابا بعنوان «هذا الرجل».. كانت تكتبه من قبل الزميلة فوزية مهران فى مجلة صباح الخير.. هذا العمود بأمانة هو الذى أرجعنى إلى الحياة من جديد.. ورويدا رويدا نسيت السجن وأهواله وعدت إلى الصحافة ومتاعبها وبدأت فى إخراج كتبى ونشرها.. وسافرت إلى الخارج.. واستمرت حياتى هكذا حتى عام ١٩٧١.. بعد وفاة جمال عبد الناصر.. وانتخاب الرئيس السادات..

تلك الفترة التى بدأت بالتحقيق معى فى الاتحاد الاشتراكى آنذاك والتى قيل وقتها

تلفيقا إننى اعتقلت بسبب اشتراكى فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.

*** اذن ما هى حقيقة الاعتقال الأخير.. وأسبابه؟.. باعتبار أنه المرة الأخيرة التى دخل فيها الولد الشقى السجن..؟!**

ـ كل ما فى الأمر أنهم ضبطوا فى الجيزة أوراق انتخاب أنور السادات أكثر من عدد المسجلين فى الدفاتر وحين سألوا المسئول آنذاك وهو على ما أذكر اسمه محمود عفيفى.. كيف تضع بطاقات انتخاب لأنور السادات بأسماء مزورة وغير موجودة بالكشوفات قال لهم.. محمود السعدنى هو اللى قال لى.. فاستدعونى للاستفسار عن هذه الواقعة فأجبتهم باننى الذى قلت له ذلك.. وأنا أذكر أيامها أنه كانت هناك مشكلة بين السادات وفريد عبد الكريم وأنا خفت يحدث أى تقصير فى الجيزة فيقع اللوم على فريد عبد الكريم.. وعندما لاحظت أن أحدا لم يأت للانتخابات.. اقترحت إضافة أسماء وهمية وغير موجودة بالكشوفات..

وأمام أحد المحققين اعترفت أننى المسئول عن هذه الواقعة.. لأننى كنت أود أن ينال السادات أغلبية مطلقة بمحافظة الجيزة حتى أضمن عدم إحداث صدام بينه وبين فريد عبد الكريم.. هذه الواقعة كانت فى اكتوبر.. وبعد ٦ أشهر تم القاء القبض علىّ بتهمة الاشتراك فى مؤامرة قلب نظام الحكم.. ولعلمك حينما ضبطوا شرائط المكالمات بينى وبين فريد عبد الكريم آنذاك وجدوا بها شتائم لا أكثر ولا أقل.. ولأنها كانت شتائم خارجة لم يذكروها فى المحكمة.. المهم فى النهاية دخلت السجن لمدة سنتين.. قضيتهم كالآتى: ٣ شهور فى مستشفى كلية الشرطة.. ثم ٥ أشهر فى السجن الحربى.. أما الباقى فقد قضيته فى سجن القناطر الخيرية بالقاهرة.. وقابلت فيه حثالة المجتمع المصرى من مجرمين ونشالين وقتلة ومكدس بأعداد كبيرة من كل الأصناف إن جاز هذا التعبير..

نعود إلى الحديث مع الولد الشقى عن أحوال السجن من خلال تجاربه الشخصية فى هذا المجال؟..

ـ شوف.. اسمع.. أنا سوف أحدثك عن السجن فى آخر فترة قضيتها فيه.. وهى فترة سجن القناطر.. ومن قبل حدثتك عن مثل ذلك فى بقية السجون الأخرى حتى الحجز فى اقسام البوليس.. وحين نعود للحديث عن أحوال السجن الخاصة بالقناطر.. أقول لك..

إننى كمسجون سياسى كنت فى زنـزانة مستقلة عن باقى المجـرمين الآخرين.. وكانت هذه ميزة كبيرة رغم أنها كـانت فى أغلب الأحيان سجنا انفراديا.. وهنـاك فئات اخرى غير المساجين السياسيين كـانت لهم أوضاع خاصة داخل سجن القنـاطر.. وهم طبقة الأثريـاء من المجرمين وتجار الحشيش وخلافـه.. باختصـار لقد كان سجن القنـاطر وعالمه الخاص أغرب مكان رأيته على ظـهر الأرض لما فيه من تناقضـات لا يصدقها غير الذى عاشها..

وأحب أن أؤكـد لك أن أسوأ شىء واجهتـه فى السجن.. هو الانتظار.. ليـس انتظار الإفراج.. ولكن الانتظار لأنك لا تعرف ما الـذى سيأتى به الغد.. ومع ذلك فإننى أؤكد لك أن هذه الفترة التى قضيتها فى السجن أيام الرئيس السادات قد أفادتنى كثيرا..

*** ولكن كيف يا أستاذ محمود؟..**

ـــ أقول لـك.. حتى أيام السجن فى عهـد عبد النـاصر أيضا أفـادتنى لأنـه لم يكن مسموحا لنا بالقراءة ولا بالكتابـة، فيما عدا قراءة الكتب الدينية لذا أقبلت على قراءتها كلها.. حتى الكتب الـدينية المسيحية واليهـودية.. وقـد استفدت جدا لأننى بمســاعدة بعض النزلاء تمكنت من الحصول على بعض كتب التراث مثل كتـاب الأغانى وخلافه.. وعلى فكـرة يوجـد بالسجن مكتبـة ضخمـة أسسها من قبل الشيـوعيون والإخـوان المسلمون الذين سجنوا هناك.. وتحضرنى قصة لطيفة متعلقة بقراءاتى داخل السجن.. ففى أحد الأيام ذهبت إلى المكتبة أبحث فى دفاترها.. فاكتشفت وجود أجزاء كتاب «قصة الحضارة» وبعد بحث طويل.. اكتشف المسئول عن هـذه المكتبة أن الكتاب غير موجود وأن أحد المساجين قد استعاره من قبل.. على كثرة عدد أجزائه..

ومرت الأيام.. وكلما أذهب للمسئـول عن المكتبـة أسألـه عن أجـزاء كتاب قصـة الحضارة أكتشـف أنها مازالت مستعارة.. ولما شككـت فى الأمر طلبت مقـابلة السجـين الذى استعارها.. فقالوا لى إنه مقيم فى عنبر (ب) بالدور الثالث بالزنزانة (١٧).. واسمه أحمد قطقط.. مسجون مخدرات.. ومحكوم عليه بخمس عشرة سنة سجن.. ولما سـألته عن الكتاب.. أبلغنى أنه يستخدمه مخدة «ينام فوقهـا».. لقد كان هذا الرجل ينام فوق قصة الحضـارة.. لقد كانت فترة السجن الأخيرة فترة ثقافة إجبارية..

*** طـوال هـذه الفترات التى اعتقلت خـلالها.. هل تم اعتقـالك وفقا لأصـول قضائيـة.. أو بمعنى آخر.. هل حكمت عليك إحدى المحاكم المدنيـة بالسجن؟.. أم كيف كان يتم ذلك؟..**

ـ لا.. أنا لم أحـاكم أمام محاكم مدنية إلا خلال عمل الصـحفي أو مـا يتعلق بـه.. أما بقية الاعتقالات فكانت تتم وفقا لمحاكم عسكرية.. وأيام الرئيس السادات حوكمت أمام محكمة تسمى «محكمة الثورة» كان يرأسهـا القاضي حافظ بدوى الله يرحمه.. وكنت أعرفه قبل دخولى السجن.. وكان فيها أيضـا حسن التهامى.. وفى هذه المحاكمة حكموا على بـالسـجن سنتين.. ونفذ على الفـور بتهمة الخيـانـة العظمى.. يعنى أنا كنت قـائدا عظيما وربما لم أكن أعرف..

وعلى أية حال أنـا لم أخن مصر طوال حياتى ولن يحدث.. وبعد انتهـاء مدة السجن خرجت فـوجدت قـرارا فى انتظارى بعدم عـودتى إلى عملى.. وبإبعادى عن الصـحـافة تماما.. فاشتغلت أياما مـع عثمان أحمد عثمان فى المقاولون العرب.. وبعد فترة رفضت مواصلـة العمل مع المهندس عثمان أحمد عثمان لأننى لم أتحملـه.. وطلبت ضرورة أن يحل الرئيس السادات مشكلتى وإلا سوف أترك مصر.. وبالفعل حينما لم أعد إلى عملى الصـحفى.. تركت مصر لمدة ٩ سنـوات.. ثم عدت بعدهـا.. وبدأت الحياة مـرة أخرى.. وأنا أتمنى ألا تعود هذه الأيام من جديد لأننى اكتشفت أن السجن المتكرر تجربة سيئة وخاصـة تجربة السجن فى بلدنـا.. لأنها تجربة تزيـد جرعة الإجـرام ولا تقضى عليه بالقدر المتعارف عليه..

وهذا الحديث يجرنا لسؤالك السـابق على أحوال السـجن.. وأقول لك إننى اكتشفت تفرقه مريرة فى المعاملة داخل هذه الجدران العالية كما اكتشفت وجود المسجون الثرى المبسوط.. والمسجون الآخر المعدم والفقير.. وأنـا أذكر لك على سبيل المثال.. إنه فى يوم من الأيام طـرق أحد المساجين على باب زنـزانتى طالبا «حسنة يـا بيه».. والسبب ربما يرجع إلى أنه كـانت توجد عصابات داخـل السجن من المسجونين أنفسهم تستولى على الأطعمة والأغطية ولا تعطى إلا لمن يدفع.. وكنت أحد هـؤلاء الملتزمين بالدفع فقد كنت أصرف أربع علب سجـاير فى الشهـر لمثل هـؤلاء حتى أضمن الغذاء النظيف والخدمـة الجيدة..

*** وهل يعتقد الأستاذ محمود السعدنى أن هذه الظواهر الغريبة مازالت موجودة فى سجون مصر الآن..**

ـ لا استطيع أن أؤكد لك ذلك.. لاننى لم أدخل السجن فى هذه الأيام.. وثانيا أنا لم أعد أعرف أحدا يقيم الان فى السجن.. فقد تركت السجن منذ ثمانية عشر عاما.. وأحب أن أؤكد لك أن هذه الصور كانت موجودة حتى خرجت.. لقد كان المسجون المصرى يعيش حقيقة فى محنة.. ولابد من تدارك هؤلاء.. لأنهم موتى على ظهر الارض يتحركون.. ولا تستفيد منهم البلاد.. وهذا يجعلنى أتساءل لماذا لا نقيم سجونا أخرى جديدة تلحق بها ورش ومصانع ومزارع يعمل بها هؤلاء المساجين حتى يتحولوا إلى بشر منتجين ونقضى على البطالة بينهم داخل هذه الجدران العالية.. ولماذا لا نعطى المسجون بعض عائد هذه المشروعات كى يرسلها إلى أهله فى خارج السجن حتى يضمن أن بيته لن يهدم بعد دخوله..

وخلاصة القول لابد من وجود نظرة جديدة للسجون المصرية.. بحيث تتحول إلى أماكن منتجة.. نقطة أخرى أقولها لك بهذه المناسبة.. انه لابد من فصل إدارة السجون والاشراف عليها بعيدا عن وزارة الداخلية.. بحيث تنتهى علاقة المسجون بالشرطة والداخلية بوضعه فى السجن.. وبالتالى ينتقل الإشراف على السجون إلى وزارة العدل.. لانه حين تعددت ألوان الرقابة داخل السجن.. تعددت ألوان الفساد.. ومن هنا لابد من احترام الإنسان المصرى حتى داخل السجن.. ممكن أن تعدمه.. أو تقتله ولكنك حين ارتضيت أن يكون سجينا فلابد من احترامه والبعد عن تعذيبه وإهانته.. لأن المسجون الذى تهان كرامته داخل السجن يخرج من أجل أن ينتقم من المجتمع..

*** معنى ذلك أن الولد الشقى.. يرى السجن ليس هو الوسيلة المناسبة الآن لعلاج ظاهرة الإجرام؟..**

ـ طبعا.. وأقول لك ليه.. أنا الآن وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية.. وبعد أن ذقت جميع أنواع الصفعات والشلاليت ومارست الأشغال الشاقة فى صحراء الواحات.. أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إن السجن ليس رادعا وليس وسيلة للعقاب. لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة، ولكن ها هو السجن قائم.. والجريمة موجودة يسيران معا جنبا إلى جنب.. ولا يلتقيان، كأنهما شريط سكة

حديد يكملان بعضهما ولايتعارضان.. واعتقد أن الإنسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اذا أراد أن يقضي على المجرمين والإجرام..

وشيء آخر أن نزلاء السجن في بلد كمصر هم لا يتغيرون، بدليل أن المجتمع ثابت لا يتحرك والأوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شيء بقطع الشطرنج.. ثم شيء آخر.. وأخيرا لقد كان القصد من بناء السجن كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات وعلى الأسوار «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح» ولكن يبدو أن الأعمال ليست بالنيات في مصلحة السجون، لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم وتعذيب وإفساد..

وتسألني شخصيا ماذا استفدت من السجن؟.. وأقول لا شيء.. فالسجن ليس تجربة مفيدة، لأن التجربة الحقيقية في الخارج، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة، والاختبارات متعددة، ولكن السجن يوما واحدا ممل ومكرر وكئيب..

*** أستاذنا محمود السعدني.. هل تأذن لي بسؤال.. عن كيفية معالجة الرأى المعارض أو الرأى الآخر؟.. بعيدا عن عقوبة السجن..**

ــ اذا كنا نؤمن بالديمقراطية ، فلابدّ أن نؤمن بالمعارضة.. ويكون لها نفس حقوقها.. وأنا اذكر لك مثلا بسيطا.. أنا توا قادم من بريطانيا ووقتها كانت هناك استعدادات لإجراء الانتخابات العامة.. ورأيت حزب العمال في كل قنوات التليفزيون يحاول فضح سياسة حزب المحافظين.. حزب الحكومة.. وقد حدث ذلك دون أدنى تدخل من أية جهة من الجهات التابعة لحزب المحافظين الحاكم.. لإيمانهم أن وسائل الإعلام هي ملك للشعب وليست ملكا لأى حزب من هذه الاحزاب.. وبالتالي فإن الشعب هو صاحب الاختيار، هذا ببساطة هو مفهوم المعارضة.. بعيدا عن شبح الاعتقال أو السجن لأصحاب الأفكار المعارضة للحكومة.. والسجن في هذه الحالة لايكون إلا للمعارض الذي يحمل السلاح.. أما المعارضة بالفكر والرأى والقلم والندوات والمؤتمرات فلا غبار عليها.. ومسموح بها لكل أفراد الشعب.. ولكنك حين تحمل السلاح فلابد وأن تواجه بالسلاح.. هذه هي أزهى عصور الديمقراطية التي أحلم أن تكون في مصر.. فيكون لكل مصري الحق في أن يقول كلمته.. وأن يكون له أيضا حق تكوين الأحزاب.. لأن الديمقراطية الحقيقة ليست حقا إلٰهيا لأحد فالحكم لمن يختاره

الشعب والجماهير.. وبنـاء على ذلك فيكون لكل مـواطن حق إنشاء جـريدة يقـول من خـلالها رأيـه ورأى من يمثلهم.. مـادام ذلك يتم فى حـدود القوانين واللـوائح ووفقـا للدستور والعرف الموجود..

وأحب أن أؤكد لك أننا رغم وجـودنا على بداية الطريق الديمقـراطى إلا أننا بالنسبة للدول العـربية الاخـرى متقدمين جدا فى هـذا الميدان.. وهذه شهـادة لوجـه الله.. إنها بالفعل واحة لديمقـراطية بالنسبة لبقية الدول العربيـة الأخرى.. إننا فى مصر نعتبرها باريس الشرق العربى.. حتى فى عهد عبد النـاصر وعهد السـادات.. ورغم قسوة ما يراه المسجون السياسى فى مصر .. إلا أن ما يقاسيه لا يضـاهى أبدا ما يتعرض له الإنسان العربى فى سجون العراق وغيرها من الـدول العربية.. وعلى وجه الخصوص فى العراق فى مختلف العهود والعصور..

ولسوف أضرب لـك مثالا واحـدا لما يحدث فى مصر الآن.. إننا جميعـا أصحاب رأى ومفكـرين.. نختلف مع الحكومـة وننتقـدها بقسـوة.. ومع ذلك لم يـدخل واحدا منـا السجن.. ولا تتصـور أن هـذه هى الـديمقـراطيـة التى نحلم بها.. إن هـذا النـوع من الديمقراطية هو أن يكون لكل فرد منا حرية تكوين الاحزاب وإصدار الصحف.. وكذلك حريـة الانتخابـات دون التدخل من أى جهـة من الجهات.. لأننا جميعـا نعمل من أجل شعب مصر.. والفيصل فى الاختيـار وصناديق الاقتراع.. وإننى أحلم بـوصولنـالهذه الدرجة من الديمقراطية قريبا.. ووقتها لـن نجد مسجونا سياسيا أو معارضا صاحب رأى داخل المعتقـلات، وسـوف يقتصر هـذا الأمر على الإرهـابيين الـذين يتحـاورون بالسـلاح.. وبالفعل تجد مثـل هؤلاء الإرهـابيين هم ضيوف السجـون والمعتقلات فى بريطانيا أم الديمقراطية الحديثـة.. وأنا أقول لك أيضا إن ماحدث فى الاتحاد السوفيتى من انهيار الشيوعية مرجعه غياب الديمقراطية..

* نعود إلى اللقطـات الإنسـانيـة فى رحلة السجن الكبرى التى صـاحبت حياة الـولد الشقى.. ونسأل..

*** هل تعرف محمود السعدنى على شخصيات داخل السجن مازال محتفظا بصداقتها حتى بعد الخروج؟.. وما هى الشخصيات الغريبة التى مازالت عالقة فى ذهنه داخل هذا العالم؟..**

ـ من هذه الناحية.. هناك أصدقاء كثيرون.. أذكر منهم مأمور ضرائب اسمه الأستاذ محمود.. وكانت هوايته الكبرى الأكل.. ومازالت علاقتي به قائمة حتى الآن نتزاور من حين لآخر.. فكان يحب الزبيب ولحوم البط، ودائما يوصيني بضرورة أن يبعثوا إلينا بما يحتاجه من هـذه الأصناف في كل زيارة، وكان محكوما عليه بثلاث سنوات.. وقد تركته داخل السجن وخرجت قبله.. وهو الآن محاسب كبير..

أما الشخصية الأخرى.. فهو شاب ظريف جدا تعرفت عليه داخل السجن حكم عليه في تهمـة قتل عمـد.. والقتلـة في السجن عـادة محترمون أو.. مـوهـوبـون.. لأنهم غير مجرمين مثل النشالين وغيرهم.. ويحضرني هنـا موقف غريب من جملة سمعتها بعد دخولي سجن القناطر بيومين.. فقد شاهـدت اثنين من المجرمين في خناقة حامية.. وكل واحد يقول للآخر: «عيب دا احنا مجرمين ومش لازم نتخانق أمام الافندية دول».. هذه العبارة ظلت لاصقـة في ذهني طويـلا.. واكتشفت أنها حقيقة فعـالم المجرمين مختلف تماما عن عالمنا نحن.. عالم المسجونين السياسيين وعالم القتلة الذين كثيرا ما يتميزون بالنظافة والنظام ولم لا؟..

فكل واحد منهم على الأقل محكوم عليـه بخمسة وعشرين عاما.. انها حيـاة كاملة.. ولا يعلم وقت الخروج أو متى سيكـون؟.. وأذكر أن الـولد اسمـه فتحي.. ويعمل الآن بإحدى المحلات بشارع الصحافة.. بجوار أخبار اليوم ونلتقي سويا من آن لآخر.. ففي العيد نلتقي.. ويفطر عندنا في رمضان مرة واحدة..

*** لو أن أحد هؤلاء طلب منك أن تساعده أو تقدم إليه خدمة هل تسارع في تلبية هذا الطلب؟**

ـ مفيش كـلام. أساعده فورا.. ليس هـذا فقط بل العساكر وضباط البـوليس الذين مازال بعضـهـم على علاقة بـي حتى الآن.. وأنا أذكـر أنه كان يحرسنـا في فترة السجن الأخيرة حوالي تسعين ضابطاً ثلاثـة وثمانين منهم يمكن أن تزنهم بميزان الذهب.. و٧ ضباط يعني تقدر تقـول مش قد كده ومن هؤلاء الضباط الأوفياء على مـا أذكر ضابط اسمه ابـراهيم العزازي.. رجل بمعنى الكلمـة.. وقد خرج على المعـاش الآن برتبـة لواء ويعمل في الكـويت.. وفي كل زيـاراتي للكـويت لابـد وأن يزورني.. وآخـر اسمـه نبيل البرقـوقي مدير كليـة الشرطة للضبـاط المتخصصين السـابق.. وثالث اسمـه حسن

حميده.. وهو الآن برتبة لواء.. وقد التقينا منذ فترة قصيرة.. وللأسف لم أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه وتبادلنا الضحكات والذكريات..

*** وما هى ذكريات محمود السعدنى مع الجلادين داخل المعتقل؟**

ـ ولا حاجة.. تقابلت مع بعضهم خارج السجن.. ولم نتبادل أى حديث.. وأنا أعرف واحدا منهم كان اسمه الأول حلمى وكان شخصية غير مرغوب فيها إطلاقاً من جانب كافة المسجونين السياسيين.. ورغم وصوله إلى أعلى المناصب.. إلا أننى أعتبره لا ينفع فى أى منصب من هذه المناصب الكبيرة.. وقد تقابلنا فى مرة من المرات أثناء إحدى سفرياتى فى داخل مطار القاهرة.. والتقينا لقاء فتور.. وبالطبع كان يعرف أننى محمود السعدنى.. وثالث ضابط بوليس لاداعى لذكر اسمه.. أيضا التقيت به.. وكان من هؤلاء الضباط الاشرار.. وكما ذكرت لك فان أغلبية الضباط الذين تعرفت عليهم أنذاك كانوا ضباطا أشرافاً ورجالة.. وظلت علاقتهم قوية ومستمرة حتى بعد انتهاء مدة العقوبة.. ولابد من ذكر المرحوم فريد شينيشن مأمور سجن الواحات الذى لم يسمح فى فترة وجوده من قتل أى مسجون أو دفنه حيا.. كما كان يحدث قبله.. رغم قسوته فكان منصفا وحازما فى الوقت الذى مات فيه الكثيرون من مساجين سجن أبو زعبل فى ذلك الوقت.. هذا الضابط ظلت علاقتى به دائمة ومستمرة حتى وفاته.. حيث كان مديراً لأمن الدقهلية ثم رئيسا لمجلس مدينة جمصة.. وعايز أقول لك إن أغلب هؤلاء الجلادين كانوا «صولات» ثم ترقوا.. وكان عليهم أن يثبتوا كفاءتهم فى ميدان التعذيب داخل السجن..

*** لو قلنا.. كم كتاباً ألفه الأستاذ محمود السعدنى داخل السجن؟**

ـ لم أكتب حرفا داخل السجن..

*** لماذا؟..**

ـ أولا.. أيام سجن عبد الناصر.. كان ممنوعا علينا القراءة والكتابة.. وفى سجن القناطر أيام السادات.. كان علينا أن نقرأ فقط باعتبارى أحد المحكوم عليهم فى قضية الخيانة العظمى التى حدثتك عنها من قبل.. وكان بالسجن مأمور أعرفه سابقا.. لذا لم أجد مشكلة فى التعامل داخل الجدران العالية من هذه المرة معه.. وقد أبدى استعداده لتلبية كل طلباتى من الشاى والقهوة والأطعمة، إلا الورق والقلم.. فقد قالها لى

بصراحة.. (ممنوع الورق والقلم.. وإلا هنـزعل من بعض).. واتفقنا على عدم مطالبتى بـالورق والقلم.. واستجـابتى الكـاملة لكل أوامـره داخل السجن طلبـا لراحـة العقل والدمـاغ.. لكن مع ذلك كتبت بعض الكتب داخل السجن.. بس فى دماغى.. مثـلا كتاب «الولد الشقى فى السجـن».. كونت فكرته فى رأسى أيام السجـن.. وكذلك كتاب «مصر من تانى».. وعندما خرجت أفرغت ما فى رأسى من أفكار داخل الكتب التى صدرت فيما بعد..

*** ولو سألنا .. كم كتاب.. أو كم فكـرة كتبها الولد الشقى بعد خـروجـه من السجن تأثرا بهذه التجربة .. ماذا تقول؟**

– هو كتاب واحد.. « الولد الشقى فى السجن».. وكتاب آخر أنشره مسلسلا بإحدى المجلات الاسبوعية اسمه « الطريق اللى مشى» عن فترة سجن الواحات.. وقد كتبته بعد هذه الفترة الطـويلة من منطلق نظرية خـاصة بى وهى أن مثل هذه الاحـداث لابد وأن يكتبها المفكر بعد فترة زمنية طويلة، لأنه بالفعل لن يبقى فى الذاكرة من هذه التجربة إلا ما يستحق أن يكتب فوق الورق.. والباقى سوف ينساه..

*** هل يعتقـد الكاتب الصحفى محمـود السعدنى أن فترة السجن بـالنسبة للمفكر يعتبرها فترة سوداء فى حياته أو فترة بيضاء؟..**

– إذا كانت متعلقة بمسألة سياسية فهى نقطـة بيضاء ووسام يعلقه فوق صدره.. مادام غير مجرم أو حرامـى.. ولا مختلس أو قواد.. انها تجربة رهيبة جدا.. فـلابد من أن تكرم المفكـر وتقيم له التماثيل وتعطيه الأوسمـة لا أن تضعه فى السجن.. وأحب أن أقول لك إن جميع كتاب ومفكرى مصر جـاءت عليهم فترة زمنية سجنوا جميعا إلا قلة قليلة جدا.. مثل فتحى غانم وموسى صبرى ولطفى الخولى ويمكن أنيس منصور أيضا ومصطفى أمين.. كل هؤلاء وغيرهم ذاقوا مرارة هذه التجربة..

ولعلك سوف تسألنى عن ارتباط أمر اعتقال هؤلاء المفكرين بتوقيع رئيس الدولة.. وأقول لك بأمانة.. انه زمان بالفعل كانت أوامر الاعتقال لابد وأن يوقعها رئيس الدولة، وربما يرجع السبب إلى سهولة هذه الطريقة لأن اعتقال أى انسان مسألة صعبة جدا.. بجانب انهم لا يعتقلـون إلا المفكر صاحب الـرأى المؤثر فى قطـاع عريض من الجماهير

والذى له علاقة بأمن الدولة.. وهذا لا يعنى أن الكاتب أو المفكر كان له قيمة.. أبدا.. كانوا يقبضون عليه ويضربونه ويعذبونه بقسوة.. وكل ما فى الأمر أن رئيس الدولة كان ولابد وأن يوقع على هذه الأوامر حتى يطمئن على عملية القبض على هؤلاء ويستريح من عناء أفكارهم ومشاكلهم لأنه كان يتصور أنهم أعداؤه.. ولابد من التخلص منهم ومحاربتهم بشتى الطرق.. واسمح لى أن أقول لك إننى رغم حبى لجمال عبد الناصر فقد اعتقلنى كما رويت لك من قبل، ولم أكن ضده فى يوم من الأيام ، ولو تسألنى لماذا حدث كل ذلك.. أقول لك لا أعرف السبب أو الهدف..

وعلى فكرة.. أود أن أشير إلى حقيقة هامة هى أنه حينما تغيب الحرية وتسود الدكتاتورية.. يكثر اعتقال المفكرين.. ويزج بهم داخل السجون والمعتقلات.. ولو كنت مكان رئيس الدولة أو رئيس الحكومة أو حتى مكان وزير الداخلية.. وعرض على كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم.. ومع الفرض أن ذلك لم ولن يحدث.. فإننى كنت سوف أوقع على هذا الكشف بالتنفيذ لأننى أؤمن أنهم وهم فى أماكنهم هذه يرون أشياء لا نراها نحن الذين نجلس خارج السلطة.. وتقديرهم للأشياء غير تقديرنا.. ولو كنت مكانهم.. يجوز كنت أفكر مثلما يفكرون وربما أتخذ نفس إجراءاتهم.. وهذا للأسف من صنع الأجهزة المعاونة.. والحاكم الذى يعطى أذنه للأجهزة لا يكون عادلا.. وأضرب لك مثلا بعبد الناصر الذى أسلم قياد نفسه إلى تلك الأجهزة اللعينة التى قضت عليه فى النهاية..لأن بعض الضباط من رجال الثورة تصوروا أنفسهم أنهم جاءوا للقضاء على الملكية وإحلال ملكية أخرى.. هى ملكية كل منهم.. بحيث تحولوا فى النهاية إلى أمراء وباشوات مصر.. كله ينهب.. وكله يسرق.. وطبعا كان على رأسهم المشير عامر.. ومكتبه وشلته.. وعاشوا ولا الملوك الأوائل.. وللأسف انساق عبد الناصر معهم بكل قوته وعقله.. لأنه كان يعتبرهم مماليكه الخاصة..

ولا نبخس قدر أحد.. لذلك أقول إنه رغم ذلك.. كان من هؤلاء الضباط رجال لهم شرف وكرامة.. وعلى سبيل المثال شعراوى جمعه والذى اعتبره من أشرف الرجال الذين عرفتهم طوال حياتى ومحمد فايق وسعد زايد.. وعلى فكرة لو أن جمال عبد الناصر جاء من خلال جماهير الشعب لتغير موقعه تاريخيا رأسا على عقب.. ولتربع على عرش أبطال مصر الذين يشرفون تاريخ مصر طولا وعرضا..

* أنا أعرف أنني قد أثقلت على الولد الشقى بالأسئلة ولكثرتها ولطولها.. لذا أرجوك العفو.. وأن تسمح لى بسؤال آخر يقول:

***ماذا لو كان محمود السعدني مأمورا لسجن القناطر أو الواحات أثناء فترة اعتقال كاتب مثل محمود السعدني..؟**

ـ لو كنت مأمور السجن فى فترة اعتقال محمود السعدني.. كنت أول حاجة سوف اقوم بها هى أن أضرب محمود السعدنى.. وتعرف لماذا؟ لأننى فى منصب المأمور.. وشغلته فى الأصل أن يضرب المسجونين لأن السجن فى الأصل مؤسسة عقابية.. يعنى مهمتى كمأمور سجن أن أضرب المعتقلين كعقاب لهم..

وعلى الفكرة العقاب ينتج عقابا وللأسف الذى ينتج هذا العقاب ليس المأمور أو المدير.. ولكن عساكر السجن.. الذين اعتبرهم أسوأ فئة خلقها ربنا.. وقد عرفت أحدهم وكان يدعى «على حرب» الله يرحمه بقى دلوقت.. كان مشهورا بعصاه الغليظة وقلبه الميت.. واكتشفت وأنا داخل السجن أن أغلب هؤلاء العساكر من أيام زمان.. تقدر تقول من أيام حيدر باشا.. بل اقدم من ذلك كمان..

ولهؤلاء العساكر عذرهم.. فقد كان الواحد منهم يتقاضى مثلا ١٢ جنيها فى الشهر.. فكيف كان يعيش.. وأنا أذكر لك بالمناسبة أنهم أيام عبد الناصر.. اتفقوا مع خبير يوغسلافى لدراسة أحوال السجون المصرية فبعد أن لف على كل السجون كتب تقريرا يقول فيه: أنا حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف يعيش المسجون المصرى داخل هذه السجون؟.. وأنا أقترح أن تتركوها كما هى الآن.. لأنه لا حل لها.. إن السجون فى مصر سيئة جدا ومسئولية خطيرة جدا.. ولابد من نظرة جذرية لحالة السجون حتى لا تفرز مجرمين آخرين.. وحتى تؤدى دورها فى علاج المجرم بدلا من أن تساعده على العودة إلى عالم الإجرام..

كما يكون دورها أن تحول المجرم إلى مواطن صالح يخدم المجتمع بدلا من أن تنتقم منه.. لأننى اعتبر أن هذه المشاكل هى أخطر ما يواجهنا على طريق التنمية.. فكل واحد منا معرض أن يدخل السجن لأى سبب وفى أى لحظة.. فإذا دخله بالوضع الذى كان عليه.. حتما سيدخل مرة أخرى وثالثة ورابعة.. ولا تتخيل أننى حين أكون مأمور

سجن سوف أصلح.. أبدا.. لأن المأمور أو المدير يعمل وفق لوائح وقوانين مفروضة عليه..

ولعل اسمه يدل على وظيفته.. إنه يا سيدى مأمور.. ووفقا لذلك لابد من تغيير هذه اللوائح والقوانين.. ولا تتخيل أنه توجد بهذه اللوائح ما يسمى بعلاوة الإجرام.. تصور يكافئون المسئول داخل السجن بعلاوة وزيادة فى المرتب كلما زاد اجرامه.. وأنا أعتقد أن مثل هذه الصور الآن بدأت تتغير كثيرا.. كما أعتقد أن هناك رغبة أكيدة لدى المسئولين لتطوير سجون مصر وتحويلها إلى أماكن منتجة تساعد المسجون فى حياته داخل السجن وخارجه.

*** وهل يوجد فى مصر الآن مسجون سياسى؟..**

ــ أبدا.. فعلا مصر الآن خالية والحمد لله من المساجين السياسيين.. ولا أعتبر الموجودين الآن داخل السجن من أفراد جماعات التطرف من هذا الصنف.. لأننى سبق وقلت إن المفكر السجين السياسى هو الذى لا يستخدم السلاح.. وإذا لجأ إلى السلاح فإنه يتحول إلى إرهابى.. وبالتالى لابد من مقاومته بالسلاح أيضا..

وهذا القول لا ينطبق على أناس بعينهم أقول لك أى واحد يحمل السلاح فقد خرج من تصنيف المسجون السياسى وصاحب الرأى، وتحول إلى مقاتل وإرهابى.. ولعلمك لا توجد جماعة عبر التاريخ حملت السلاح ووصلت إلى السلطة.. لأن السلاح يولد السلاح.. والنتيجة هى الحرب.. ويا قاتل يا مقتول.. التاريخ يقول ذلك.. إننى أبعثها رسالة من خلال هذا اللقاء أقول فيها لابد أن نتحاور باللسان والقلم..

الحكاية الثالثة يرويها د. عبد الصبور شاهين:

لم يستطع السجن أن ينزع مابداخلى من أفـــكار

كنت ومازلت مثل المئات غيرى.. بل إن شئت قل مثل الآلاف من البشر الذين يتابعون بين الحين والآخر أستاذنا العالم الجليل الدكتـور عبد الصبور شاهين ويلاحقون علمه الغزير الـذى يفيض علينا وينقله إلينا من عدة منـافذ، ما بين منابر المساجد وموجات الإذاعة وشـاشات التليفزيـون.. وكانت علاقتى به قبل إجراء هـذا الحوار مثل هؤلاء الذين يتشوقون إلى متابعة أعماله وسماع صوتـه الرزين الذى يدل على أصالته وعلمه وشدة إيمانه..

وفجأة احتل هذا العالم الجليل كل كيانـى.. وبات شغلى الشاغل ليس من حيث علمه وأعماله ومؤلفاته المتنوعة.. بل من حيث هو إنسان عاش وقاسى وجرّب.. وأيضا دخل السجن.. فما أقسى هـذه الكلمة على النفس.. ولكنها الحقيقـة المرة التى لفحت وجهى.. وأنا أعد هذه السلسلة الطويلة من الحوارات.. وتساءلت فى داخلى.. عن البـداية لأننى وكما سبق أن قلت.. إن أسخف عبارة اكتشفتها منـذ تفكيرى فى إجراء هذه الحوارات.. أن أقـول لضيفى.. العالم الجليل أو الصحفى الكـاتب المفكر أو أستـاذ الجامعة حـامل مشاعل العلم والنور كم مرة دخلت فيها السجن؟

ومنذ نجاحى فى الحصول على تليفون منـزله.. وأنا أراجع نفسى وأحاول أن أختار الكلمة تلو الأخرى... وتوكلت على الله فى القيام بـالمحاولة الأولى.. وجاء صوت الدكتور عبد الصبور شـاهين رجل الدين المثقف عبر الأسلاك الصماء.. هادئا فيه رقة الأب نحو ابنه.. وأقـولها بصدق لقد شـجعنى على المضى قـدما فيما أقدمت عليـه.. وعرضت على مفكـرنا الجليل فكـرة الحوار.. ومضمون مـوضـوعه والهدف منـه.. صحيح أننى لم

أحصل على موافقة سريعة.. ولكنني أخذت وعدا بالاستجابة لفكرتي حين معاودة الاتصال.. وقد كان.

ومما ساعد على سرعة إجراء هذا الحوار.. أنني في حديثي عبر التليفون ذكرت للدكتور عبد الصبور.. أن أحد أصدقائه الأعزاء هو الذي حكى لي جزءا من حكايته في السجن.. عندئذ خرج صوته الهادىء يضحك.. مصمما على أن يراني كي يحكي لي هو التجربة.. واتفقنا على موعد اللقاء.. وكان اللقاء في منزله القابع في بداية شارع الهرم ناحية محافظة الجيزة.. وداخل شقته حيث الأثاث الأنيق والاستقبال الحافل وأكواب الليمون التي قوبلت بها عند باب الصالون.. والجلباب الأزرق الذي يفضل أن يجلس به عندما يفرغ من عمله وعلمه..

وبعد لحظات الاستقبال المعتادة.. انتقلنا إلى الصالون الكبير الذي تحيط به تحفا إسلامية نادرة.. كان ابرزها سجادة باكستانية كثيرا ما حدثنا عنها أستاذنا العالم الجليل.. وعندما فكرنا بنية تصويره كي تكون الصورة مصاحبة لحديثه معنا.. انتقل على الفور إلى حجرة نومه.. حيث استعد ببدلة جميلة.. وهنا اكتملت كل مظاهر الود والحب.. وبات الاستعداد وشيكا من أجل تشغيل شريط التسجيل كي يسجل لي ولكم وقائع كلمات هذا الحوار.. وتجربة أحد علماء مصر ومفكريها مع السجن والاعتقال..

في هذه المرة بالذات.. وعند تسجيل هذا الحوار.. وجدت نفسي أتحدث بكلمات اعتذار كثيرة لإحساسي أنني قد أثرت في نفس محدثي شجون الماضي التي ربما عفى عليها الزمن.. وخشيت أن أصيب بداخل مفكرنا الألم وإعادة نزيف جرح قديم.. وعلى ذلك تصورت أن مثل كلمات الاعتذار هذه ربما تخفف من وقع ما سوف يأتي من أسئلة.. وللمرة الثانية أحسست بصلابة الدكتور عبد الصبور شاهين وترحيبه الزائد عن الحد من أجل أن أبدأالحديث.. وحتى لا يشعرني بمزيد من الحرج بادرني قبل أن أسوق اليه أسئلة الحوار..

في الحقيقة هناك أمران.. الأمر الأول: أن ما كان هو من اختيار الله سبحانه وتعالى.. وما اختاره الله هو الخير.. حيث قال أحد المريدين لشيخه أسأل الله لك العافية.. قال له إن العافية ما اختار الله سبحانه وتعالى ورسولنا الكريم حينما سأل ربه العافية من عليه بأكلة خيبر.. وهي الشاة المسمومة التي قيل إنها

أحد أسباب وفاته صلى الله عليه وسلم..

أما الأمر الثاني أن كثيرين ممن أعرفهم قد ذاقوا ويلات السجن أكثر مني.. ولا يحبون أن يتحدثوا عنه.. وأنا شخصيا أعذرهم والومهم لأن دخولنا السجن لم يكن لعيب فينا ولم يكن لقضية شخصية.. حتى نقول إننا لن نتحدث خوفا من الرياء وضياع الاجر.. لقد كان دخولنا السجن لقضية البلد .. لقد كانت قضية فكر هدفها رفض الدكتاتورية.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يعرف شباب مصر أن بها رجالاً وعلماء قد رفضوا العيش في ظل الدكتاتورية وهي في عنفوانها.. وأن هؤلاء الرجال مازالوا رجالا.. لم يستطع الطاغية أن يؤثر على قدراتهم وعطائهم الفكرى ماداموا قادرين على العطاء وإبداء الرأى والفكر..

ليسمح لي أستاذنا الداعية الإسلامي والمفكر الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين أن أقول إن الألم ما زال يعتصرني حين أسأل بصراحة كم مرة دخل فيها أستاذنا السجن؟

– ثلاث مرات.. أول مرة في عام ١٩٥٤ وبالضبط من أكتوبر حتى منتصف ديسمبر عام ١٩٥٤.. أيامها كنت في الليسانس وكان عمرى وقتها ٢٦ عاما.. وقد سبق اعتقالي في تلك الفترة هروب طويل في الشوارع.. خوفا من أهوال السجن.. كنت أعيش في القاهرة، وبالضبط في الإمام الشافعي وأهرب في عابدين.. والسبب يرجع إلى انتمائي الى الإخوان المسلمين.. وفور حل الجماعة في عام ١٩٥٤ بدأت مطاردة العناصر النشيطة بالجماعة وكنت وقتها من هذه العناصر.. حيث تم إغلاق مسجد الشاطبى الذى كنت أخطب فيه.. وبذلك أصبح لا موضع لي إلا السجن، فهربت..

ومن كثرة حالات هروبي وتنقلي هنا وهناك أشفقت على من كنت أهرب عندهم، لإحساسي بما لديهم من حرج حين أبيت عندهم، فعدت إلى بيتي في الإمام الشافعي وهناك وجدت المخبر ينتظرني فاستسلمت له.. وذهبت معه إلى السجن.. واعتقلوني لمدة أربعة أيام أو خمسة على ما أذكر .. .. وحين خرجت من السجن دخلت امتحان الفصل الدراسي الأول، في أول تجربة لتقسيم سنوات الدراسة إلى عدة فصول.. وكان الهدف من ذلك أن يبتعد الطلبة عن السياسة .. وهذا ما كانت تهدف إليه حكومة عبد الناصر.

أما الاعتقال الثاني فكان في ٢٥ مارس عام ١٩٥٥.. وكنت الأول على دفعتي في الفصل الدراسي الأول .. وبقيت بالسجن إلى آخر فبراير عام ١٩٥٦.. ثم دخلت الفصل الدراسي الثاني.. فتخرجت من دار العلوم في نفس العام متأخرا عاما عن زملاء الدفعة بسبب هذا الاعتقال.. ومكثت خلالها أحد عشر شهرا ما بين سجون القلعة وسجن قنا.. حين أخرجوا تجار الحشيش ووضعونا بدلا منهم.. أى والله.. لقد كنا نشم رائحة الحشيش داخل الزنزانة.. من تأثير وجود هؤلاء التجار قبلنا.. وفي المرة الثالثة سجنت عام ١٩٦٥.. وكنت وقتها قد حصلت على الدكتوراه.. ومكثت بالسجن آنذاك أربعة أشهر.. وكانوا يطلقون على حينئذ معتقل بدرجة دكتوراه..

***ما هو تأثير تجربة السجن خلال هذه المرات الثلاث على أستاذنا المفكر الدكتور عبد الصبور شاهين.. أولا كمفكر وثانيا كإنسان.. وثالثا كمصري؟**

— أولا يجب أن نفرق بين حالتين.. حالة أن يكون الإنسان داخل السجن وحالة أن يرى الإنسان نفسه داخل السجن وهو خارج السجن فالرؤية هنا تختلف.. فأنت داخل السجن تعيش بإحساس غريب يجعلك لا تريد أن تخرج منه.. والسبب يرجع إلى أننا كنا نشعر ونحن داخل السجن أننا في أمان.. وقد لا ينطبق هذا الإحساس على المرة الأولى حيث كنت محتجزا بقسم الخليفة.. ولكن في المرة الثانية وهي مدة الأحد عشر شهرا تلك التي قضيتها داخل الاعتقال بدون سبب أو اسم أو عنوان أو أى هوية.

وأنا أتذكر حين وقع الاعتقال.. أنهم قد دخلوا إلى بيتي ليلا وأنا أذاكر تحت لمبة جاز وطلبوا مني الذهاب معهم لمدة خمس دقائق .. وبعدها استمرت الحبسة لمدة أحد عشر شهرا.. وفي المرة الثالثة على ما أذكر اعتقلت وأنا كنت مشرفا على أحد معسكرات الطلبة بحلوان.. وقتها كنت أستاذا بكلية دار العلوم وكنت ممثلا لها في الإشراف على هذا المعسكر الذى أقيم تحت رعاية الاتحاد الاشتراكي.. واعتقلت في ظروف اعتقال الداعية الإسلامي المرحوم سيد قطب.. لحظتها كنت أبيت تحت الخيمة.. وفي الصباح جاءوا حيث أنام.. وألقوا القبض على .. وأنا سوف أقول لك شيئا مضحكا بهذه المناسبة.. إن هذا المعسكر قد أقيم كما ذكرت تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي، واشترك فيه الطلبة وأساتذة الجامعة من الذين تصوروا أنهم يؤيدون الثورة المباركة ومبادئها

الاشتراكية.. وحقيقة لا أعرف كيف اختاروني وعلى أي أساس .. ربما جاءوا بي إلى هذا المعسكر كي يكون من السهل عليهم اعتقالي وبعد أربعة أشهر أفرجوا عني..

أعود وأقول لك.. إنني في تلك الفترة كنت أرحب بالسجن أكثر من وجودي خارجه.. لإحساسي بالأمان وأنا بداخله .. وقتها التقيت داخل السجن خاصة الاعتقال الأخير.. بالاستاذين كمال رفعت والدكتور عبد العزيز كامل.. وقد جيء بهما من أجل القيام بعملية غسيل مخ لكل المعتقلين.. وطبعا وأنا منهم رغم أنني وكما سبق أن قلت لك كنت حاصلا على الدكتوراة.. وعندما أحسوا بذلك .. قدموا لنا الاعتذار.. وبعد نهاية اللقاء طلبت منهم أن يتوسطوا لدى المسئولين حتى لا يفرجوا عني.. رغم أنني كنت في غاية الشوق للخروج.. فأثار طلبي هذا تعجبهم واستياءهم عندئذ أكدت لهم.. أنني حين أخرج سوف أعيش في سجن آخر.. إذن أفضل العيش هنا في هذا السجن الصغير بدلا من السجن الكبير.. هذا السجن الذي تعودت عليه.. لأنني حين أخرج سوف يراقبونني ويضايقونني في حياتي وفي معيشتي.. بجانب أنني سوف أشعر بعزلتي السياسية.. لأنني كنت محروما من الإدلاء بصوتي..

خلاصة القول.. كنت سوف أفقد حريتي.. إذن أنا هنا أعيش في أمان أكثر.. بعيدا عن الشعور بالمطاردة.. وكنت قد جربت تأثير ما بعد الاعتقال على حياتي في الفترة التي أعقبت المرة الثانية التي اعتقلت فيها عام ١٩٥٦ وهي آثار خطيرة جدا..

مثلا.. كنت في الفرقة الرابعة من الليسانس.. وحين تخرجت التحقت بكلية التربية.. وكنت وقتها في حاجة إلى أن أعمل كي أعيش وعلى ذلك حاولت كثيرا أن أجد عملا.. فكنت أتقدم للمسابقات التي يعلن عنها في الوظائف الحكومية.. ورغم أنني كنت أتفوق على زملائي المتقدمين الآخرين في نفس الوظيفة.. إلا أنهم كانوا يرفضون تعييني.. وفي مرة من هذه المرات تقدمت لمسابقة مترجم بالإذاعة عام ١٩٥٧.. وحصلت وقتها على المركز الأول.. ومع ذلك رفضوا تعييني..

إنني وقتها كنت متفوقا في اللغة الفرنسية التي أتقنتها في فترة اعتقالي.. واستطعت وأنا داخل السجن أن أترجم بعض الكتب الاسلامية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وعلى وجه الخصوص للمفكرين الجزائريين.. ومرة أخرى دخلت امتحان الملحقين السياسيين بالجامعة العربية رغم أنني كنت من خريجي دار العلوم لأنني

دارس للحقوق السياسية ومتفوق كذلك في اللغة الفرنسية.. وأيضا لم أوفق في الالتحاق بهذا العمل.. وقد تتعجب حين أقول لك إنه في المرة الأولى التي دخلت فيها امتحان الإذاعة.. خرجت علينا مجلة الإذاعة والتليفزيون بأسماء الناجحين في الامتحانات.. وكنت أنا الأول ثم أمين بسيوني وآخرون..

وقبل أن يقرروا تعييني.. طلبوني بالمباحث العامة.. من أجل أن أعلن توبتي وتنصلي من أفكار الإخوان المسلمين.. حتى يوافقوا على هذا التعيين.. فرفضت.. ورفضوا هم كذلك.. بل أبلغونني بأن هناك أكثر من ذلك.. فما دمت متمسكا بأفكاري هذه فلن أعثر على أي عمل في أي مكان في مصر.. خوفا من تأثيري المدمر على الثورة على حد تعبيرهم لقد أصدروا حكما بإعدامي فيما يتعلق بلقمة العيش..

من هذه اللحظة كان على أن أعتمد على نفسي لأنني وقتها كنت متزوجا وأعول.. وماداموا قد أعلنوا عن هذه النية فلا رجعة عنها من جانب حكومة الثورة.. وأحب أن أؤكد لك أنني في هذه الفترة رغم اشتغالي بالفكر السياسي إلا أنني كنت مهتما بالعلم ومتفوقا فيه.. خاصة في اللغات الأجنبية وهي التي نفعتني في هذه الشدة من منطلق إحساسي أن رجل السياسة لابد وأن يتفوق في مجالات حياته المختلفة.. ولإيماني بأن الزعيم يجب أن يكون أكثر الناس ثقافة وفكرا بخلاف ما اعتدنا عليه طوال التاريخ من أن يكون الزعيم متخلفا من منطلق أن الزعامة لا تفرضها غوغائية الشوارع.. بل تفرضها إمكانياتهم وكفاءتهم ودورهم في خدمة الآخرين..

ولا تتصور تأثير هذه المواجهة على حياتي.. حين أبلغونني بهذا القرار.. من ناحية كان المفروض على وقتها أن أخرج من مصر مثلما خرج غيري من العلماء والمثقفين أمثال الدكتور يوسف القرضاوي وآخرين.. أخرج هروبا وبحثا عن لقمة العيش.. ولكنني أصررت على البقاء رغم هذا التحدي ولن أترك مصر.. وعلى ذلك فكرت في الالتحاق بأي عمل لا تتحكم فيه سلطة الحكومة.. فبعد تجربتي مع الاذاعة والملحقين السياسيين .. عينت مدرسا فرفضوا.. وعينت معيدا أيضا رفضوا.. بل طردوني.. و أكثر من ذلك تم ترشيحي للسفر خلال أربع بعثات دراسية في خارج مصر.. وأيضا رفضوا هذا الترشيح ولم يوافقوا عليه..

ولا تتخيل حين أقول لك مدة هذه الحرب التي أعلنتها على حكومة ثورة ٢٣ يوليو..

لقد بدأت منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٥ تسع سنوات كاملة والحرب دائرة ضدى وتقودها سلطات حكومة الثورة.. لقد طردت بالفعل من أربع وظائف.. حتى قيد الله لى الرجل الطيب المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى الذى رغم عدم معرفتى به وعدم لجوئى إليه من أجل الوظيفة، فتوسط لى لدى المسئولين حتى وافقوا على تعيينى بالجامعة مرة أخرى.. وكما قلت من قبل إننى كنت قد قررت الاعتماد على نفسى والتكسب من الترجمة حيث معرفتى الطبية باللغة الفرنسية.. وأنا أذكر أن أول كتاب ترجمته كان بعنوان« شروط النهضة» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى.. ذلك الكتاب العظيم الذى ألفه هذا الداعية باللغة الفرنسية.. ثم ترجمت له الكتاب الثانى وخرج بمقدمة كتبها المرحوم الرئيس أنور السادات والكلام ده كان عام ١٩٥٧ فى ديسمبر ١٩٥٧..

أما الكتاب الثالث الذى ترجمته فى ذات السلسلة فقد صدر عام ١٩٥٨.. وكنت وقتها قد عدت من جديد الى التدريس بعد أن طردونى منه وبعد أن توسط المرحوم الشيخ الباقورى لدى زكريا محيى الدين.. ومن جديد بدأت أكافح من أجل العودة الى الجامعة .. وبالفعل عينت معيدا فى سبتمبر عام ١٩٥٨.. وكان عندى أربعة كتب مترجمة من الفرنسية..

وفى هذه المرحلة كنت قد ملكت ناصية الترجمة كفن.. ونذرت نفسى آنذاك لأستخدمها فى نقل الكتب الإسلامية فى الوقت الذى كان فيه من المحرمات أن يكون لديك كتابا عن الإسلام.. وقد وفقنى الله حيث كان الداعية الإسلامى الجزائرى من بين الرجال الذين كانت ترضى عنهم حكومة الثورة فى ذلك الوقت، وبالتالى كانت كتبه هى الكتب الإسلامية الوحيدة التى كان من المسموح اقتناؤها وقراءتها.. وكنت أرى أن ترجمتى لهذه الكتب الإسلامية يمكن أن تعوض الشباب المصرى عن ضياع الكتب الإسلامية ومحاربتها من جانب حكومة الثورة..

لقد كان الداعية الإسلامى مالك بن بنى صديق الضابط كمال الدين حسين.. وحين أصل بك الى الحديث عن تأثير تجربة عام ١٩٦٥ كآخر مرة دخلت فيها المعتقل.. أقول لقد كانت فترة اعتقالات عن طريق الكشوف بمعنى أن الزعيم عبد الناصر كان يزور روسيا فى تلك الفترة فوقف على باب الكرملين رحمة الله عليه أو لعنة الله عليه.. وأعلن

للصحفيين أنه تم اعتقال ٦٥ ألف مصرى الليلة الماضية.. وأنه استطاع أن يجمعهم فى ليلة واحدة وأنه قد قرر أن يضعهم فى السجن الى الأبد.. ولن يخرجوا من المعتقل إلا بوفاته.. ويبدو أنه لم يكن يدرى أن الله كان بسمعه.. فلم يطل به المقام وعجل بنهايته كما عرفناها جميعا..

لقد تأثر الرئيس عبد الناصر كثيرا بموجات الإلحاد والشيوعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت للدرجة التى أعمته عن رؤية مشاكل شعبه وأهله.. بل إنه قد ابتعد فى تلك الفترة عن مناهج الله وتعاليم الدين الإسلامى.. واتضح ذلك كثيرا فيما اتخذه من قرارات كانت ضد هذا الشعب المسكين.. والسبب أيضا يرجع إلى هؤلاء الذين أحاطوا به وأوهموه بأن الشيوعية هى الحق.. هؤلاء لا يزال بعضهم يعيش بيننا حتى هذه اللحظة.. والحمد لله فقد أمد الله فى أعمارنا حتى رأينا سقوط الطاغوت الأصغر.. والطاغوت الأكبر حيث انهارت دولة الشيوعية ورحلت إلى غير رجعة..

*** كم كتابا ألفتموه داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟**

– أنا لم أعمل فى مجال السياسة كمحترف ولا كتبت كل ما عندى ولكننى قد تفرغت للعلم.. وجعلت ما عندى من أمور السياسة يخدم طبيعتى العلمية.. وأعتقد أنه قد آن الأوان بالنسبة لى أن أجلس كى أكتب هذه التجربة.. وسيكون مجيئك إلينا هنا هو البداية.. ولم تكن فترة السجن كلها اطلاع وتحصيل فقط.. بل كنت وقتها أترجم كتبا إسلامية.. وارسلها إلى الخارج كى أنشرها.. أيضا كانت فرصة السجن طيبة كى أتقن اللغة هذه من منطلق إحساسى بأهمية اللغات بالنسبة للداعية الإسلامى.. وندرة وجود المفكر الإسلامى الذى يعرف لغة الآخرين.. وهذه كانت فى رأيى كارثة.. فكيف يكون الداعية الإسلامى جاهلا بلغات القوم الآخرين.. والدعاة فى مصر بالذات كانوا لا يتمتعون بهذه الصفة الهامة.. واللغة الفرنسية كانت فى رأيى هامة جدا لارتباطها بالعديد من الكتب الإسلامية التى كتبت بها سواء فى شمال أفريقيا أو فى أوربا.. وكانت الدافع بالنسبة لى من أجل إتقان هذه اللغة هو نقص العارفين بها آنذاك وإحساسى بأنها تخدم الدعوة الإسلامية.. وحين نعود من جديد للرد على سؤالك بخصوص تسجيل تجربتى فى السجن.. أقول لك إننى من كثرة مشاغلى فى مجال الدعوة

الإسلاميـة لم أفكر فى هذا الأمـر.. ولكنني وكما سبق أن قلت آنفا أنـه مشروع قادم إن شاء الله..

حتى المقالات لم أضمنها هذه التجربة من قريب أو بعيد.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هـذه أول مرة أتحدث فيهـا عن تجربتى فى السجن والاعتقال، وصـدقنى لم أتحدث عن هذه التجارب لأحـد غيرك من قبل، ولا أحب أن أصرح بها بعد ذلك.. ولكننى على ما أتذكر فى مرة من المرات قد ألفت فصلا فى أحد كتبى عن لغات أهل الإجرام الذين التقيت بهم داخل السجن ولكنه كتاب بشكل علمي.. سجلت من خلاله بعض الألفاظ التى كنت أسمعها من هؤلاء القوم الذين عاشرتهم طويلا خلف الجدران العالية..

***ولو قلنـا بالنسبة لرأى المفكـر الاستاذ الدكتور عبد الصبور لماذا يسجن المفكر؟..**

– لأن أخطر شيء على الطـاغية الدكتـاتور الذى لا يملك شيئـا سوى قوتـه بنفسه وبمن حوله.. وثانيا أنه يمتلىء خوفـا ورعبا ممن يملكون العقول.. عندئذ يصبح شغله الشاغل القضـاء على عقل الأمة ومفكـريها ولعلنا نميز هـذه الحقيقة فيما يخص عصر الرئيس السادات.. الـذى كان رحمة الله عليه عنـدما مات عبد الناصر قـد تولى السلطة بفكر آخـر.. حيث كان الوجـه الآخر من العملـة.. ففى مصر بعد الثورة ظهـرت العملة بـوجهيها الأول وجـه الدكتـاتور أيـام حكم عبد النـاصر.. والوجـه الثانى حين تـولى مسئولية الحكم الرئيس السادات وسعى بكل ما يملك من أجل مقـاومة فكر الدكتاتور والقضاء على زبانيته..

فجاء هـذا الوجه مقـاوما لهذا الفكر المتخلف.. وأنـا أقول لك بمنـاسبة الحديث عن الرئيس عبد الناصر أن كل الذين يدافعون عنه، انما يدافعون عن أنفسهم لأنهم مدانون مثله فيما اقترفته أيـديهم حين ساد وجه الدكتاتـورية البغيض.. ولأنهم فى الحقيقة هم الذين صنعوا بداخله الدكتاتور بـاستخدامهم أساليب النفاق والنفعية.. ولو كان هناك فكر حر لما خلقوا بداخل هذا الرجل الدكتاتور الملعون.. بل ربما قد تحول إلى رجل مفكر وعادل وإنســان يعمل لصالح شعبه ولصـالح أمتـه.. لكن المشكلة أنه قد وجـد فى الفكر صعوبة.. وأفهموه أن الدكتاتورية أسهل.. وانظر إلى الفرق بين الراعى الذى يتعامل مع قطيعه باللين والحسنى حتى يستطيع أن يتحكم فيما يرعاه..

أما الدكتاتور الجزار.. فليس أمامه سوى العقاب حتى يرهب قطعانه.. ويتغلب عليهم.. وأعتقد أن الفرق كبير وواضح.. وطبعا في هذا الجو الإرهابي نجد الفكر يتراجع أو على الأقل يختفي لحظات.. ثم سرعان ما يعود.. والدكتاتور يفهم ذلك جيدا.. ولهذا يبادر من تلقاء نفسه من أجل القضاء على هؤلاء المفكرين حتى لا يعودوا من جديد.. ويكون رحيلهم بغير رجعة توجع قلبه وتسبب له المتاعب.. فالدكتاتور يحاول أن ينعم بحياته في غياب هؤلاء المفكرين..

لذا عادة ما يكون مصيرهم القتل والاعتقال والنفي وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.. ولكن لله حكمة عظيمة جدا.. فالله سبحانه وتعالى حين يجعل للإنسان محنة يجعل له في طيها منحة.. وأعطيك مثالا واحدا أيام عبد الناصر.. حين قبضوا على المفكر والداعية الاسلامي سيد قطب.. كانت فرصة كي يستكمل دراسته الهامة التي صدرت فيما بعد تحت عنوان « في ظلال القرآن» وبقي نشر الكتاب.. فكان لابد وأن يسخر الله الطاغية كي يكون سبباً في نشره.. فأخذوا الداعية سيد قطب وأعدموه.. فيتحرك تفسير سيد قطب من مصر إلى العالم كله..

وبالفعل قد تمت ترجمته الى كل اللغات الأجنبية في أوربا وفي العالم الإسلامي كله، ولينتشر سيد قطب في آفاق العالم كله أكثر مما كان عليه وهو حي.. ودعني أقول لك.. هل هذه من حسنات عبد الناصر؟..

إن عبد الناصر فعلا له دور كبير في نشر فكر سيد قطب وفكر غيره من علماء الدين الاسلامي دون أن يدري أو يتدخل..

#ما هي أهم اللقطات الإنسانية التي عايشها مفكرنا الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين داخل السجن خلال هذه المرات الثلاث.. وما هي أهم الشخصيات التي تعرفتم عليها هناك؟..

– أولا اللقطات الإنسانية كثيرة جدا أهمها أن السجن هو في الحقيقة مطبخ يوحد بين المسجونين على اختلافهم.. وأذكر أني كنت وأنا في سجن مصر أتعاطف مع الشيوعيين مع العلم الأكيد بأنهم أعداء الدين وأعداء الإنسانية..

وكان من أهم أصدقائي في السجن مثلا الكاتب الكبير المرحوم الدكتور يوسف إدريس الذي سجنت معه في عام ١٩٥٥ .. حيث كان يعيش في دور(٩) بسجن مصر

بالزنزانة رقم(٤) وأنا كنت فى دور عشرة وفى الزنزانة رقم ١٩٠٠ وكانت تقابل زنزانة يوسف إدريس.. وكنــا دائما نتبادل التحيات ونتجالس سويا حتى داخل الزنــزانة.. وكان معــه على ما أذكر طبيب يدعى حمزة البسيوني.. ليس الجلاد اللــواء البسيوني قائد السجن الحربي.. بل طبيب يحمل نفس اسمه.. وقد استمرت علاقتنا متصلة حتى بعد الخروج من السجن.. وعلى ما أذكر أنني دعوته فى مرة من المرات فى عام ١٩٧٠كي يتحدث فى برنامج كنت أعده بالتليفزيون اسمه« ندوة العلماء» ..ولكن ظروفه الصحية لم تساعده على تلبية هذا الطلب.

لقد كان يوسف إدريس رجلا عاقلا.. ولم يكن شيوعيا.. بل هو فنان.. يبحث فى كل شيء مختلف فى الحياة.. ولذلك كنت على ثقة من إمكانية تقديم الدكتور يوسف إدريس كعالم إســلامي يتحدث للنــاس فى ندوة العلماء.. كما أتــذكر ونحن نحضر ســويا لهذه اللقاءات أن الدكتور يوسف إدريس قــد اختار بعض الشخصيات المعروف عنها الميول الشيوعية.. وأكد أنهم فى أعماقهم علماء مسلمين وليس كما هو معروف عنهم.. وبالفعل تحول بعضهم الآن إلى دعاة للإسلام فى كل مكان..

وأذكــر أن أحدهم يــدعى الدكتــور عودة وهــو شقيق الأستاذ عبد القادر الشهيــد الإسلامي العظيم.. وكذلك ذكر لى الأستاذ أنور عبد الملك من أجل استضافته فى برنامج ندوة العلماء.. وعــرفت من الدكتــور يوسف إدريس أنــه يتحدث عن الــدين الإسلامي بسماحــة العالم الجليل.. وعــرفت من الــدكتــور يوسف كــذلك أن معظم الشيــوعيين المصريين لم يكــونــوا كذلــك إلا من أجل الانتصار فى بعــض القضايــا.. وحين يبلغــون مآربهم يتراجعــون عن طــريق الشيــوعية فــورا.. وداخل السجن أيضــا تعــرفت على شخصية اقتصاديــة مصرية تتمتع بسمعة عــالية فى تخصصهــا.. إنه الاستــاذ الدكتور محمود أبو السعــود.. ثم الدكتور توفيــق الشاوى الذى كان يعمل أستاذا للفقه الجنائي بالجامعة ولا يزال حيــا متعه الله بالصحة وطول العمر.. وكــانت طريقة التعارف فيما بيننا أنهما كانا يعرفان اللغة الفرنسية التي كنت أحبها فى ذلك الوقت.. وكان وضعهما فى السجن فى أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ متميــزا.. لذلك وجدت لديهما مجمــوعة كبيرة من الكتب الفرنسيــة والتي عن طريقهــا قويت هــذه اللغة.. واستطعت أيضــا من خلالهما الاطلاع على الفكــر العلمي الــذى كان يكتب أيضــا باللغة الفــرنسية فى مختلــف ألوان المعرفة وعلى وجه الخصوص علم النفس التحليلي لفرويد..

وهـذه المرحلة وكما سبق وأن ذكـرت لك قـد نفعتني كثيرا حتى بعد خـروجي من السجن.. فقد تمكنت بهذه اللغة من العيش عن طريق ترجمة الكتب حين أعلنت الحكومة الحرب على العبد لله وطردته من كل الوظائف الحكومية.. وهؤلاء العلماء الذين ذكرت لك بعض أسمائهم قد دفعونني إلى المزيد مـن الاطلاع والقراءة.. ورغم أن الكتب كانت في هـذه الفترة وفي هذه الظـروف ممنـوعـة، إلا أنني كنت أحصل عليها مـن العساكر بالرشوة.. وكنت على يقين أن عددا كبيرا من الضباط الذين كانوا يشرفون علينا داخل السجن كانوا يتعاطفون معنا كثيرا.. حتى مامور السجن نفسه الذي مازلت أذكر اسمه إنه اللواء محمود صاحب الذي كان بداخله تعاطف غريب مع المفكرين المسجونين لديه في سجن مصر..

وأنا أقول لك إن من بين الشخصيات العظيمة التي تعرفت عليها داخل هذه الجدران والذي تأثـرت به وبأفعـاله كثيرا.. فقـد حضر إلى في يوم من أيـام العيد وأنـا مسجون انفراديا بسبب هتاف ضد عبد الناصر.. جاء إلى الزنزانة يحمل لي كعك العيد.. ثم مالبث أن أخرجني كي أنضم الى زمـلائي في الاحتفال بهذا اليوم العظيم.. وأخـذ يخطب فينا وقتها.. مبينا تعاطفـه معنا ويكفيه القول بأنه قد رحمنـا ورفض قتلنا مثلما كان يفعل غيره من ضباط السجن الآخرين لاننا فعلا كنا لديه داخل السجن بلا أسماء أو عناوين وحتى لو كنا قتلنا على حد قوله.. فلن يلومـه أحد.. فقد كانت هذه هي سنة السجون في مصر آنذاك.. وأنا أذكر الكلمة التي قالها لي بالذات.. أنت هنا بدون إيصال.. ومن الممكن الا ترجع إلى بيتك..

ومن غير المفكـرين.. أنـا لا أنسى الـولـد«بـورق» .. فقـد كـان مـدرسـة وحـده.. شهرته«بورق».. وكان مجرما متمرسـا.. تعرفت عليه حينما كان يأتي إلى زنزانتنا من أجل تنظيفها.. وقد قدمَ لي خدمات عديدة منها توصيل الرسائل إلى الأهل حين زيارتنا.. بل وتوصيل الرسائل عبر بعض العساكر إلى المنازل في مقابل أجر ثابت.. بأمانة لقد كنا نعيش مع هؤلاء في أمان نـوعا ما.. وقد لعب الاخ بـورق دورا عظيما في هذا الشأن هذه الشخصية تعرفت عليها عام ١٩٥٦.. فقد كان مجرما ممارسا عاماً وليس متخصصـا.. وكانت لديه آلاف الألفاظ والمصطلحـات الخاصة بعالم السرقة والإجرام.. وكم تعلمت منـه الكثير من هذه المصطلحـات.. تلك التي استفدت منهـا كثيرا في كتابي عن«اللغـات الخاصة»..

فقد خصصت لتلك المصطلحات فصلا كاملاً فى هذا الكتاب بعنوان« علم اللغة العام».. وكان أيضا له الفضل فى أن يكون لنا نحن المعتقلين السياسيين من المفكرين لغة خاصة.. فعلى سبيل المثال كلمة«خشب» كانت تعنى الضابط.. أما العسكرى فكانت إشارته الحذاء.. وهكذا.. أكثر من ذلك عرفت بعض المصطلحات الخاصة به وبعالم السرقة مثل كلمة«ذهوب» كانت تعنى الجنيه.. وهكذا..

***ما هو تصور الدكتور عبد الصبور شاهين للطريق الأمثل نحو معالجة الرأى الآخر أو الرأى المعارض للحكومة أو للحاكم؟ غير عقوبة السجن؟..**

– يجب أولا أن يكون لدى الحاكم استعداد للفهم.. وليسمع وجهات النظر المختلفة.. لأن الحاكم من وجهة نظرى هو مملوك للجماهير وللشعب وللرعية.. فلابد أن يستمع إليها.. مؤيدين ومعارضين.. فى ظل إيمانه بالحرية للجميع.. لأن الإنسان يمكن أن يصبر على الجوع والعطش ولا يصبر أبدا على سلب الحرية.. ولذلك فإن أكبر جريمة يرتكبها الحاكم أن يصادر حرية الناس من منطلق أن رأى الحاكم لا يمكن أن يكون صادقا أو صائبا على طول الخط.. وكذلك المؤيدين له.. وأيضا المعارضين..

والمصيبة أن تغيب هذه الحقيقة عن الواقع.. ويحاول كل من يتصل بالحاكم أن يشبع بداخله شهوة الانفراد المصحوبة بالرأى الصائب.. دون الالتفات لرأى الآخرين.. ودعنى أذكر لك مثالا من تاريخنا المعاصر.. فالرئيس السادات حينما جاء بعد فترة حكم طويلة من الدكتاتورية، كان يحكم عقله وثقافته وكان يستمع لرأى الآخرين.. ولذلك نجده قد احترم المفكر والمفكرين وقربهم إليه.. وحينما غدر عليهم.. وضعهم فى السجون.. وضع نهايته بيده.. وعجل بهذه النهاية لأنه تخاصم مع الفكر والمفكرين.

إن هاتين المرحلتين مختلفتان فى عهد الرئيس السادات ولعلنى أذكر أيضا فيما يخصنى بعلاقتى بالرئيس السادات أنه فى فترة من الفترات السابقة التى ارتبطت ببداية حكمه.. كنت دائما أخطب فى أحد المساجد.. ولا أمل أبدا من توجيه الانتقاد لبعض سياسته.. وأقولها كلمة حق وشهادة لله فى حق هذا الرجل.. لم يصبنى أى شىء أو سوء من جراء هذا النقد مهما كانت قسوته حتى أصر السادات نفسه أن يحضر لى إحدى هذه الخطب التى كنت ألقيها قبل صلاة الجمعة..

والحقيقة أننى فوجئت يومها بحضوره إلى المسجد.. ولم أغير من خطتى فى نقد

سياسته.. ورغم أنه غضب منى.. إلا أن هذا الغضب لم يوصلنى إلى السجن مثلما حدث أيام سلفه الرئيس عبد الناصر.. ولعلنى أذكر أن أهم نقاط الخلاف التى أكدت عليها أيام الرئيس السادات قوله دائما.. اننا نطلب السلام من موقع القوة.. فكنت دائما أرد عليه علانية باننا لابد وأن نطلب السلام من موقع الضعف كما أمرنا بذلك رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.. وأعود وأكرر أننى رغم ذلك لم أؤكد لك أن الرئيس السادات قد أخطأ فى حق نفسه وفى حق المفكرين باعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. وأنا أعتقد أنه شخصيا قد اتخذ هذه القرارات ضد رغبته.. فلم يكن قراره من داخله.. بل كان قرارا نابعا من داخل نفس زوجته..

إننى مازلت أعتقد ذلك، فهى التى قادته إلى هذا الفعل لانه كان أنزه من أن يتخذ مثل هذا القرار.. عارف لماذا؟ لأنه أى الرئيس السادات قد ذاق مرارة السجن.. ويعلم أن السجن لا يمكن أن يؤدب مفكرا.. أو يجعله يتراجع عما يعتنقه.. ولا أنسى أن أقول لك إننى من هؤلاء الذين فشل السجن فى انتزاع ما بداخلهم من أفكار..

وبالمناسبة أرجوك أن تسجل عنى هذه الكلمات.. إننا الآن ننعم بقدر كبير من الحرية والاستقرار.. وأؤكد أن ما أقوله الآن وكل أسبوع فى جامع عمرو بن العاص.. لو كنت أقول عشر معشاره أيام عبد الناصر لطارت رقبتى.. وهذه شهادة منى بذلك.. إن هذه الحرية التى نعيشها الآن.. هى استمرار لجو الحرية الذى عشناه فى السنوات الأولى لحكم الرئيس السادات.. ولولا اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. لكنا قد سجلنا تاريخا مصريا عريقا على طريق الحرية.. ولكن والحمد لله نحن مستمرون فى الطريق وندعو الله أن نصل الى آخره حيث تسود الحرية أكثر وأكثر..

*** لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع الرئيس أو رئيس الحكومة دائما فى دول العالم الثالث؟..**

- لأن الحكم والسلطة فى هذا العالم الثالث مسخرة وموجهة لخدمة شخص واحد فقط هو رئيس الدولة.. فأمنه هو أمن الدولة.. وفزعه هو فزع الدولة.. ولعلك تذكر الآن أن كثيرين قد كتبوا ومازالوا يكتبون هذه الأيام أن أجهزة الأمن فى الدولة قد انصرفت للحفاظ على الأمن السياسى وتركت الأمن الاجتماعى.. وهذا فى تصورى صحيح.. ويرجع الى أصل الموضوعات كأسباب لأخطر مشاكلنا الاجتماعية التى

نعاني منها هذه الأيام.. إن الاهتمام بالأمن السياسي حقيقة قد جعل الاجهزة تتصرف كلية إلى الأمن الاجتماعي..

وفي واقع الأمر أنه حين تسود الديمقراطية في أي بلد من بلدان هذا العالم.. فعلا لن يكون هناك اعتقال لمفكر سواء بتوقيع رئيس الدولة أو بتوقيع غيره.. مادام هذا الفكر لا يحمل إرهابا أو تدميرا لصالح المجموع والمجتمع.. وانني على يقين اننا هنا في مصر من بين دول العالم الثالث المؤهلين في الواقع لحمل مشاعل الحرية والديمقراطية.. لاننا نعبد الحرية ونقدسها ونحترم الحاكم الذي يقدمها لنا مادامت في حدود الشريعة وخدمة المجتمع.

وفي ظل هذا الحوار دعني أقول لك إنني أرى ضرورة إلغاء حالة الطوارىء الآن.. لأن مثل هذه القوانين الاستثنائية تبث الرعب في قلب الحاكم أكثر من الرعية ولعلك هنا تتعجب.. ودعني أحكي لك حكاية من واقع ذكر قانون الطوارىء.. وقد عرفتها داخل السجن..

لقد كنا نسمع داخل جدران السجن أن الحالة الآن(ج).. ولن تنزل إلى الحالة (ب).. لأن ضباط السجن كانوا يستفيدون ماديا من الحالة الأولى.. من أجل ذلك كانت حالة الطوارىء تستمر مفروضة علينا داخل السجن لا لشىء إلا من أجل زيادة مرتبات وبدلات القائمين على السجن.. وأنا اعتقد أن مثل هذه الأمور كانت صميمة الى حد بعيد في عهد الرئيس عبد الناصر..

*** وهل ترون أن يكون للمفكر سجنا خاصا به أم يزج به وسط بقية المجرمين؟..**

– بالنسبة لي ولفكري.. أنا أرى أن العمل بالشريعة الإسلامية لن يبقي على وجود السجون إطلاقا.. لأن الحدود والتقارير تحسم القضايا.. وأنا أتصور أن هذه السجون والمعتقلات من سيئات القوانين الوضعية..

وعلى شماعة هذه السجون يعلق فشل القانون الوضعي في معالجة الجريمة، أو في توفير الأمن أو في حماية الحرية.. إذن لابد من الواجب أن نفرق بين الفكر وبين أنواع الجرائم الأخرى.. ومما يزري السلطة ويدينها.. أن تضع مثل المفكرين مشاعل الثقافة والرأي مع غيرهم من القتلة والمجرمين.

لابد من الفصل بين الإثنين.. وإن كان من الضرورى قيام مثل هذا الاختلاط.. فأنا أرى من الضرورى أن يعين المفكر داخل السجن حتى وهو سجين فى وظيفة معلم لغيره من المجرمين.. وعلى ذلك يكون له احترامه ويمارس فكره داخل السجن.. لأنه سوف يمارس هذا الفكر شاءت السلطة أم أبت.. وكل ما هنالك أنه فى مثل هذه الحالات.. يتم التنبيه على المفكر أنه سوف يتم حجب فكره عن العامة أى عموم الشعب والجماهير.. ومن حقه ممارسة هذا الفكر داخل السجن.. ويمكن له أن يوظف فكره هذا فى إصلاح أحوال بقية المسجونين على ذمة قضايا الإجرام المختلفة وقد يكون ذلك نوعا من الإنسانية..

***وما رأيكم فى سجون مصر الآن؟**

- لدينا نوعان من السجون.. نوع يتسم بالأشغال الشاقة وهى أمور تمارس خلالها حرف وهى فى الواقع أشياء عملية.. ولكن هناك أنواع من السجون ربما خصصت لبعض المدللين.. مثل المضبوطين فى قضايا أخلاقية أو إلى آخره أو المدمنين.. وكلها أمور تدخل فى إطار التخبط لأن السجن لابد وأن يكون فقط سلب لحرية الإنسان لفترة محددة.. وأن يمارس خلالها إنسانيته وحياته.. بعيدا عن التعذيب والإهانات.. لأن السجن إذا أراد أن يصلح مجرما.. فلن يصلحه إلا بالتكريم وبالتربية الصالحة داخل السجن وإشعاره بالتأنيب.. ولابد أن يفهم السجين أنه رغم خطئه ضد المجتمع.. فالمجتمع يعامله بخلاف الجرم الذى ارتكبه.. هذا من ناحية السجن كعقوبة.. أما أنا فأساساً أرفض حتى وجود عقوبة السجن من وجهة النظر الاسلامية.. لأن السجن فى ظل التشريع الاسلامى لا وجود له إلا على سبيل الحجز فى انتظار الحسم وفقا للشريعة الاسلامية.. وليس للعقوبة طويلة المدى.. فإن أقصى عقوبة معترف بها شرعا هو تغريب عام بعد مائة جلدة.

ولا تخص هذه العقوبة القتلة فإن من يقتل لابد وأن يقتل، لأن الحدود فى الإسلام أساسها صلاح حالة الرعية.. والهدف منها الردع وليس التشويه وأيضا لمنع الجريمة.. وهذا دعنى أحدثك عن ضرورة وجود المجتمع الإسلامى الصحيح القائم على أسس صحيحة، منها التربية السليمة التى يكون أهم رسالتها خلق إنسان مسلم يبتعد كلما استطاع عن ارتكاب الجريمة.. وفى ظل أوضاع السجون الآن لا أجد غضاضة فى

القول بأنها تساعد على إفراز الجرائم أكثر من كونها أداة إصلاح.. وأنها بالفعل من وجهة نظرى مدرسة تخرج المجرمين أكثر إجراما وأكثر تخصصا..

فالمجرم سارق الفراخ يخرج منه أكثر خبرة فيتحول إلى سارق الشقق أو سارق بنوك.. إنه مدرسة حقيقية تخرج مجرمين متمرسين فى الإجرام..

وذلك عكس ما نتمناه وننشده.. لأن السجن معناه ردع المجرم وتخويفه حتى لا يرتكب الجريمة مرة أخرى.. وهذا للأسف مالا يحدث فى سجوننا الآن.. وهذا التصور ليس بعيدا عن الواقع والممارسة.. بل أقول لك أكثر من ذلك.. إننى عرفت أوضاع هذه السجون قبل دخلوها.. من قراءاتى لمذكرات صول فى البوليس يعمل سجانا.. وكنت وقتها طالباً بالثانوية.. وجاء لى بهذه المذكرات من أجل أن أصححها له لغويا قبل طبعها.. وعرفت منها أن السجن باعترافات هذا الرجل هى بحق بؤرة فساد قذرة وعالم رهيب. وما شاهدته خلال رحلتى عبر السجون فى المرات الثلاث أكد لى ما قرأته وربما أكثر.. ودعنى أؤكد لك أن الأمن الذى يختل فى الشوارع فى المنازل وفى الأتوبيسات مصدره الحقيقى أصحاب السوابق الذين حولهم السجن إلى مجرمين متمرسين.. وتقدر تقول إنهم من نتاج صورة السجون السيئة وأوضاعها التى هى فى حاجة إلى مزيد من الرعاية والإصلاح..

وماذا لو كان الدكتور عبد الصبور شاهين مأموراً للسجن؟

– أنا.. أنا كنت حولت السجن إلى جامعة.. والمسجونين إلى تلاميذ.. وأضع بين يدى كل منهم أستاذا فى علم النفس كى يسجل لهم تقدمهم على طريق الصلاح والتوبة.. وهجران الجريمة إلى الأبد..

*** وأخيرا ماذا لو كان الأستاذ الدكتور عبد الصبور رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليه كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم ماذا كان يفعل؟**

– عارف أقوم باستعراض أسماء هذا الكشف وأطلب فورا منح كل منهم وساما من الدرجة الأولى..

الحكاية الرابعة يرويها الدكتور ميلاد حنا:

دخلت السجن أستاذاً جامعياً وخرجت منه.. سياسيا ومفكراً

لا شك أن الحياة داخل المعتقلات حافلة وغريبة، ومليئة بالأعاجيب ورغم ما كتب عنها إلا أن المكتبة المصرية مازالت بحاجة إلى رؤى جديدة من خبرات مختلفة لما جري في سبتمبر الغاضب .. ولأن سبتمبر هذا هو خبرتي الأولى في الاعتقال أرجو أن تكون الأخيرة بحكم السن.. والموقع والتاريخ.. وقد تصادف أن كنت من ثمرات القطفة الأولى للمعتقلين، وتصادف أيضاً أن كنت من المجموعة الأولى التي تم الإفراج عنها كي تنتقل من زنازينها إلى قصر رئيس الجمهورية مباشرة.. وبين تاريخ اعتقالي وتاريخ الإفراج في قصر الرئاسة تدفقت في النهر مياه كثيرة تروى حكايات بالغة العمق والدلالة..

هكذا بدأت كلمات الدكتور ميلاد حنا تنساب منذ اللحظة الأولى لإدارتي لشريط التسجيل الذي حمل إلينا نص هذا الحوار.. وكثيراً ما توقفت عند كلماته قبل التسجيل وبعده.. مثلا عند قوله: «أمضيت تسعة أسابيع مع الأساقفة والكهنة المسيحيين، فكان احتكاكا جديداً بالنسبة لي، إذ أن اعتقال وسجن رجال الدين المسيحي في مصر غير مسبوق في تاريخها المكتوب، وعندما ما أعلنت احتجاجي على ذلك لما يمثله من شرخ في جدار الوحدة الوطنية تم نقلي إلى سجن آخر مع السياسيين.. فكان احتكاكا أكثر حدة وأكثر طرافة..

مثل هذه العبارات والجمل التي كان يخرجها الدكتور ميلاد حنا أستاذ الهندسة والسياسي الشهير، كانت تحمل في كل كلمة يقولها معنى المصرية والحب المتأصل في دماء هؤلاء المصريين الذين يعشقون تلك الأرض الطيبة بصرف النظر عن الدين.. وحين تراه وهو يحكي ويقول لك لابد وأن تتوقف وتستمع حتى تستفيد.. وتعرف لأن حبه للحياة العملية والعلمية لم يجعله ينفصل عن حبه الأول للعمل السياسي من أجل مستقبل جديد.

وها نحن نتوقف مرة أخرى أمام كلماته قبل أن يدور بنا شريط التسجيل.. وتراه

يحدثك بصوت العالم الواثق من كل معلوماته وأحاديثه.. وهو في كل ما كان يرويه صادق إلى حد بعيد.. ولقد شغله العمل السياسي كثيرا حتى وهو في منصبه الجامعي.. ففي عام ١٩٦٩ على سبيل المثال كان نشاطه السياسي قد اتخذ أشكالاً واضحة مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض عليه.. بل وطلب فصله من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعه تحت الحراسة.. ولكن ذلك لم يحدث لأسباب سوف نحكيها فيما بعد.

المهم دخل الدكتور ميلاد حنا المعتقل... وأول شيء صادفه ذلك الموقف الذي يحكيه بقوله: عندما انتهى الضابط من تسجيل مضبوطات الكاهن في محضر رسمي وطلب منه التنحي جانبا على أن يظل واقفا... سأل الضابط.. هل هناك معتقل ثان.. قلت نعم .. أنا ذلك الثاني واسمي ميلاد حنا..

***

وحين يدور شريط التسجيل.. ونبدأ في سماع كلمات هذا الحوار بأسئلته التقليدية يخرج علينا صوت الدكتور ميلاد حنا وهو يحكي الذكريات وكأنما يعزف على أوتار أحباله الصوتية.. وبدون الدخول في تفاصيل ذكر الأسئلة وإجابتها.. علينا من هذه اللحظة الإنصات جيدا من أجل تتبع واع لما سوف يرويه لنا هذا المفكر عن تأثير تجربة السجن والاعتقال في حياته..

وقبل أن يظهر صوت الضيف عبر جهاز التسجيل سبقته كلمات كاتب هذه السطور مقدما إياه بعبارات الود والتحية... مثل قوله: بسم الله الرحمن الرحيم إنني في غاية السعادة لإجراء مثل هذا الحوار مع أحد المفكرين المصريين الذين لم يبخلوا ولو بحبة عرق من أجل مصر.. سواء في الجامعة أو في ميدان العمل السياسي والعمل العام.. وأستاذنا الدكتور ميلاد حنا هو من المفكرين الذين أعطوا ولا يزالون يعطون من فكرهم لتلاميذهم في كل مكان. والذين وقع عليهم الاختيار ضمن المفكرين المصريين الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال رغما عنهم أو بإرادتهم.. وهذا ما سوف نعرفه بعد لحظات وهذا حوار سيكون الأستاذ الدكتور ميلاد حنا ضيفاً فيه من خلال مجموعة من الأسئلة.. وتدور جميعا حول مفهوم الفكر وارتباطه بالقضبان والسجون.. فأهلا بك معنا ومع هذه الكلمات كي تبعدنا بأصول هذه التجربة مع اعتقادنا بأنها تجربة مريرة وأليمة.. من منطلق أن مرارة جيل المفكرين الحاليين.. هي خير المصابيح التي تنير للأجيال القادمة طريق الفكر وتكون دافعا قويا من أجل المزيد

من حرية الرأى..

وبعد عبارات الترحيب التقليدية.. بدأ الدكتور ميلاد حنا ذكرياته بقوله: أنا سوف أحكي لك بدون قلق.. وبداية أقول لك: لكل مرحلة تاريخية سمة من سمات النضال والكفاح.. فأنت ترى في سابق الأزمات الخصوم السياسيين كانوا لابد وأن يختفوا.. وبطرق مختلفة ومتنوعة.. مثلا كانوا يوضعون فوق خازوق ثم يوضعون في الزيت ثم يصلون إلى مرحلة العدم.. ولا يعرف عنهم أحد أي شيء ولا أي مصير.. ولكن في زمن الحضارة وظهور الاستعمار اتجه الفكر الاستعمارى لانجلترا إلى النفى.. وتستطيع أن تقول إنها كانت مرحلة ثانية أو مرحلة أرقى من سابقتها..

وعرفت مصر الصراع السياسى آنذاك ضد الاحتلال البريطاني.. وكان مصير هؤلاء المفكرين الوطنيين هو النفي إلى المستعمرات البريطانية في دول وقارات أخرى مثل مالطة وسيشيل وما شابه ذلك.. أما في خارج مصر.. فقد نفوا نابليون إلى أن مات في نفيه. أما في العصور الحديثة ماذا يستطيع الحاكم أى حاكم في ظل دولة مستقلة أن يقاوم خصومه السياسيين والمفكرين.. وهذا الحدث ينقلنا إلى المرحلة الوطنية التي مرت بها مصر بعد حصولها على الاستقلال يعني تقدر تقول الكلام القادم نخص به مصر فقط التي شهدت في المرحلة التي تلت الاستقلال اختفاء صفة نفي هؤلاء الخصوم.. ومن ثم الجديد هو لجوء الحكام الى فكرة بديلة.. وهى الاعتقال.. أو السجن أو أسماء مختلفة.. وأنا أذكر لك بالنسبة لحالتي.. كان الإسم الرسمي لاعتقالي هو «التحفظ عليه».. وطبعا كان ذلك هو الاسم المستتر للسجن أو للاعتقال.. إذن أنت منذ هذه اللحظة أمام ظواهر جديدة ومختلفة.. ولو عدنا إلى تأصيل هذه الإجراءات وفقا لمفهوم اللغة العربية نجد أن ما تسميه أنت الاعتقال وما أسميه أنا التحفظ يعنى لغويا «التوقيف».. أى إيقاف هذا الإنسان عن الحياة.. وهذا الوصف ينطبق تماما على اعتقال الرئيس محمد نجيب.. الذى تم اعتقاله في مكانه.. في بيته.. أى تحديد إقامته..إذن تجد أنك أمام مفاهيم مختلفة لهذا الفصل في العصر الحديث..

جانب آخر من جوانب اختلاف المفاهيم هو التعذيب فتجد التعذيب أيضا يختلف من مكان إلى مكان.. بالنسبة للمعارضة الوطنية.. وأصحاب الفكر الذين هم في صدام سلمى مع الحكومة..

وأحب أن أؤكد لك أنه رغم ما سـوف أحكيه من تجاوزات ارتبطت بمفهوم السجن أو الاعتقال فإن مصر العظيمة وخاصة فى العصر الحديث.. لم يسمح أى حاكم أن يقتل معارضاً له.. مهما وصلت هذه المعارضة إلى الخصومة..

والصراع العلنى يعكس ما كان يحدث ولايزال فى بعض الدول العربية وعلى سبيل المثال فى دولة مثل العراق.. هناك لا يعترفون بهذه الخصومات وبالتالى تجد المصير معروفاً وهو التصفية الجسدية المستمرة لأولئك المعارضين وأصحاب الفكر الحر.. وبصرف النظر داخل هذا البلد عن اسم الحاكم أو شخصه.. إنه هناك يعتبر اتجاهاً عاماً وسياسة معلنة.. ولعلك سمعت مثلى عما يحدث فى بعض الدول العربية التى تستعين بقواتها الجوية من أجل تصفية المعارضين..

ودافعى الحقيقى لاستعراض هذا الأمر فى عموميانه.. حتي يكون أمام الشباب بانوراما لما يمكن أن يحدث تحت مسمى الاعتقال أو التصفية الجسدية .. أو تحديد الإقامة.. أو التحفظ.. أو أى مصطلح من هذه المصطلحات التى اخترعت من أجل معاقبة المفكرين والخصوم السياسيين..

ودعني أقول لك وبشكل عام.. إن أنواع القضبان.. مختلفة وإنّ معاملة الخصوم السياسيين والمفكرين وأصحاب الرأى المخالف.. كانوا يعاملون بشكل أكثر حتراما أيام الاحتلال الانجليزى عما كان عليه أيام ثورة ٢٣ يوليو.. بصرف النظر عن التسميات التى أطلقناها علي تلك الفترة.. ولا دخل لى بأن ذلك كان استعمارا أو غير استعمار.. المهم شكل المعاملة التى يلقاها هؤلاء المفكرين.. وكان ذلك يحدث من منطلق أنّ العادات والتقاليد السياسية الانجليزية لم تكن تسمح حتى داخل انجلترا نفسها بمعاملة المعارض أو الخصم أو المفكر الذى يقف فى صف المعارضة معاملة سيئة .. لقد كانوا يعاملونهم معاملة حضارية راقية.. ويكفى أن أقول لك وأصف سجن الأجانب والمعاملة الحضارية التى كانوا يعاملون بها المسجون السياسى بداخله..

***

*** بعد هذا السرد التاريخى.. نريد أن نعرف من الدكتور ميلاد حنا.. كم مرة دخل فيها السجن.. بمفاهيمه المختلفة؟..**

ملحوظة: ربما لاحظ القارىء أننى منذ البداية قد اخترت أن يقول لنا هذه المعلومة

الدكتور ميلاد حنا ونقلهـا بحروفها كاملة من الكتاب الوحيد الذى سجل فيه مذكراته عن السجن بعد خروجه بست سنوات.. ومع ذلك تعمدت أن أكرر السؤال.. وأن يجيب عليه الدكتـور ميلاد حنا.. لإحساسى بأنـه يمكن أن يضيف الشىء الجديد.. ولسوف نرى بعد ذلك بلحظات من كتابة هذه الكلمة.. وفى رده قال لى:

– لابد لى أن أقول لك خلفيـة تاريخية.. أنا تربيتى الإنسانيـة يسارى.. ومن ثم فقد كنت جـزءاً من الحركـة الوطنيـة اليسـارية ورغم ذلـك لم أكن منضما إلى أية منظمـة يسارية آنذاك وكنت متعاطفا مع بعضهـا ومتبرعا لبعضها بالمال.. وتقدر تقول ده كان سنوات ٤٣، ٤٤، ١٩٤٥، ١٩٤٦ ثم كنت جزءاً من حركة الطلبة والعمال.. فى نفس التيار اليسارى فى ذلك الوقت وذلك لأن أى مفكر أو سياسى لا يبدأ من فراغ.. وفى هذه الفترة تعرفت على العديد من أعضـاء الحركة الوطنيـة اليسارية فى ذلك الوقت مثل خالد محيى الدين وآخرين.

ثم ذهبت إلى جامعة الاسكندرية وعينت بها معيدا بقسم الهندسة عام ١٩٤٥ وكانت الحركة اليسـارية فى ذلك الـوقت على أشدهـا وفى ازدهار.. وفى هـذه الفترة تعرفت على عزيز فهمى الذى كان يمثل ما يسمى بالطليعـة الوفدية وكنت جزءا من هذه الطليعة.. حتى سافرت إلى بـريطانيا.. وهناك كنت عضوا فى اللجنة الـوطنية للطلبة المصريين، ثم انتخبت عضوا فى مجلس إدارة نادى الطلبة المصريين عام ١٩٥٣.. وهناك وبعد معرفتنا بأحداث الثورة كنت أحـد الذين طالبوا بعـودة الجيش إلى ثكانته بعد نجـاحه فى القيام بثورة ٢٣ يوليو وأخذت موقفاً عنيداً جداً ضد عبد الناصر من منطلق أننا لابد وأن نبعد عن حكم العسكـريين.. وتوقع الكثير مـن زملائى أننى حين أصل إلى مصر سـوف يتم اعتقالى فوراً وفقا لهذا الموقف..

أما الذى حدث أن الله قـد سلم ورجعت إلى مصر من جديد واستلمت عملى بالجامعة فى هنـدسـة عين شمس منـذ عام ١٩٥٤ وحتى هـذه اللحظـة.. وظللت كـذلك أستـاذا جـامعيا.. وبعـدت بعض الشىء عن مجال الحركـة السياسيـة المصرية آنـذاك.. لأننى عرفت أن عبد الناصر قد أمم العمل السياسى.. ومن ثم اتجهت إلى الفكر السياسى أكتب عنه وأمـارسه..وفى عام ١٩٥٩ على مـا أذكر أن كل زملائى من رفـاق العمل السياسى اليسارى قد تم اعتقالهم جميعا وكان على قمتهم الدكتور عبد العظيم أنيس.

وفى عام ١٩٦٠ جاء عبـد الناصر بحركة التأميمات التى نـالت إعجابى الشخصى..

مما جعلني أشعر أن عبد الناصر قد تجاوز فكره العسكري.. وهو يحاول أن ينقل مصر إلى المعسكر الاشتراكي وفقا لمبادىء اليساريين.. ومن ثم تمت اتصالات بيني وبين الثورة، وعلى أثره دخلت الاتحاد الاشتراكي وكنت عضوا نشطا فيه.. إلى الدرجة التي كنت وقتها مرشحا وزيرا للإسكان.. وكان ذلك عام ١٩٦٣.. ولكنه لم يحدث لاعتراضي على وجود كافة الشيوعيين المصريين آنذاك في السجن.

وبعد هذا السرد التاريخي الذي أميل إليه كثيرا.. أستطيع أن أقول لك إن أول مرة أدخل فيها السجن معتقلا فكريا وسياسيا كانت عام ١٩٨١ ضمن اعتقالات سبتمبر الشهيرة.. ومع ذلك تستطيع أن تقول إنني قبل هذا التاريخ كنت مؤهلا لدخول السجن في أي لحظة.. وعلى ما أذكر كان ذلك عام ١٩٦٨ حينما قدت الطلبة بالجامعة وأنا أعمل أستاذا بها كزعيم لهم.. ووقتها أشيع أنني قد اعتقلت بالفعل.. ولكن ذلك لم يحدث.

ومرة أخرى عام ١٩٦٩.. كان نشاطي السياسي في ازدياد مستمر ويميل بدرجة ٩٠ درجة ناحية تزعم مطالب الطلبة آنذاك.. مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض على وفصلي من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعي تحت الحراسة.. وما أن اقترب القرار من دائرة التنفيذ حتى تمكن أحد أصدقائي من ترتيب لقاء بيني وبين شعراوي جمعة وزير الداخلية آنذاك.. وبدلا من فصلي أو وضعي تحت الحراسة تصادقنا.. وأصبحنا نلتقي كثيرا لا لمناقشة أحداث الجامعة بل لمناقشة كل ما كان يدور حولنا في المجتمع.

***

وحين أعود لأحدثك عن ظروف اعتقالي عام ١٩٨١ كأول وآخر مرة، أقول لك إنني دخلت تجربة الاعتقال تحت مظلة.. وعبر تاريخ سياسي طويل اهتم بثلاث قضايا هي بالترتيب: قضية إسكان الفقراء في مصر.. وهذه مشكلة اجتماعية لم تسبب لي أي مشاكل على الإطلاق.. بل أعطتني رصيدا كبيرا من الحب.. والقضية الثانية: قضية الديمقراطية في مصر.. وقد أوجدت لي متاعب كثيرة مع عبد الناصر ومع غيره.. ولا أقصد بها الرأي والرأي الآخر لأنني أعتبر هذه العبارة هي تسطيح لمفهوم الديمقراطية وذلك من منطلق إيماني أن الديمقراطية هي نظام متكامل يسير بآلية منتظمة.. وما الرأي الآخر إلا مناظرة تتم تحت مظلة الديقراطية.. بمفهومها الواسع.. لأن الخلاف في الرأي يتم أيضا ضمن أعتى الأنظمة الديكتاتورية.

إن مفهوم الديمقراطية فى خيالى هو نظام شامل ومتكامل يدور بآلية منتظمة نابعة من المجتمع وأفراده ووعيه.. وفى مفهومها العميق ما يسمح بتداول السلطة وفقا لرأى الجماهير.. هذه القضية الثانية التى أحدثك عنها وأعنى بها قضية الديمقراطية هى شاغلى الشاغل الآن.. وفى المستقبل كما كانت فى الماضى.. تلك القضية التى سببت لى العديد من المشاكل مع نظام الرئيس عبد الناصر ونظام الرئيس السادات.. أما القضية الثالثة والتى أزعم أننى قد اعتقلت بسببها.. هى قضية الوحدة الوطنية.. التى أعتبرها إحدى ركائز المجتمع المصرى فى كل العصور.. وهذه الألفة بين المسلمين والاقباط التى عشتها فى حياتى المبكرة منذ أن كان والدى عضوا بارزا فى حزب الوفد الذى كان يمثل عنصرى الامة ووحدة الهلال مع الصليب.

ومع نهاية العهد الملكى.. ووصول أيام الثورة وعبد الناصر.. تلك الايام التى لم تثر فيها مثل هذه القضية، ولم نشاهد أية مشاكل بين المسلمين والأقباط فى ذلك الوقت.. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب مثلا أولها يرجع إلى امتداد تأثير أفكار الوفد الذى استمد وجوده من عنصرى الأمة.. وثانيا: قيام عبد الناصر بتأميم العمل السياسى الوطنى لكل المصريين سواء المسلمين أو المسيحيين.. فلم يكن يسمح لتحرك سياسى على أعلى مستوى من هذه المستويات.. واستمر هذا الوضع الهادىء داخليا مستمرا فيما يخص الوحدة الوطنية المصرية أعوام ٧٣ و٧٤ و١٩٧٥.. وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم ودفع بالجماعات الإسلامية إلى الساحة السياسية.. وظلت الصراعات الطائفية تستشرى فى مصر منذ حريق كنيسة الخانكة عام ١٩٧٢.. حتى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١.

والذى حدث بالنسبة لى تحديدا.. أن هذا الموضوع قد أثارنى، وأحسستأن مصر على حافة الهاوية من ناحية الشرخ الطائفى بين الأقباط والمسلمين.. وهذا الأمر من أساسه مرفوض لأننا قد نختلف سياسيا أو اقتصاديا.. أما الاختلاف حول المبدأ الطائفى فكان من الممكن أن يحول مصر إلى لبنان أخرى.. وذروة الاحداث فى رأيى كانت عندما أعلن الرئيس السادات فى عام ١٩٨٠ أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة.. هذا الموضوع أثارنى إثارة شديدة للدرجة التى جعلتنى أقرر النزول إلى الشارع السياسى والشارع الفكرى فى مصر من أجل إيقاف هذا الشرخ الذى ربما يتسع فى لحظة من اللحظات.. ويأخذ فى طريقه الاخضر واليابس.

وكانت الاستجابة خرافية من جانب عنصرى الأمة حيث لم يوافق الأغلبية منهم على مثل هـذا الموقف.. بـاعتبـار أن مصر للجميع.. ولا فـرق بين مسلم وقبطى مـا دامـوا يشربون من مـاء النيل.. ويعملون من أجل صالح مصر داخليـا وخارجيا.. وقـد برهن المسلمـون المصريون أن الأقبـاط المصريين هم جـزء من هـذا المجتمع ومن أساسيـات وجوده.. وفى وسط هذا المجهود الذى كنت أبـذله من أجل الحفاظ على مجتمعنا المصرى بعنصريه.. كنت لا أمل من ترديد عبارة وصلت وقتهـا إلى السـادات.. أقول فيها: سيدى الرئيس أنت لست رئيسـا لدولة مسلمة.. بل رئيس مصرى لدولة مصرية.. ثم تصـادف وقتها بجانب ذلك أن جمعت مادة علمية بسيطـة وبسرعة طبعتها فى كتاب صدر وقتها تحت عنوان «نعم أقبـاط.. ولكن مصريون».. وقـد تصـور الـرئيس السادات أننى بهذا الكتاب أرد على ما جاء فى خطابه السياسى الـذى قاله آنذاك.. وقد حاولت استغلال كل الظروف السياسية التى كانت سائدة فى ذلك من أجل توصيل صوتى عاليا إلى الرئيس السادات.

ووقتها لاحظت أن قبضة الرئيس أصبحت شديدة.. وأنهم يحرصـون على تسجيل كل ما أقوله من أجل نقله إلى الجهـات المسئولة فى مصر.. وكان النبوى إسماعيل وزيرا للداخليـة فى هذه الآونـة.. وقد حذرنى بعض زمـلائى فى حزب التجمع الـذى كنت أحد قياداته فى تلك الفترة.. من عـدم التعـرض فى أحاديثـى لوزيـر الـداخلية.. لأنـه يملك المعتقلات والسجون.. وقد اعتبرت هذا التحذير نبوءة مبكرة لدخول السجن بالفعل.

وبـالفعل فى مسـاء يـوم الأربعـاء ٢ سبتمبر عـام ١٩٨١ وكنت فى اجتماع روتينى بـالحزب للجنة العـلاقـات الخارجية.. وكنت رئيسهـا.. جـاءت إلينا أخبـار من بعض المسجونين اليسـاريين فى مزرعة طرة أن هنـاك ترتيبات داخل السجن لاستقبـال عدد كبير من المعتقلين الجدد.. وعلينا أن نحذر.. وعندمـا علمت بالخبر، ظننت لأول وهلة أن الرئيس السادات سوف يعتقل بعض الجماعات الدينية قبل خطابه فى ٥ سبتمبر كإجراء وقائى، ولا مانع من اعتقال بعض شبـاب التجمع المعروفين.. ولم يدر فى خلدى للحظة واحدة أننى شخصيا على رأس قائمة الاعتقالات الجديدة.

*** وهل لا يزال الدكتور ميلاد حنا يتذكر لحظات اعتقاله؟**

ـــ طبعـا مفيش كلام.. ودعنـى أحكى لك بعض تفـاصيلها.. لقـد اقتحمت القـوات الخاصة من رجـال الأمن منزلى.. وألقى القبض على.. وفى حراسة الشرطـة أخذونى إلى

قسم الدقي ثم إلى سجن الاستقبال بليمان طره.. وهناك تعذر استقبالي بسبب التفرقة الدينية، فتوجهنا من طره إلى سجن المرج شمال القاهرة.. وفي غرفة المأمور تجمعنا نحن المعتقلين الأقباط وكانت بشائر الفجر قد أطلت علينا.. وقد أمسك بكل منا حارسان أحدهما يتأبط الذراع اليمنى والآخر يتأبط الذراع اليسرى وسرنا جميعا في هيئة طابور يجمع بين الكهنة والعلمانيين.

وتأكدت من عمق الشرخ الذي أصاب مصر آنذاك بعد أن أعدت وزارة الداخلية سجن المرج لاستقبال الأقباط وحدهم.. وبخطوات منتظمة تتناغم مع خطوات رجال الأمن الذين أمسكوا بنا.. وقد سرنا جميعا إلى السجن الداخلي وتوقفنا عند سجن التجربة وهو سجن داخل السجن.. وفي زنزانات باردة دفعوا بنا إلى ساحتها القذرة.. لقد كانت توحي إلينا بالرهبة والعقاب معا.. كما كانت توحي أيضا باستحالة الهرب.. وعلى وسادة من الكاوتش وبنفس الملابس التي غادرت بها منزلي ألقيت بجسدي المتعب وأنا في حالة من الذهول وانعدام الوزن.. وقتها لم أستطع النوم.. وبعد أقل من لحظة قصيرة.. فإذا بطابور جديد وإذا بهم يدفعون كاهنا للإقامة معي في زنزانتي.

***

*** ما هو تأثير تجربة السجن التي عاشها الدكتور ميلاد حنا طوال الثلاثة والثمانين يوما.. ضمن اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١؟**

ـ هو أولا.. عندما يفرض على الإنسان حبس لمدة عدد معين من السنوات، لابد أن يؤهل نفسه لمثل هذه الحبسة.. ولكن وجه الجمال والقهر معا فيما واجهته من اعتقال هو أننا دخلنا إلى المجهول.. فلم نستطع فور دخولنا السجن أن نعرف لماذا حبسونا.. وظللنا نضرب أخماسا في أسداس حول هذا السؤال.. وتساءلنا عن المصير.. باعتبار أن ذلك كان من أصعب الأسئلة التي واجهتنا في تلك الفترة.. إنه المجهول بعينه.. وبمجرد اعتقالي وإيداعي سجن المرج في الساعة الثانية صباحا.. في الفجر.. ودخلت الزنزانة مع بداية الشروق.. وكان معي بها أحد الكهنة من رجال الدين المسيحي.

وكما ذكرت من قبل.. كان ذلك بداية تفرقة عنصرية.. الأمر الذي جعلني أقوم بإضراب داخل السجن على هذه التفرقة.. وهذه كانت تفاصيل دقيقة كتبها الأستاذ هيكل في كتابه.. وكذلك أنا كتبتها كذلك.. المهم.. هو أنني حين كنت في طريقي من غرفة مأمور السجن إلى الزنزانة بين حارسين من حراس السجن.. أحسست بنشوة غريبة..

وشعرت أنني قد انتقلت من الأستاذية الجامعية.. ومن رجل الفكر إلى النضال السياسي.. وأنني ساكون شخصية تاريخية بدلا من أن أكون شخصية جامعية علمية.. وما إن دخلت إلى الزنزانة وكانت انفرادية وكريهة الرائحة ومظلمة.. تخرج منها جيوش من الحشرات من كل الأنواع.. حتى نمت نوما عميقا.. لم يحدث لى من قبل.. لأنني كنت قبل ذلك بأسبوع منفعلا بشدة لما حدث لمصر خاصة بعد أحداث الزاوية الحمراء.. وشعرت بأنني كان من الممكن أن أموت لو لم أدخل السجن في هذه الفترة.. واعتبرت اعتقالي منقذا لى من مثل هذا الموت المحقق..

وبالفعل تركت لنفسي ولجفوني الفرصة.. ونمت كما لم أنم من قبل.. ولا أذكر متى استيقظت لأن الزنزانة كانت مظلمة في كل الأوقات.. حتى جاء الحارس والسجان بكاهن آخر يزاملني بالزنزانة.. بعدما عشت بها ساعات طويلة منفردا.. وكان اسمه القمص «اثناسيوس بطرس».. ولم يكن بيني وبينه معرفة مسبقة ولكنه قابلني بترحاب شديد.. وعشنا معا داخل هذه الجدران واعتبرني أستاذا له.. وما زالت تربطني به صداقة حتى الآن.. وكان رجلاً ديناً من القاهرة ومن حى المطرية.. وعرفت فيما بعد أن كل من دخل السجن من الكهنة والأساقفة كان بسبب مشكلة «الخط الهمايوني» وإمكانية بناء كنائس بطريقة معقولة.. وهذه كانت قضية سياسية ربما نتعرض لها فيما بعد.

***

*** وبشكل عام.. هل يمكن أن تقول لنا.. ما هو تأثير هذه التجربة على الفكر الإنساني قديماً وحديثاً؟**

* ابتداء.. في تقديري أن كل مسجون سياسي يعتبر السجن بالنسبة له في مراحله الأولى هو فترة الرجوع إلى الذات.. وتصحيح المسار.. وهي وقفة إجبارية ممتازة.. لأن الإنسان خارج السجن من النادر أن يقف مثل هذه الوقفة نظرا لمشاغل الحياة الكثيرة.. ومن هنا.. فمجرد أن دخلت السجن.. كانت توجهاتي على محاور مختلفة عندما كنت مع نفسي.. أولا تساءلت من أنا؟.. وإلى أين سأكون؟ وما هو مصيري؟.. وما هي فلسفتي في الحياة؟

إذن السجن هو المدرسة الكبيرة للفكر والفلسفة.. وأي مناضل سياسي لا يستغل فترة السجن في المزيد من التفكير والفلسفة.. وفي إعادة حساباته يخطىء في حق نفسه..

ويجد نفسه دون أن يعود إلى نفسه، وهذا خطأ شديد جدا.. والمسجون السياسى أو المفكر الذى يخرج من السجن ويناضل فى نفس الطريق وبنفس الحماس وبنفس التجربة.. هو سجين لا يستحق أن يكون مفكرا.. ويمكن أن نلقبه بالمشاغب دون أن يكون مبدعا أو سياسيا أو أى شىء نافع لنفسه أو لوطنه.. وبالتالى.. لابد من اعتبارها فترة تصحيح مسار.. وبالنسبة لى كانت كذلك.. فقد بدأت أراجع تاريخ حياتى كله وأخذت أستعرض شريط ذكرياتى وأضع خطوطا حمراء تحت الأجزاء المضيئة وغير المضيئة.. ولابد لى هنا أن أقول.. إننى قد اكتشفت نفسى من جديد.. وتستطيع أن تقول إنها «بيروسترويكا الميلادية» نسبة لى.. وخرجت ولدى نقد شديد فى نواح كثيرة.. منها النواحى السياسية بالذات وموقفى من حزب التجمع حيث وجهت إليه نقدا شديدا واختلفت مع مبادئه، لأنه يدعو إلى الاشتراكية من نهج ماركسى ويستبعد النهج الديمقراطى.

ومن هنا بالفعل قد أثر فىّ تأثيرا شديدا.. ورفضت أن أكون فردا فى قطيع، ورأيت أن تكون لى هذه الخصوصية فى المزج بين الاشتراكية والديمقراطية.. وتجدنى من هذا المنطلق قد اخترت طريق التعامل مع حزب الوفد.. وحرصت فى الفترة الأخيرة أن أكون كاتبا ومفكرا فى صحيفة الوفد لفترة طويلة.. لأننى أؤمن وما زلت أن طريقى الوحيد يرتبط بالاشتراكية والديمقراطية كنهج واحد ومشترك.. لأنه لا يكفى أن تطعم الإنسان.. بل لابد وأن تعطيه حريته فى الاختيار وحرية المطالبة بحقه فى الحياة.. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثانى.. فهو أننى قد نشأت وتربيت فى بيت قبطى فى حى شبرا فى جزيرة بدران وفى شارع مسرة بالتحديد، حيث توجد أقدم كنيسة بنيت فى شبرا فى عام ١٩٢٤ وهو تاريخ ميلادى.. وكان جدى لأمى من الأثرياء حيث كان يرعى هذه الكنيسة.. وبالتالى كانت نشأتى دينية خالصة.. ارتبطت بحفظ الكتب الدينية والتراتيل.. ثم كنت قائدا لإحدى مدارس الأحد فى منطقة جزيرة بدران.. ومصر القديمة.. حيث كنت زعيما فى سن السادسة عشرة من عمرى، وتعرفت على المناورات السياسية وغير ذلك.. ثم تعرفت على «نظير جيد».. الذى أصبح فيما بعد البابا «شنودة».. حيث كان القائد فى الجهة الأخرى من شارع شبرا وفى المنطقة المقابلة لى من نفس الحى فيما كان يعرف بالترعة البولاقية.

ثم سافرت إلى بريطانيا.. وهناك قرأت عن الفكر السياسي الحديث ثم أصبحت بعد فترة وجيزة عضوا بارزا في حزب العمال البريطاني.. وربما يكون انتمائي إلى الاشتراكية الديمقراطية يعود لتلك الجذور.. ومن ثم ابتعدت عن الفكرة الدينية.. وأصبحت علمانيا مفكرا وسياسيا.. وتحول انتمائي القبطي إلى انتماء أسري واجتماعي أكثر منه انتماء كنسي ديني.. ولكن عندما اعتقلت مع الأساقفة والرهبان.. أرجع هذا الاختلاط من جديد تراثي الديني السابق وأثار في وجداني كل مشاعر الطفولة.. وعلى الفور استعدت قدراتي على قول التراتيل وقراءة الإنجيل.. وعلى هذا أصابت الدهشة كل من حولي.. لأنني كنت في أذهانهم أمثل الرجل العلماني الشيوعي.. وخلاصة القول أن هذه الحبسة قد أشعلت في وجداني مرة أخرى التراث الديني المسيحي، وربطتني من جديد برجال الدين.. لأنني كنت بالنسبة لهم المدافع عنهم وعن حقوقهم الدينية والفكرية داخل القضبان وأمام مأمور السجن.

*** وإذا ما عدنا إلى الحديث عن فترة وجودك بحزب العمال البريطاني ماذا تقول عنها بالتفصيل؟**

- أنا قعدت في حزب العمال البريطاني أعوام ٤٨ و٤٩ و١٩٥٠ وانتخبت انتخابا حرا سكرتيرا للجنة الطلبة الاشتراكيين في الجامعة.. ثم انتخبت ممثلا عن هؤلاء الطلبة في المؤتمر القومي الذي عقد آنذاك في مدينة مانستر وكانت لدي حتى فترة وجيزة مكاتبات ورسائل بيني كممثل لهذه الجماعة وبين مستر بيفين وزير الخارجية البريطاني.. وكذلك مستر بيفان وزير الصحة البريطاني.

ولكنني للأسف أحرقت هذه الأوراق كلها خوفاً من الاعتقالات في وقت عبد الناصر وخشيت أن أتهم بالعمالة.. ولكنها كانت في رأيي أوراقا تاريخية مهمة بالنسبة لي وبالنسبة لمصر.

*** نتوقف عند نقطة مهمة.. وليسمح لنا الدكتور ميلاد حنا إثارتها.. وهي تتعلق بالشخصيات التي تعرفت عليها داخل السجن وخارجه.. ومدى تأثرك كمفكر سياسي بهؤلاء؟**

- كان من الطبيعي داخل السجن.. وداخل هذه الجدران السوداء أن يسقط الزمن، ونفقد إحساسنا به.. فلا جرائد.. ولا معلومات.. وأصبحت الأيام كلها متشابهة، فلا معنى لأسمائها أو تواريخها.. ورحنا جميعا ننشغل بحياتنا داخل السجن ونتصيد

الأخبار بين الحين والحين..

وفى أيامنا الأولى لم نكن يعرف بعضنا البعض.. فالاتصال ممنوع والاختلاط مستحيل والغموض يسيطر على المكان.. حتى جاء صباح أحد الأيام وسمعنا صوتا يصيح أنا اسمى سمير تادروس.. صحفى فى أخبار اليوم ولابد أن يعرف بعضنا البعض، لأن أيام الاعتقال قد تمتد سنوات.. وكانت أبواب الزنازين من الحديد المصمت من الصاج، وبالجزء العلوى منها فتحة صغيرة لا يتعدى مقاسها ١٠ فى ١٠ أسميناها «الطاقة».. فهى مصدر النور الوحيد أثناء النهار.. وعن طريق هذه الطاقة عرف بعضنا البعض.. وعرفنا أن السجن به ٢٨ زنزانة وساكنوها هم الأساقفة والقساوسة والأفراد العاديين.

وقد حاول القمص بولس باسيلى عضو مجلس الشعب عن دائرة شبرا فى أيام الرئيس السادات أن يخفف عنا.. وكان رجلا بليغا فأطلق على الزنزانة اسم «القلاية» وبذلك عرفنا أسماء الموجودين بالقلايات وعددهم، حيث كانت الزنزانة عندما استقرت الأمور تضم اثنين وبذلك يصبح عدد المسجونين فى سجن التجربة ٥٦ رجلا.. وقد لاحظت آنذاك أن إدارة السجن قد استبقت جميع الأساقفة والكهنة في سجن المرج.. وفى يوم من أيام سبتمبر.. انضم إلينا زميل جديد وهو أسقف بورسعيد.. إنه الأنبا تادرس.. الذى كان فى مؤتمر خارج مصر أثناء حملة الاعتقالات، وما أن علم بها حتى رفض الإقامة بالخارج وآثر العودة وبالفعل اقتادوا الرجل من المطار إلى السجن.

وفى وسط هذا الظلام.. كان السؤال الذى ظل يطاردنى طوال الأيام الأولى من الاعتقال: ترى ما هى التهم الموجهة لنا؟ وهل هذا تحفظ أم سجن؟ وما علاقة ذلك بالتكييف القانونى.. وعلى ما أذكر كان فى الزنزانة المقابلة لى.. كان يقيم محام من سوهاج اسمه الأستاذ وصفى وكان يصر دائما على ترديد حقيقة أنه كان عضوا بارزا فى الحزب الوطنى.. وكان الرجل فى حالة من الذهول فهو أكثر الأعضاء داخل الحزب تأييدا للسادات فى كل تصرفاته، ويظل يضرب كفا بكف على هذه المفارقة الغريبة والموجعة.. ودعنى أحكى لك ذكريات يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٨١.. ففى هذا اليوم دخل علينا الصول خليفة بملابسه المدنية إلى عنبر سجن التجربة.. وقال لدينا إشارة من وزارة الداخلية بأن الأنبا صموئيل سوف يأتى إلى السجن للاجتماع بنا..

وكان السادات قد عينه رئيسا للجنة الخماسية البابوية التى انتقلت إليها سلطات البابا عقب قرار عزله.. ثم أضاف بأنه لم يعرف بعد ما إذا كان مجيؤهُ قبل أو بعد انتهاء العرض العسكرى بمدينة نصر.

ثم عاد الصول ليعلن أن الزيارة تحدد لها موعدا فى الثالثة ظهرا بعد العرض العسكرى.. وجاءت الثالثة ولم يأت الأنبا صموئيل.. وفى الرابعة عاد الصول خليفة يحمل نبأ تأجيل الزيارة لصعوبة المرور عقب احتفالات أكتوبر.. ولم يكن أحد منا يعلم أن الزيارة قد تأجلت إلى الأبد.. وطبعا السبب معروف.. وفى مساء نفس اليوم جاءنا النقيب مجدى طبيب السجن وأخبرنا أن هناك تعليمات بفتح أبواب الزنازين للجلوس والتسامر.. وبالفعل كانت سهرة ممتعة.. وظل النقيب محتفظا بهدوئه وقوة أعصابه ولم يقل لنا أن مصرنا الغالية كانت تعيش أحداثا رهيبة فى تلك الليلة.

وليلتها لم أنم.. فقد كنت على موعد زيارة أسرتى فى الصباح وجاء صباح اليوم السابع من أكتوبر.. وفجأة انفتح باب الزنزانة ودخل مأمور السجن كى يبلغنى بإلغاء الزيارة والسبب إعلان الأحكام العرفية.. وعندما سألته هل السادات مات؟ صمت.. ولم يرد.. وبعد دقائق صدرت الأوامر بفتح أبواب الزنازين على أن يقف كل منا أمام باب زنزانته بلا حركة.. وفوق كرسى فى منتصف العنبر وقف مأمور السجن.. كى يعلن أن السادات قد مات.. وأن الأحكام العرفية قد أعلنت.. لقد لفنا الذهول جميعا فى تلك اللحظة.. ونحن مسمرون فى أماكننا.. ولم ننتبه إلاَّ على صوت الحرس بإدخالنا الزنازين مرة ثانية وممنوع الكلام.. لحظتها أحسست أن نسائم الحرية تقترب، وأننى سأعيش وسوف أعود إلى منزلى.. ولم تعد ثمة مسافة كبيرة بينى وبين يوم الإفراج عنى.

وبعد أن هدأت الأمور.. ودخلنا إلى الزنازين علمنا بوفاة الأنبا صموئيل فى حادث المنصة.. وفى يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر فوجئنا بالأوامر أن نستعد للرحيل.. البسطاء منا قالوا إنه الإفراج.. والآخرون قالوا سوف ننتقل إلى القلعة أو إلى طرة للمحافظة على حياتنا.. وفى انضباط صارم وخطوات محسوبة خرجنا من سجن المرج إلى سجن وادى النطرون.. وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف الفرق بين السجن والليمان.. وهناك كان المكان أرحب والهواء أنقى والسماء صافية.. وشاهدنا المساجين بملابسهم الزرقاء وأدركنا أن فى مصر إذاعة تسمع حتى فى السجون.. فكل مسجون لديه راديو صغير..

كما شاهدنا كذلك داخل سجن وادى النطرون التليفزيون.

وكانت إقامتنا فى هذا السجن فى غرفـة واحدة واسعة ولكنها كانت مهجورة من قبل تملؤها الفيران والصراصير وبداخلها دورة مياه قذرة وحقيرة.. ورغم ذلك فقد سعدنا بها أكثر من سجن المرج.. وكـان عددنا داخلهـا ٥٦ مسجونـا..وقد جاءتنـا مـأكولات وكتب من الأديرة المحيطة بنا.. وشعرنا بقرب الإفراج للمرة الثانية.

***

هـؤلاء هم الأسـاقفـة الـذين تعـرفت على بعضهم داخل سجـن المرج.. وهنـاك شخصيات أخرى كـانت لى علاقة قويـة بها داخل السجن أيضا.. ولكن ليس فى سجن المرج.. ولا سجن وادى النطـرون.. ولكن فى سجن ليمان طـرة كـان لقـائى بـالقـادة والزعماء والسياسيين.. ولانتقالى إلى هـذا السجن قصة أخرى تستحق أن أرويها لك.. ففى يوم الأربعاء على مـا أذكر الموافق ٤ نوفمبر عام ١٩٨١.. وفى لهجـة حازمة.. طلب منى أحد الضباط أن أجمع أمتعتى وأشيائى.. فـد تقرر نقلى إلى ليمان طرة.. حيث يقيم السياسيون فى مبنى «الملحق» وهو أحد العنابر الموجودة بسجن طرة.. وكانت الدولة فى عهد عبد النـاصر قد أنشأته خصيصا لهذا الغرض.. وقـد تتعجب حين أقول لك إن هذا كـان أول مطلب لى منذ اعتقـالى مع الآباء والأسـاقفة فى سجن المرج.. وكثيرا مـا أردت التعبير عن هـذا المطلب بالاحتجـاج على تقسيم المعتقلين إلى مسلمين وأقباط ومـا يعنيه هذا التقسيـم من وجهة نظرى مـن أنه تقسيم لمصر كلها.. وليـس للمعتقلين.. ولما كان الإضراب فى السجون لـه قواعـد وأصول فقـد جاءت محـاولتـى غير مدروسـة وباءت بالفشل الذريع.. الأمر الذى جعلنـى ألجأ إلى محـاولة الانتحار.. حتى أنبه المسئولين فى السجـون إلى رغبتى هـذه.. والحقيقـة أن محاولتى لم تنجح فى الانتقـال إلى سجن السياسيين والزعماء إلا بعد اغتيال السادات حين وافقت وزارة الداخلية بإتمام نقلى إلى ليمان طره مع باقى السياسيين.

وتضم منطقة طرة ثلاثة سجون كبيرة بها حوالى ٦٠٪ من السعة الفندقية للنزلاء.. الأول ليمان طرة ويطل على الكورنيش.. أما السجن الثانى وهو مـزرعة طرة ويقع فى الخلف شرقا مـواجها سلسلة الجبل فى امتداد المقطم ويبدو وكأنه مخصص لإقـامة المساجين الأقل عنفا والمحكوم عليهم فى جرائم مخففة.

أما السجن الثالث فهو مبني جديد تماما وليس بسجن الاستقبال حيث يتم بالفعل استقبال المساجين.. وما إن دخلت سجن الملحق هذا حيث يقيم السياسيون حتى شعرت أنني في سجن «خمس نجوم» فهو سجن له سور خاص ومعزول تماما.. وفيه يقيم بعض من حوكموا في أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١ مثل علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف.. أما أبرز الأسماء التي ارتبطت بها بهذا السجن من رموز العهد الناصري هما محمد فايق وفريد عبد الكريم فقد عاشا في هذا السجن عشرة أعوام.

كذلك من الشخصيات السياسية المصرية التي التقيت بها داخل نفس السجن.. الأخ العزيز فؤاد سراج الدين الذي احتضنني بقوة وشعرت نحوه بمودة وإعزاز وبلقائي به نسيت أنني في السجن.. فعلى الرغم من أن الرجل تعود حياة القصور ومارس السلطة في شبابه وزيرا في أهم وزارات مصر ـ المالية والداخلية ـ إلا أنه كان صلبا في مواجهة السجن.. أيضا من الشخصيات الأخرى التي كانت لي علاقة قوية بهم.. الكهل العنيد عبد الفتاح حسن باشا الذي راح يقاوم بشدة كافة أشكال الظلم.. ولعل اللقاء الحار الذي جمعني بزميلي العزيز المرحوم عبد العظيم أبو العطا.. كان أكثر هذه اللقاءات تأثيرا لما تربطني به من علاقة خاصة.. لقد عرفت عبد العظيم أبو العطا في عام ١٩٤٦ أثناء عملي في كلية الهندسة.. وفي أحداث الحركة الوطنية إبان فترة مقاومة اتفاقية صدقي ـ بيفن عام ١٩٤٩ تصادقنا واستمرت صداقتنا حتى فارق الحياة.

وفي الملحق العظيم داخل نفس السجن التقيت بالصديق القديم محمود القاضي وبالدكتور اسماعيل صبري عبد الله والدكتور فؤاد مرسي.. كذلك الرجل الشجاع الدكتور محمد أحمد خلف الله بشعر رأسه الأبيض الفضي.. ونقطة أخرى مهمة اذكرها لك في سياق هذه الذكريات أنه قد جاءت إقامتي في الزنزانة رقم «١١» بالدور الأرضي مع الزعيم فتحي رضوان.. وكان ثالثنا أحمد فرغلي الصحفي وعضو مجلس نقابة الصحفيين وعضو مجلس الشعب عن حزب العمل الاشتراكي.

وثمة اعتراف يجب أن أبوح لك به.. فقد كانت أشهى الأطعمة وافخرها تلك التي تعدها السيدة هدايت حرم الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.. فقد كان الرجل يصر دوما على أن أتناول غذائي معه كل يوم.. وكانت غرفة الأستاذ هيكل في الطابق الأعلى باعتبار أنه من أوائل المعتقلين الذين قدموا إلى سجن ملحق طرة.. وحيث اتفق الجميع

على ترك الدور الأرضى للشيوخ والكهول الذين لا يتحملون صعود السلالم.. وغير هؤلاء وهؤلاء.. عرفت المحامى عبد العزيز محمد وعبد العظيم المغربى الذى كان مسئولا عن الإذاعة المحلية داخل السجن.

*** فى ضوء عقوبة السجن المرفوضة.. كيف ترون الطريقة المثلى لمعالجة الرأى الآخر أو الرأى المعارض؟**

ـ طبعا قصة السجن مع أى مفكر سياسى تختلف باختلاف الظروف والأوقات وهى بالتالى جزء من تاريخ مصر.. وبالنسبة لى كنت حالة خاصة.. حيث اعتقلت فى ظروف غير عادية.. بمعنى أنه وكما سبق أن ذكرت لك.. أنه حين اعتقالى حدثت تفرقة غريبة بين المسلمين والأقباط فى سجن المرج.. ومن بعده انتقلت إلى سجن وادى النطرون ثم إلى سجن ليمان طره.. وفى هذه الحقبة.. كنا فيما يسمى بسجن التجربة.. وهو نوع من أعتى أنواع السجون وفيه يجربون المساجين الجدد داخل السجون كى يكتشفوا ويجربوا مدى تحملهم لهذه العقوبة.

ثم جانبا آخر هو السجن الذى يضعون فيه المحالين للأشغال الشاقة إلى الإعدام.. وقد قضيت فيه من ٢ سبتمبر عام ١٩٨١ حتى ١٥ أو ٢٠ أكتوبر من نفس العام.. ونعود للإجابة على سؤالك.. بالقول إنه سيأتى وقت ليس ببعيد عندما سيضحك الناس ويتندرون علينا لأننا نضع أصحاب الرأى المعارض داخل السجون لمجرد أنهم يعارضون بآرائهم وأفكارهم فقط. وهذه قضية مبدئية وخطيرة.. ونحن الآن ندهش بنفس القدر حين علمنا أن بعض أجدادنا فى البشرية كانوا يضعون المعارضين لهم فى أقفاص معلقة مع الأسود كوجبة شهية عقابا لهم على آرائهم المعارضة.. أو وضعهم فى زيت مغلى أو وضعهم على خازوق.

إذن هى سمة من سمات تطور البشرية.. وفى كل فترة زمنية تختلف الوسائل.. ولكننا نلاحظ أنه كلما تقدم وتحضر الإنسان كلما قبل الخلاف فى الرأى ورحب بالمعارضة.. ولكنى أزعم أنه أمامنا شوط طويل على هذا الدرب فى مصر.. والسبب يرجع إلى أننا مررنا على عصور قهر شديدة ومتنوعة ووجود مثل هذه الفترات بدءا من أحداث التعذيب داخل السجن الحربى وخلافه.. ليست ببعيدة ولا خافية علينا.. أيضا ما يعانيه الآن بعض فئات المعارضة الأخرى رغم اختلافى معهم.. إلا أننى لا أقر عقوبة السجن أو التعذيب ما دامت التهمة هى الرأى والفكر.. ولابد لنا أن نفرق هنا بين

موضوعين أساسيين الأول: محاولة قلب نظام الحكم بالقوة ومن هنا لابد على النظام سواء مصرى أو غيره أن يدافع بالقوة عن مثل هذه المحاولات.. لأننا فى هذه الحالة أمام نوع من المعارضة التى تستخدم العنف والسلاح والتآمر.. أما أن يحبس الإنسان لأن لديه عقيدة أو فكرا.. فإن ذلك فى منتهى الخطورة وهذا هو الموضوع الثانى المتعلق بأصحاب الرأى الحر المستنير حتى ولو كان يتعارض مع رأى النظام.

وفى يقينى أن الزج بأصحاب الرأى والمفكرين داخل السجن لمجرد أنهم يعارضون يولد داخل أنفسهم العنف والحقد على النظام نفسه.. وبالتالى نجد أن النظام فى هذه الحالة.. يخسر ولا يكسب، وخسارته تكون كبيرة وعلى المدى البعيد.. وخذ مثالا واحدا على ذلك.. عبد الناصر حينما اعتقل كل الإخوان المسلمين وأدخلهم السجن.. هذه العقوبة أفرزت بداخلهم العنف الذى تمثل فى ظهور جماعات دينية متطرفة مثل الجهاد وآخرين.. ولعلها دعوة أوجهها.. دعنا نتحاور ونختلف ما دمنا لا نستخدم السلاح.. لأن المحاورة تولد الأفكار الجديدة.. والعبرة فى الاختيار للفكرة الأنسب والأصلح للمجتمع من منطلق أننا مقبلون على عصر قبول الاختلاف فى الرأى وأنه لا يحتكر أحد الحكمة وحده.. وأنه لا غلبة لأصحاب الرأى بالقهر.

*** وهل ترون أنه من الضرورى أن يكون هناك سجون خاصة للمفكرين وأصحاب الرأى.. أو أن يزج بهم وسط المجرمين والقتلة؟**

ـ شوف.. لقد كانت هذه قضيتى وأنا عضو مجلس الشعب.. وتجربة السجن التى عايشتها كانت ومازالت ماثلة أمامى.. وقد آليت على نفسى طوال وجودى داخل المجلس آنذاك أن أحقق هذه الرغبة فطالبت أولا بفصل السجون عن وزارة الداخلية ونقل تبعيتها إلى وزارة العدل، لأنها جزء من تطبيق العقوبة.. هذا بالنسبة لجميع الجرائم فلا ينبغى أن يكون السجن برئاسة ضابط يقهر النفس الإنسانية وإنما ينبغى أن يكون قائد السجن أستاذا جامعيا أو دارسا لعلوم النفس وعلوم الجريمة حتى يتحول السجن من مجرد أداة للعقوبة فقط إلى أداة للعقوبة والإصلاح فى آن واحد.. ولا مانع من قرار العقاب كجزء من العودة إلى الذات.. ولا بأس من العزل.. حتى يفكر الإنسان فى مصيره وفى أسباب وجوده هنا.. ولكى يصحح مساره.. هذا جزء أساسى من العقوبة.. و طالبت به كحق للمسجون العادى.. أما المسجون السياسى ورجل الفكر الذى ترى الحكومة أيا كان نوعها أن فى وجوده خطرا عليها لأنه صاحب فكر معارض..

وتود أن تعزلـه فلابد أن يوضع ف مكـان أمين وآدمى، ويعامل معاملة إنسـانية جيدة كأن يتم عزلـه ف أحد القصور الملكيـة مثلا ويكرم.. ولا يتم تعـذيبه أو إهانتـه.. ولقد عاهدت نفسى ومنذ خروجى من السجن أن أناضـل وأكافح من أجل حياة أفضل لكافة المسجونين.. وعلى رأسهم المسجون صاحب الرأى وصاحب الفكر.

*** نريد أن نعرف كم كتابا.. ألفه الدكتور ميلاد حنا داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟**

ـ ف الحقيقـة أنا خرجت من السجن ف انفعـال شديد.. ولم يكن لـدينا أى وقت على الإطلاق لتأليف كتب.. وانغمست ف حيـاتى السياسية داخل حـزب التجمع.. وبسرعة شديـدة جاء عام ١٩٨٤ واختارنى الرئيس مبارك عضـوا بـالبرلمان.. ثم تم اختيارى رئيسا للجنـة الإسكان.. ومن ثم انخرطت ف حيـاتى السياسية بالكـامل.. ولم أفكر ف تسجيل هذه التجـربة ف كتاب إلا ف عـام ١٩٨٧.. عندمـا حل البرلمان.. وهجرت العمل السياسى لشهور عديدة.. أى بعد خمس سنوات بالضبط.

وعلى عجل استطعت أن أعيـد الذاكـرة من جديـد.. وأحـاول تسجيل ما شـاهدتـه وشعرت به من خـلال هذه التجربة.. عنـدئذ خرج كتاب «ذكريـات سبتمبرية».. وكان أول الكتب التى سجلت فيها هذه الفترة وهذه التجـربة.. بخلاف ذلك عكفت على تأليف كتب أخرى ف مجال الإسكان.. ثم كتـاب آخر متأثرا بتجربة السجن وأصـالة الإنسان المصرى.. وخرج بعنـوان «الأعمدة السبعة للشـخصيـة المصرية».. وهـذا بخلاف كتبى العلمية المتعلقة بتخصـصى ف فرع الهندسـة.. وأقولها لك كما كتبتها ف ظهر غلاف أحد كتبى لقد دخلت السجن أستاذا جامعيا.. وخرجت منه ممارسا سياسيا ومفكرا.

وف ختام حـديثى أقول: إنه عنـدنا ف مصر الإنسـان لا يكون سياسيـا أو مفكرا أو زعيما إلا إذا دخل السجن.. فهو البوتقة ذات الحرارة العاليـة المكثفة التى تولد وتفجر طاقات ف النفس الإنسانية التى يصعب اكتشافها بدون تجربة السـجن.

الحكاية الخامسة يرويها: لطفى الخولى:

اعتقلت ١٢ مرة.. خمس فى عهد الملكية.. والباقى فى عهد الثـــورة

يبدو أننا سوف نقضى معظم الوقت داخل هذه الأوراق البيضاء عند حدود كلمات الحوار الذى أجريته مع الكاتب الصحفى والمفكر والأديب الأستاذ لطفى الخولى.. وذلك لأنه لم يفعل كما فعل أغلب المفكرين الذين التقيت بهم.. من حيث إسراعهم فى تسجيل تجربة السجن فى حياتهم فى كتاب..

والشيء الجديد الذى اتبعه الأستاذ لطفى الخولى على هذا الدرب أنه عندما خرج من المعتقل آخر مرة حرص على تجميع تجربته هذه التى سجلها فى قصص قصيرة وأصدرها فى مجموعة كبيرة صدرت فى عام ١٩٨٧.. بمعنى أنه قد لجأ إلى الأسلوب الروائى فى نقل تأثير تجربة السجن والاعتقال على حياته الفكرية والسياسية.. وأسفر هذا الأسلوب عن كتابة مجموعتين قصصيتين هما «رجال وحديد» وقد كتبها لطفى الخولى فى سجن بنى سويف عام ١٩٥٣.. ثم مجموعة «ياقوت مطحون» التى كتبها ما بين سجن القلعة ومعتقل الفيوم والقصر العينى على امتداد أعوام ١٩٥٩ و١٩٦٠.. وقد نشرت هاتان المجموعتان منفصلتين أعوام ١٩٥٣ و١٩٦٤ على التوالى..

وقد يبدو هذا المدخل للحديث عن الكاتب والمفكر لطفى الخولى غريبا للبعض منا.. وربما يرجع سبب الغرابة إلى أننا جميعا نعرف الأستاذ لطفى الخولى ككاتب سياسى فى المقام الأول.. وصاحب رأى وفكر فى هذا الميدان.. فله عدة دراسات سياسية تبلغ تسعة كتب كبيرة.. بجانب مقالاته السياسية المعروفة على هذا الدرب.. ولكن ما كتبته منذ لحظات لا يبدو لى غريبا على الإطلاق خصوصا وأننى اكتشفت أن لطفى الخولى يتسم بصفة الأديب أكثر من صفة الكاتب والمفكر السياسى.. وليس هذا الاكتشاف من اختراعى.. بل عرفته من السيرة الذاتية للمفكر لطفى الخولى.. ومن التعرف على بدايات

كتاباته في هذا المجال.. وعلى حد قوله لي أثناء الحوار.. إن كل كتاباته الأدبية قد أفرزتها تجربة السجن والاعتقال.. فبجانب المجموعتين السابقتين هناك ثلاث مسرحيات هم: «قهوة الملوك» و«القضية» و«الأرانب»..

وهذه المسرحيات الثلاث شاهدها جمهور القاهرة في منتصف الستينات من هذا القرن.. بجانب ذلك فهو أيضا كاتب سيناريو مبدع.. كتب أكثر من عشرة سيناريوهات لأفلام روائية طويلة نذكر منها على سبيل المثال «ثمن الحرية» إخراج نور الدمرداش.. «القاهرة ٣٠» إخراج صلاح أبو سيف و «العصفور» من إخراج يوسف شاهين..

ورغم أن الأستاذ لطفي الخولي قد ابتعد قليلا عن ميدان الأدب الذي أبدع فيه.. وكانت بدايته الحقيقية على أرضه.. حيث انشغل طويلا بهموم الفكر السياسي.. إلا أنه كان يعود من حين لآخر إلى ميدان الأدب والفن، فقد حرص على رئاسة وإدارة الدراسات التي نظمتها مؤسسة السينما الفرنسية بباريس عام ١٩٧٢.. ونفس الشيء حدث لحلقات الدراسة عن السينما والعالم الثالث التي نظمها مهرجان قرطاج عام ١٩٧٤..

***

لهذا كله.. لم أجد أي غرابة في حديثي عن الأديب لطفي الخولي كمدخل لحديث المفكر وتجربة السجن.. ورغم أنني لم أعثر على أية ورقة سجل فيها لطفي الخولي تجربة السجن كذكريات مباشرة إلا أنني حاولت العثور على هذه الكلمات من خلال الخوض وراء سطور عباراته التي سجل بها انطباعاته عن تجربة السجن في مجموعته القصصية التي صدرت منذ عدة أعوام.. وقد سطر بعض هذه الانطباعات في المقدمة التي حرص على كتابتها مشيرا إلى هذه التجربة والتي قال فيها: في تجربتي قصة من فصلين: فصل أسميه «ما قبل السجن».. كانت نيران الحرب الثانية على وشك أن تتحول من ساخنة ملتهبة إلى باردة عاصفة في منتصف الأربعينات، عندما رحت أدرس القانون، وأحضر نفسي للمحاماة.. يؤرقني مع شباب جيلي المتفجر هموم وطن محتل مطحون يسعى للخلاص بطرق شتى صاخبة.. ولأن المحامي أو المناضل السياسي سلاحه الكلمة وفن الخطابة.. أو هكذا تفتحت الرؤيا في أعماقي.. لجأت إلى الأدب والفن قراءة ومشاهدة.. وإذا بي أدخل عالما جديداً، الواقع فيها غير محسوس، بيد أنه أكثر

حيوية من الواقع المحسوس خارج الذات..

والفصل الثاني تحركت أحداثه بين فراغات الحرية وسط قيود السجن حيث تقزم القانون الذى حسبته يوما سيدا عملاقا، لا يرقى إليه إنسي ولا جني.. انسخط أمام عيني عبدا ذليلا يطيع بلا تردد أدنى إشارة من أصبع الشاويش. انحشر في الزنازين أكوام من البشر، تدل عليهم أرقام معدنية.. جاءوا من سراديب العالم السفلي.. سرق قانون المجتمع حقهم في الحياة.. وكنت حينما كان يغرق السجن في لجة الصمت بعد غروب كل شمس.. كنت أقبع في زنزانتي المنفردة، أجلس مع خبزي الجاف في الظلمة.. وحيدا إلى نفسي كأنها ذلك الآخر الذى عاد فجأة بعد غربة التشرد في الزمن العتيق الذى لا عمر له.. في هذا الجرح السجين، تفتتت أولى كلماته الادبية.. كانت قصة قصيرة بعنوان «وصرت رجلا».. نشرتها فيما بعد في صحيفة في الخمسينات كتبتها آنذاك بقلم «كوبيا» في حجم عقلة الصباع على ورق «البفرة» الرقيق الذى كان يستخدم في لف السجاير..

***

ولسوف نجد أرضية مشتركة من الفهم إذا ما تعمقنا في كلمات الأستاذ لطفي الخولي.. وتعبيراته.. ولعلها تنقلنا بصدق إلى واقع الألم والظلم الذى لاقاه المفكر لطفي الخولي من جراء هذه التجربة.. وكانت التهمة هى القلم والكتابة وحرية الرأى.. ولسوف نلمس ذلك أكثر حين نتتبع بشكل واع كلمات هذا الحوار.. التى لم تخرج عن صلب موضوعنا الذى اخترناه عبر هذه الصفحات.. وهو تأثير تجربة السجن أو الاعتقال على الفكر المصرى بشكل عام والمفكر بشكل خاص..

وضيفنا هو الكاتب الاستاذ لطفي الخولي.. مع وعد غير مؤكد من جانبنا يتمثل في محاولة الاستعانة ببعض الجمل والعبارات التى صور من خلالها الأستاذ لطفي واقع هذه التجربة مستخدماً أسلوبه الأدبي في قصصه القصيرة التى نشرها.. ونوهنا عنها منذ لحظات.. كما سنحاول أيضا أن نقف خلف الأسئلة.. وربما لا نقولها صراحة.. حتى نفسح المجال أكثر لنص الحوار ويحاول القارىء من جانبه أن يقف على نصوص هذه الأسئلة من واقع تتبع كلمات الضيف.

وقبل أن ندير الشريط لابد أن نذكر أن هذا الحوار قد سجلناه فى حلقتين.. وفى يومين متتاليين بناء على حماس الأستاذ لطفي الخولى ورغبته فى أن يقول لنا كل تفاصيل هذه التجربة..

***

يقول الأستاذ لطفى الخولى: لو حسبنا مجموع السنوات التى سجنت خلالها تقدر تقول «دستة».. يعنى ١٢ مرة.. بخلاف «الفكة».. وإذا حاولنا تفصيل ذكر هذه المرات أقول لك.. لقد اعتقلت خمس مرات فى العهد الملكى.. المرة الأولى منذ تفتح الوعى السياسى بداخلى وانشغالى بهموم مصر آنذاك وبهموم الوطن فى إطار الحركة الوطنية ابتداء من عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٣.. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان عمري فى ذلك الوقت أربعة عشر عاما..

وتراها بداية مبكرة.. والسبب أننى قد تربيت فى بيت سياسى.. فقد شاهدت فيه مناظرات ومناقشات سياسية من مختلف الاتجاهات والأحزاب من ناحية والدى الذى كان انتماؤه للحزب الوطنى.. وخالى الذى كان من الوفد وعمى البهى الخولى أحد رجال مصر التسعة الذين أسسوا حركة الإخوان المسلمين. فى ذلك الوقت المبكر من عمرى كان منزلنا يضج بالمناقشات السياسية.. كما ترى على اختلاف ألوانها واتجاهاتها..

أضف إلى ذلك وجود تيار تاريخى آخر متمثل فى حكايات والدى عن تاريخ مصر الوطنى وأبطال هذا التاريخ وعلاقاته مع زعماء الحزب الوطنى ودورهم السياسى آنذاك.. وكذلك كان هناك كثير من الكتب والصحف التى كانت تعبر عن مختلف هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية.. أضف إلى ذلك انتعاش الحياة العامة مثل المظاهرات التى كانت تطالب بالانسحاب والحريات العامة التى كانت متوفرة آنذاك والتى فى ظلها كنا وراء آبائنا نطالب بمحاربة أغنياء الحرب وهم الفئة القليلة التى أفرزتها الحرب العالمية الثانية..

كل هذه المؤثرات قد شكلتنى فى بداية حياتى السياسية.. وجعلتنى أعيش هذا الواقع وأنا مازلت صبيا.. وأذكر أن أول مرة اعتقلونى قد سبقها موقف من جانب والدى.. حيث شاهدنى أشارك فى مظاهرة من تلك المظاهرات التى كانت تطوف شوارع القاهرة.. والتى نجحت خلالها فى الإفلات من رجال البوليس.. بينما قبضوا على غيرى..

هذه المرة حين عدت إلى منزلنا فوجئت بوالدى الرجل الوطني المخلص الذى قدم لمصر الشيء الكثير.. يعنفني على اشتراكي فى هذه الأعمال.. وهنا كانت علاقتي بالوالد علاقة متميزة.

فرغم هذه الوطنية.. وهذه الأعمال الجليلة إلا أنه كان ينظر إلىّ كابن يريد أن يبعد به عن هذا التيار.. فقد كانت تغلب عليه مشاعر الأبوة للدرجة التى هددنى فيها بأنهم لو أمسكونى فسوف يتخلى عنى ولن يسعى لإخراجي من السجن.. والشيء الغريب أننى أعرف نبرات صوت الوالد.. وأفهم منها ميوله وحالته النفسية.. ومايريد أن يقوله صادقا أو غير صادق.. وفى هذا الموقف بالذات فهمت أن والدي لا يعنفني من أجل أن ابتعد عن الاحساس الوطني والمشاركة فى أحداث بلادي.. ولكن كان هدفه وكما سبق أن قلت كان يخاف علينا جدا.. لقد أحسست بالفعل أن هذا التهديد قد خرج من وراء قلبه وعقله..

وفى المرة الثانية.. رغم هذا التحذير اشتركت فى المظاهرات وقبضوا على وسجنت.. وأذكر أن أول علاقة لى بعالم السجون والاعتقالات كان حجز قسم السيدة زينب.. وكان ذلك عام ١٩٤٣ أو أوائل عام ١٩٤٤.. وفى هذه التخشيبة التقيت لأول مرة مع قادة الحركة الفكرية والوطنية المصرية فكان معى الإخوان المسلمون.. والشيوعيون والوفديون والاحرار الدستوريون.. وفى هذه التخشيبة رايت أيضا والدى يأتينى مسرعا.. بالطعام والشراب بخلاف ما كان منه سابقا..

واسمح لى أن أعود بك إلي الوراء قليلا حتى أقول بعض المعلومات عن أسرتى وأصلها.. إننى رغم ولادتي بالقاهرة إلا أن جذور أسرتنا من القرشية بمحافظة الغربية.. وهى قرية لعبت دوراً كبيرا فى تاريخ مصر.. وفى منتهى الأهمية.. ففى هذه القرية اختفى عبدالله النديم ثماني سنوات.. وتستر عليه أهل القرية ورفضوا تسليمه للسلطات آنذاك رغم المكافأة السخية التى أعلنوا عنها.. وقد قضى عبدالله النديم هذه السنوات الطوال داخل القرية معلما للأهالى على لمبة جاز.. وقد أثرت هذه الواقعة فى نفسى .. تأثيرا كبيرا.. امتدت إلي سنوات طويلة.. فقد اتخذت مع آخرين شعار «الحصيرة ولمبة الجاز» من أجل ثقافة وطنية.. وطبقناه عمليا بإنشاء دار نشر لتحقيق

هذا الهدف.. بجانب ذلك تمتاز قرية القرشية بإنجاب شعراء رومانسيين على مستوى عال أمثال الشاعر أحمد الكاشف وكان من أكبر المعاصرين لأمير الشعراء أحمد شوقى..

***

المهم.. فى هذا الإطار بدأت أتعرف على التيارات السياسية الموجودة آنذاك.. وتأثرت أولا بتيار الوفد الذى امتاز فى هذه الفترة بدفاعه عن كل المساجين والمفكرين السياسيين من كل التيارات الأخرى بدون تفرقة.. فكان يوكل المحامين بما فى ذلك للإخوان وللشيوعيين وكل التيارات التى تخالف تعاليم حزب الوفد.. من منطلق ما كان يردده النحاس باشا آنذاك من أن الوفد ليس حزبا.. وإنما هو يمثل الأمة المصرية كلها.. ومع ذلك فقد كنت أرى حزب الوفد تتوقف طموحاته السياسية عند التحرر من الاستعمار ووطنية الحكم، ولم يصل بفكره آنذاك إلى الأفكار التى بدأت تجتاح الساحة السياسية والتى كان يمثلها الشيوعيون..

بجانب الأفكار التى طرقها آنذاك الإخوان المسلمون والتى كنت أراها تمثل تيار الأصالة والمعاصرة من حيث التمسك بالقديم.. والبحث عن كل ما هو جديد.. لكن مع ذلك كنت تشعر أنهم يقدمون مواعظ.. وليست رؤى للمستقبل.. وهذا فى حد ذاته كان خلافى مع عمى الذى كان من رجال الإخوان فى ذلك الوقت والذى كان له الفضل الكبير فى تربيتى الدينية.. ولعلك تستغرب حين أقول لك: إننى دخلت المعتقل لأول مرة متأثرا بأفكار الإخوان المسلمين.. صحيح أننى لم أكن عضوا معهم.. ولكننى كنت قريباً جدا من فكر هذه الجماعة بحكم تأثير عمى.. للدرجة التى كنت أذاكر فيها دروسى بمسجد السيدة زينب حتى لا يفوتنى أى درس من الدروس الدينية..

***

وتوالت عمليات الاعتقال.. بعد ذلك إلى أن أمسكوا بى فى حريق القاهرة عام ١٩٥٢ حيث أصبحت عضوا نشطا فى الحركة اليسارية المصرية آنذاك أو ما يمكن أن تسميه الحركة الشيوعية أو الماركسية.. وكنت قد اكتشفت عند إلقاء القبض على بسبب حريق القاهرة أنه ليس هناك حركة ماركسية واحدة.. بل عدة حركات مختلفة ومتنافرة فى هذا الإطار..

وفى هذه المرة.. ساقونا إلى معتقل روض الفرج ولا أستطيع أن أحدد لك بالضبط عدد الأيام التى قضيتها فى هذا المعتقل.. لكننى أستطيع أن أؤكد لك أن المرات الاثنتى عشرة التى دخلت فيها السجن يمكن أن تصل إلى حوالى ثلاث سنوات ونصف فقط.. فى حين أن لى زملاء قضوا فى سجن متصل ومرة واحدة أكثر من اثنتى عشرة سنة..

وأنا أعتبر نفسى فى هذا المجال سعيد الحظ.. ليس فقط من ناحية المدة.. ولكن من حيث تنوع عدد مرات السجن واختلاف أماكنها.. وكان لكل مرة ومكان تأثير خاص على مسار حياتى السياسية والفكرية.. وأنا أذكر أن آخر مرة دخلت فيها السجن.. كانت أيام جمال عبد الناصر.. حين زرعوا التسجيلات فى بيتى بعد مناقشة سياسية.. وبالتحديد فى عام ١٩٧٠ وقبيل وفاته.. حتى إننى كنت معتقلا بسجن القناطر حتى بعد وفاته وفى حبس انفرادى..

*** لو قلنا.. ما هو تأثير تجربة السجن طوال هذه المرات على فكر لطفى الخولى؟..**

– شوف.. أنا فى السجن أولا تعرفت أكثر وبعمق وبشكل مباشر على المجتمع المصرى.. كما لم أكن أعرفه من قبل.. لأنك داخل هذه الجدران الصماء تتعرف على أنماط بشرية غريبة ومتنوعة.. رغم أن ذلك لم يكن من جراء الاختلاط.. لأنه كان هناك عزل تام بين المسجونين السياسيين وبقية المسجونين بتهم وجرائم أخرى.. وهذا العزل كنت أراه بدرجات مختلفة وكان فى كثير من الأحيان عزلا شكليا.. ولكن المجتمع داخل السجن يكون نفسه رغم هذا العزل.. ويبدأ فى عقد ارتباطات وعلاقات بعضها جيد وبعضها غير جيد.. ولكن بشكل عام هذا المجتمع لديه القدرة على تسيير الحياة داخل السجن أكثر من إدارة السجن نفسها.. بالإضافة إلى أننى لم أجد مجتمعا أنظف من مجتمع السجن.. فى العلاقات الإنسانية فاللص يتخلى عن طبائعه داخل السجن.. فلا يسرق ولا يغش.. وإلا تعرض لعقوبة من زملاء السجن تكون أقسى مما يناله من عقوبات تفرضها عليه إدارة السجن.. وعلى سبيل المثال يمكن أن يحكموا عليه بالسجن داخل السجن.. فلا تعاون معه.. ولا علاقات.. إذن كأنما يحكم عليه بالموت.. أيضا هناك مشاكل أخرى تعرفنا عليها داخل السجن.. المساجين الفقراء.. وأصحاب التجارة الممنوعة.. والإتاوات.. كما اكتشفت أن أسوار السجن العالية قد فشلت فى منع هؤلاء المساجين من الاتصال.. بالخارج..

لـذلك تجد كل شيء مـوجـوداً داخل السجن وداخل هـذه الأسوار.. أمـا الحاجـة الثانية.. أنني اكتشفت داخل السجن أيضا أنهم يمنعون عنك الورق والقلم.. وأى شيء يقرأ فيما عدا الكتب المقدسة.. لكن مع ذلك كان هناك إمكانية لتهريب الصحف والورق والكتب والأقلام.. أما أصعب شيء واجهته داخل السجن هو الحبس الانفرادى.. الذى كان يعني.. أن تكـون فى زنزانـة وحدك لمدة ٢٣ ساعـة.. مع نفسك فقط.. وتخرج لمدة ساعـة واحدة فى اليوم لقضاء حـاجتك وللتريض.. وكانوا يسمونها «سـاعة شمس».. فأنت طوال هـذه الفترة الطويلة تجد نفسك أمام نفسك.. حينئـذ تحاول اكتشاف نقاط الضعف والقـوة فيها.. وقـد صورت هذا الإحسـاس ونقلته بأمـانة مـن خلال كلمات سطرتها فى أحد كتبي الأدبية.. حين قلت:

فى إحدى الليـالى الليلاء.. أحكمـوا حبس السجن فى القمقم عنـدما أعلنا اضرابا عن الطعـام.. فـلا ورق ولا كتب ولا صحف.. ولا حتي نسمـة هواء، تحمـل إلينا زقـزقـة العصفور اليتيم الذى بنى عشه بين الأغصان الجرداء لتلك الشجـرة البائسة المصلوبة عند البـوابة الكبيرة.. وحين كنت أتـوسل فى وحدتي، سماع صـوت، أى صوت.. حتى ولو كان طنين صمتي، داهمتني قوة روحية، لا عهد لى بها من قبل.. راحت تدب الحركة فى أوصـال وتـدفعني إلى نـزع علامـات الاستفهـام عن الجدران وزرعهـا فى النفس العاريـة.. وأعود وأؤكـد لك أن هذه هى إحـدى مميزات السجن، وإن شئت قـل إحدى ميزات المحن الكبرى.. وفى هذا المجتمع المغلق وأنت مع نفسك تبـدأ فى تحديد اختياراتك وتسأل نفسك هل ستبدأ الطريق من جديد.. أم ستظل على ما أنت عليه.. المهم أنك تعيد حساباتك من جديد وعلى ضوء هـذه الحسابات تعرف هل ستستمر أم لا.. وطبعا كان من أهم أهـداف البـوليس السيـاسي فى ذلك الـوقـت أن تتراجع عن أفكـارك وآرائك وميـولك.. وكان سبيلهم إلى ذلك مسـاعدة هـؤلاء على الخروج مبكرا.. وكـان شرطهم الـوحيد أن تقـدم تعهدا بعـدم الرجـوع مرة أخـرى إلى تلك الأفكار ولتلك الممارسـات السياسية التي يرونها تعارض أفكار النظام.. ويظل هذا التعهد موجودا بأيديهم سيفا مسلطا على رقـاب المفكر السياسي.. حتى لا يفكـر فى العودة إلى ما اعتنقه ومـا أقر على الابتعاد عنه سلفا..»

بجانب ذلك رأيت داخل السجن ألوانا متعددة من التعذيب النفسي والبدني.. لذلك يواجهك الاختيار رغم أنفك.. وتعود وتسأل نفسك هل ستستمر وتتحمل كل هذه المشاق.. أم تستسلم وتتخلى عن أفكارك وآرائك..

الحاجة الثانية أنك خلال تلك اللحظات ترى نقاط ضعفك وقوتك وتحاول استخدام هذه النقاط فى استكمال النقص الذى قد يعترى نفسك فى وقت ما.

والحاجة الثالثة.. أنك تتعلم من مجتمع السجن وترى قيما جديدة تظهر لدى بعض الناس فى لحظات معينة.. حينما يتخلون عن عالم الجريمة ويصبحون مجتمعا آخر يشعر كل منهم بأحاسيس الآخر.. إلى درجة انك تكتشف وجود أناس ربما تراهم فى عالم الحياة لأول مرة بهذه الشهامة وبهذه الرجولة..

ولعلى أقول لك.. إن أى انسان حينما يدخل السجن لأول مرة.. تتصور أن هذا الإنسان المكبل بهذه القيود الحديدية وأسلوب الحياة الخشن إلى درجة بدائية.. بجانب الضرب والركل وألوان امتهان كرامة الإنسان ثم التجويع فى بعض الأحيان.. عندئذ يعتقد أنه لن يستطيع أن يتحمل ساعة واحدة داخل هذه الجدران.. ثم تفاجأ بمرور الساعة وراء الأخرى ببطء شديد ويأتيك اليوم التالى.. وهكذا.. وبعد مرور عدة أيام تحاول أن تتأقلم داخل هذا المجتمع الجديد.. عندئذ تتفجر فى الإنسان طاقات عظيمة تظل مختفية لحين ظهورها فى وقت الأزمات والمحن، وأعظمها اللحظات داخل السجن، وتجعلك تتقبل هذه الحياة الخشنة والشاذة والبدائية.. ومن ثم تصير سيد هذا الموقف وتتغلب على هذه المشاكل وتتقبل العيش داخل جدران السجن..

وما أريد أن أصل إليه هو قدرة الإنسان على التكيف مع ظروف حياته الجديدة مهما كانت شاقة وعسيرة.. أيضا بخلاف ذلك تكتشف وأنت داخل السجن مناطق مجهولة داخل نفسك.. وبالنسبة لى.. فقد اكتشفت امكانياتى وقدراتى وموهبتى الأدبية والفنية.. ولعلك تدهش أننى قد أنجزت معظم مؤلفاتى الأدبية والسينمائية داخل هذه الجدران فيما عدا قصة وحيدة خارج السجن وهى قصة «المجانين لا يركبون القطار».. هذه القصة بالفعل كنت قد كتبتها بعد خروجى من السجن.. أما بالنسبة للقصص القصيرة التى أعادوا طبعها فقد كتبت لها مقدمة.. أوضحت فيها كيف اكتشفت هذه القدرة الكامنة فى داخلى.. وكيف اكتشفت فى نفس الوقت مواهبى الأدبية؟.. ودعنى أقرأ

لك بعض مشاهد قصص مجموعة رجال وحديد.. وهى المجموعة التي خصصتها لنقل مشاعرى وعالمى داخل السجن..

تحت عنوان «الليلة الأولى» كتبت أقول: «دار مفتاح فى ثقب الباب دورتين صاحبهما صرير رتيب.. وسمع حسن وقد صار وحيدا فى الزنزانة رنين طرقة أو اثنتين أحس أنهما من صنع الطرف السفلى للمفتاح الذى أغلق دونه الباب الحديدى.. وتبع ذلك وقع أقدام ثقيلة تبتعد وصوت خشن يأتيه من خلال ضجيج المساجين الذين تتكدس بهم زنزانات العنبر: تصبح على خير يا أستاذنا.. ورغم أن التحية كانت قد نفذت تماما إلى أذن حسن غير أنه لم يستطع أن يحرك لسانه بردها إلا بعد مضي شوط غير يسير يستعرض الصور العديدة التى تزاحمت فى وعاء رأسه من الساعات القليلة الماضية.. وتذكر الزمن فجأة..»

ومن مجموعتي القصصية الثانية.. والتى صدرت بعنوان «ياقوت مطحون».. خصصت إحدى قصصها لنقل صور غريبة شاهدتها خلف القضبان.. وعلى سبيل المثال.. صورة الشذوذ الجنسي.. وعلى ما أذكر أن اسم هذه القصة هو «الصفيحة».. ولعلى أقرأ لك منها بعض الجمل والعبارات..

«.. وبدأ الشاويش سليمان.. يتحرك ببطء فى أرجاء المطبخ وتحركت معه عينا «سنقر» خطوة خطوة.. كانتا فى ظهره عندما انحنى يختبر الاعشاب الخضراء المتربة التى يقوم بتقطيعها ثلاثة من المساجين لاعدادها للطبخ على أساس أنها ملوخية خضراء.. وكانتا فوق طرف حذائه الأيمن حين عن له أن يرتفع فجأة دون ما سبب ليركل السجين الهزيل كالعصا الخيزران.. قيد حرجه إلى الجدار مذعورا.. وكان يبدو أن ثمة حديثا صامتا قد دار بين «سنقر» والشاويش سليمان خلال النظرات المتبادلة وانهما قد وصلا إلي اتفاق.. ولم يبق إلا مناقشة التفاصيل»..

***

*** وهل هناك ذكريات أخرى تحملها بداخلك عن هذه التجربة؟**

— طبعا.. خاصة آخر مرة دخلت فيها المعتقل.. لانهم سجنوا معى زوجتى.. وعلى ما أذكر أنهم أيضا قد سجنوا سكرتيرة الأستاذ هيكل «مدام نوال وزوجها».. وكل ده كان أيام عبد الناصر.. وقد مات ونحن داخل السجن ثم أفرج عنا..

*** نريد أن نعرف من الاستاذ لطفي الخولي.. وبشكل عام لماذا يسجن المفكر؟**

– دا بيختلف من بلد إلى بلد.. ومن عصر إلى عصر.. أما بالنسبة لمصر.. فهناك سببان ونوعان من المفكرين.. وبشكل عام ليس هناك شك في أن السجن والاعتقال في اتجاهه العام ضد الفكر ويكبته.. ولكنا رغم رفضنا لهذا الكبت وتنديننا.. إلا أننا نعتبره تحد جديد للفكر.. من حيث أنه يثقله ويجدد نشاطه.. ويكشف جوانب خفية جديدة في هذا الإطار وكثيرا ما أعتقد أن فترة السجن هذه تعتبر نقطة تحول في حياة المفكر.. ومع ذلك ليس بالضرورة لكي يكون للمفكر نقطة تحول أن يدخل السجن.. ولكن بشكل عام فإن المحن والمعضلات الحياتية في العالم محليا ودوليا وتصدى الفكر لها سواء في شكل فلسفي وتاريخي أو شكل اجتماعي أو فني.. هو التحدي المستمر للفكر أو بمعنى آخر أن تدخل في محنة بمعناها الواسع.. وليس كما نفهمها بمعناها الضيق..

***

وحين تسألني مثلا.. عن الأسباب التي تؤدى إلى سجن المفكر والزج به وراء القضبان.. أقول لك بشكل عام وطبقا لتجربتي هناك أنواع من سجن المفكر.. المفكر العضوى كما كان يعبر عنه الفيلسوف المفكر الإيطالي «جرامشي».. والذي يقصد به ذلك المفكر الذي يعتبر أنه ملتزم بأن يدافع عن فكره اجتماعيا.. ويحشد له الناس في تنظيم أو أن يواجه النظام المعادى لفكره.. طبعا هنا لابد وأن يصطدم بالنظام و والموروثات والتقاليد ولابد من أجل ذلك أن يدفع الثمن.. إذن كل مفكر يختار هذا الطريق لعرض فكره داخل المجتمع عليه أن يتحمل نتائج هذا الطريق.. ولا نعتقد أن هذا الموقف قاصر على مجتمع بعينه.. بل تجده في كل المجتمعات المتخلفة منها والمتقدمة لأنك هنا تتحدى النظام.. وعلى القائمين على هذا النظام التصدى لأفكارك ومقاومتها.. وعادة ما يكون المصير هو السجن أو الاعتقال بمختلف ألوانه وأنواعه.. والمفكر في مثل هذه الأحوال لا يتصدى للقائمين على السلطة، فقد يساهم في تكوين رأى عام كبير هو الذي يتقدم من أجل التصدى للقائمين على السلطة من وحي آراء هذا المفكر أو ذاك الذى ينظم قوى هذه الجماهير لحظة المواجهة والتصدى.. وعلى ذلك فلابد وأنت كمفكر في هذا الموقع عليك أن تكون مستعداً في أية لحظة لدفع الثمن.. لأنك هنا لم تتوقف عند مجرد قول الأفكار وترديدها.. بل تنزل بها إلى الشارع في الواقع كي تتحقق..

وهذا هو النوع الأول أو المدرسة الأولى من مدارس الفكر.. وماسميناه فى الأول مدرسة الفكر العضوى..

أما النوع الثانى من المفكرين مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين يرون أن مهمتهم أن أكتب وأقول رأيى فى هذا الموضوع.. وأنتج هذا الفكر.. فمن يريد أن يستفيد منه يقترب منه.. ومن لا يريد يبتعد.. والكثيرون يسمون هذا الاتجاه أو هذه المدرسة.. مدرسة مهادنة السلطة.. وهذا تصور خاطىء.. لان مثل هذه الخطوات يراها المفكر من وجهة نظره الأصلح للمجتمع.. ولكل تصوره الخاص.. فهم يرون أن مهمتهم تتوقف عند التثقيف والتنوير.. وغيرهم يرون أن دورهم لا يتوقف عند ذلك فقط.. بل يمتد من أجل تنفيذ هذه الأفكار فى الواقع.. وهؤلاء ينتمون إلى مختلف المدارس الفكرية اليسارية واليمينية والليبرالية وخلافه..

وبالنسبة لاصحاب الاتجاه الأول الذين يرون ضرورة النزول الى أرض الواقع لتنفيذ أفكارهم.. يتوقف نجاحهم على سعة صدر السلطة من حيث وجود بعض التكوينات الديمقراطية.. التى تساعد على تقبل مثل هذه الافكار رغم اختلافها مع القائمين على السلطة.. هذا أولا.. أما ثانيا: تقبل السلطة أن يستمر هذا المفكر فى نشر تلك الافكار بحرية دون تدخل أو رقابة أو مضايقة ومن هنا تتفاوت ردود الفعل.. ومع ذلك من الممكن أن تحدث حالات لوى ذراع مثلما حدث مع المفكر توفيق الحكيم.. رغم انه ينتمى الى المدرسة الثانية التى تقف عند حد قول الفكرة دون السعى الى تنفيذها.. ففى إحدى المرات نشر قصة قصيرة.. رأت فيها السلطة آنذاك أنها ضدها.. وكما كان يحكى لنا الله يرحمه.. عاقبوه بخصم نصف شهر من مرتبه.. وقد تصل إلى الايقاف عن العمل مثلما حدث مع الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.. أو إيقافه عند درجة مالية معينة.. ويتساوى هذا العقاب المادى والمعنوى.. وهذا فى حد ذاته نوع من العقاب الذى يؤدى إلى الإيلام.. بحيث تشعر فى النهاية بانك مسجون داخل نفسك.. حتى ولو لم تدخل السجن وتعيش داخل جدرانه.. وفى كثير من الأحيان لا تصل إلى عقوبة السجن أو الاعتقال.. المهم يصاب المفكر فى النهاية بالإحباط.. ويتوقف..

وفى هذا الإطار توقف الكثيرون من المفكرين عن العطاء.. وفقا لما عانوه من ألوان التعذيب.. وإذا ما استمر فى طرح أفكاره وعاند نفسه فهو يكون أمام أمرين: إما أنه مع

هذا الإصرار فى معرفة التصدى لأفكاره يتجه للعمل من أجل تنفيذ هذه الأفكار وبالتالى يتحول إلى الصدام المباشر مع السلطة.. ويكون مصيره فى النهاية السجن والاعتقال.. أو أن الدولة تتركه يطرح أفكاره دون التصدى له.. باعتبار أن هذه الأفكار مجرد كلمات جوفاء لا تأثير لها.. ومتنفس ضعيف داخل المجتمع.. ولا خوف منه.. وعندما تشعر السلطة بخطر هذه الأفكار تتدخل فورا لمحاربته.. ولو بالسجن أو الاعتقال.. ولكن على العموم لا يجب اعتبار السجن التحدى الأكبر أو الوحيد للمفكر.. وإنما الاغتراب.. والضرب تحت الحزام.. هو أخطر ما يواجه المفكر داخل مجتمعه حتى ولو لم يدخل السجن..

***هل تعرفتم على شخصيات تأثرتم بها فى فترة الاعتقال؟..**

– طبعا.. وعليك بقراءة المجموعة القصصية« رجال وحديد» .. وقبل أن أقرأ لك ما جاء فى بعضها أذكر لك أسماء المفكرين الذين عرفتهم وتأثرت بهم كثيرا على هذا الدرب.. منهم الدكتور محمد الخفيف والمرحوم الدكتور لويس عوض.. ويوسف حلمى وعبد المنعم الغزالى ومحمد قطب أخو الأستاذ سيد قطب..

ومن غير هؤلاء عرفت مثلا «أبو السباع».. ذلك السجين الذى كان اسمه الرسمى المسجل بدفاتر السجن والمكتوب بمداد أحمر باهت فى أعلى «التذكرة» المثبتة بباب زنزانته رقم عشرة بالدور السابع اسماعيل محمد.. لكنهم أقصد كل من اتصل به فى حياته العامة أو تلك التى قضاها خلال الاغلال لم ينادوه يوما إلا بـ «أبو السباع».. وبالرغم من أن إسماعيل أو أبو السباع هذا.. أو سماعين كما كنت أسميه.. كائن حى.. يعيش ويتنفس ويدخن وتستطيع بكل سهولة أن تلمسه وتتحدث إليه إلا أنه لو حدث وصافحته مرة تحاشيت طوال حياتك أن تكرر ذلك مرة أخرى.. فإن يدك عندما تغوص فى راحة يده الخشنة تحس وكأنك قد أطبقت على ثمرة من ثمار التين الشوكى تحيط بها عضلات ضاغطة فى قوة لا عهد لك بها.. فكأنها من حديد.. وتحاول أن تخلص يدك بكل ما أوتيت من إرادة حب الحياة ولكنك تفشل.. فتتأوه لحظات وتئن أخرى.. ثم تصرخ.. عندئذ يفرح أبو السباع ويفرج عن يدك وقد احتبس الدم فى مواضع متفرقة منها وانبعثت من فمه الواسع ضحكته التقليدية.. والذين اتصلوا

بـ«أبو السباع» يـومـا أو عاشـوا معـه ولو سـاعـات يسيرة يروون عن شخصيتـه وتصرفاته الأساطير..

ومع الزمن صار معروفا أن للسجن مديرين أحدهما الموظف العمومي الذى يرتدى السترة العسكرية الصفراء والآخر «أبو السباع».. ذلك العملاق الذى يحس الناظر إليه أنه قد أدخل بصعـوبة فى لباس السجن الأزرق.. ولم تكن الزنـزانة التى استقل بها أبو السباع تختلف كثيرا عن محل بقالة صغير وكـان هذا المحل يتعامل مع جميع المساجين بأسعار يحددها بعدما راعى فى ذلك أن تكون أقل ارتفاعا من تلك التى تسود فى السوق السوداء والتى كان يباشرها كثير من السجنـاء فى الخفاء.. ومن هنا كان دائما يدخل فى منافسة مع تجار السوق السوداء.. ولكنه كان الرابح دائما.. وكان فى كثير من الأحيان يتدخل تارة بيديه وتارة بواسطة «الحاجة» أى العصا الغليظة ليحمى عملاءه من بطش منافسيه عندما يحاولون تطبيق نصوص اللائحة عليهم..

والشخصيـة الثانيـة.. هو «أبـو دراع».. أو «اللـومنجى».. ذلك السجين الذى بدأ حكايته أيضـا ولا الأساطير داخل جدران السجن.. فقد نشأ فى الصعيد شـابا شريدا لا يعرف له أصلا.. ولم يصـادف الخوف فى حياته.. بدأ عمله فى الصعيد حـارسا ليليا فى منطقة مقـابر القرية.. وكـان الوحيد الـذى قبل هذه الوظيفة بعـد أن رفضهاالكثيرون غيره.. وفي ذات يوم طلبه العمدة أن يتزعم تنفيـذ مؤامرة لحرق أحد حقول القطن.. ثم تطورت هـذه الطلبات من جـانب العمدة من حـرق الحقول وسرقـة المواشى وتسميم الدواجن إلى سفك الدماء.. وجاء الوقت الذى خشى فيه أبو دراع أن العمدة يستغله ولا يدفع له.. لـذلك قرر الانفصال عن العمدة وأن يـدير أعماله العدوانيـة لحساب نفسه.. وبـالفعل كون عصـابة أفلحت بحـوادثها الـدامية فى أن تشيع الإرهـاب داخل القريـة والقرى الأخرى.. ومنذ هذه اللحظة عاش أبو دراع مطاردا رسميا من الحكومة.. حتى تم القبض عليه.. وكان يطلب دائما للمساجين الجدد الاستماع إلى حكاية أبو دراع وهـم واقفون فى عيـادة السجن الطبية ينتظـرون العرض على الطبيب وحتى هـذه اللحظة لم أعرف السبب..

***

خلاف ذلك هنـاك شخصية ثريـة جدا تعرفت عليهـا داخل السجن وهى شخصية الشاويش رجب.. وأنا شخصيا أعترف أنها شخصية تهزك بعنف وتتأثر بها بسرعة..

وأنا أعتقد الآن أنه مات.. وعم رجب هـذا كان في الستينات من عمره.. وكان العسكري الوحيد تقريبا الـذي لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابـة.. وبالتالي خصصـوه لحراسة السياسيين.. وكان يمتاز بإنسانيته الغريبة التي أبعدته عن صفات كل عساكر السجن الآخرين.. فلا يقبل نقـوداً ولا رشاوى ولا أي شيء من هذا القبيل.. لقد كـان نموذجا فريدا يتسم بطبيعته السمحة راضيا بحياتـه وعيشته.. وبالتالي كان يعتبر الرشوة من أجل أداء الخروج على الواجب وعلى مقتضيات الـوظيفة حراما، وكـان اختياره في هذا المكان مـوفقا.. لأن السجنـاء السياسيين كـان أول عمل لهم داخل السجن هو تكـوين شبكـة من العساكـر والشاويشيـة وعن طـريقهم يتم تهريب كل شيء يتعلق بالفكـر والثقافـة.. وطبعا كلـه بالفلوس.. إلا مع عم رجب.. بجـانب ذلك كان هـؤلاء هم حلقة الاتصال بين المساجين السياسيين وبقية المساجين الآخرين ثم بينهم وبين الخارج..

إن عم رجب كـان شخصية غير عـاديـة.. وكان مسئـولا عن مجمـوعـة زنـازين خصصوها للتأديب بسجن القنـاطر الخيرية.. وكنت سجين إحدى هذه الـزنازين عام ١٩٧٠.. وقد مر عليه عدد كبير من المساجين السيـاسيين.. مثل فؤاد باشا سراج الدين وآخرين.. هذا الرجل اتصافه بصفة الأمية ووجوده بيننا كان مقصـوداً..

تتم عملية التجهيل التامة.. لأننا كنـا دائما في شوق أن نعرف كل جديد في الصـحف والمجلات.. فكيف يمكن أن يتم ذلك لنا والحارس لا يقرأ ولا يكتب.. بالفعل لقد كان عم رجب لا يعرف القراءة.. وبالتالي كنا كثيرا مـا نفشل في معرفة أخبار العالم من صـحف الصباح.. والشيء الغـريب أن هذه الشخصيـة.. قد لفت على جميع السجـون المصرية مصاحبا للمسـاجين السياسيين سواء في الواحات أو في السجون الأخـرى.. وقد تأثر هذا الرجل بمصاحبة هؤلاء السياسيين فتحول مع الأيام رغم أنه كان جاهلا.. إلى أحد خبراء السياسة المصرية في وقت من الأوقات..

ولانه بدأ يتعامل مع السيـاسيين فقد أصبح له موقفا.. وبدأ يتكون لـديه قناعة بأن سجن هؤلاء الرجال غير طبيعي وغير قانوني كما بدا عليه عدم الاقتناع بالسلطة التي سجنت هؤلاء.. وبـدأ يتكون لـديه رأي مؤداه أن هـؤلاء لابد وأن يخرجـوا على الفور ويمارسوا حيـاتهم الفكريـة دون قيود.. وعلى النـاس أن تختار بين فكـرهم.. ولماذا لا يكون هو من بين هؤلاء الذين لهم مثل هذا الاختيار.. فبدأ يأخذ موقفا من السلطة.. كما

بدأ يأخذ موقفا مع أو ضد هذا التيار.. وفقا لاقتناعه بأفكاره.. دون التعرف على صحة أو خطأ هذا التيار أو ذاك.. بل أكثر من ذلك بدأ يتدخل معنا في حوار مثمر وثري.. كما بدأ يذهب إلى المقهى قبل دخوله إلينا في نوبة حراسته بالسجن.. ومن خلال حواراته مع أصدقاء المقهى.. ينقل إلينا النبض العام لهؤلاء النـاس البسطاء.. وكان يشعر أحيانا أن من واجبه أن ينقل إلينا أو يبلغنا بقضية مـا.. ويتم ذلك من تلقاء نفسه دون توجيه من أحد منا ودون أن يأخذ أجرا على ذلك.. وبـذلك أصبح صديقا لكل المعتقلين السياسيين والمفكرين على اختلاف انتماءاتهم..

ومرة أخذ يحدثنـا عن شجاعة وبطولة فؤاد سراج الـدين في السجن بدرجة كبيرة.. وكان صديقا لنجم وإمام.. وكان يـداري علينا فيما نكتبه داخل الجدران.. وبالنسبة لي شخصيا كان يخفي الأوراق التي كنت أكتبها عن سينـاريو فيلم العصفور.. أيضا كان متعاطفا مع الاخوان المسلمين ويساعدهم كثيرا في تلبية طلباتهم رغم تحفظه على بعض آرائهم واختـلافـه معهم.. يعني تقـدر تقـول بخـلاف ذلـك: السجن مجتمع غني بالشخصيات..

ويحضرني بخـلاف قصتي مع «عم رجب».. قصة أخـرى مع أحد صـولات سجن الفيوم.. هذه الشخصية طيبة القلب.. رغم مظهرها القاسي.. كان يتعامل معنا بإنسانية غريبة.. ويتغلب كثيرا على التعليمات والأوامر التي تسري علينا كمسجونين سياسيين.. ودائما كان يكرر أمامنا أنه غليظ القلب وعنيف.. وكنا نلاحظ تكرار هذه العبارات أمام مسئولي السجن فقط ولكن حين يخلو بنـا.. ينقلب إلى انسان من نوع طيب.. وأستطيع أن أقول لك إنني ظللت على علاقة ببعـض زملائي من المسجونين غير السياسيين حتى بعـد الخروج ومن الضباط.. ولـلأسف.. كان منهم بعض الضبـاط الذين اشتركـوا في تعذيبي كما لو كنـا أعداء.. هذه العلاقة اتسمت بيننا بـالود حتى إن بعضهم كان يطلب مني خدمات..

***ولماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر في دول العالم الثالث بتوقيع رئيس الدولة؟..**

– أنـا أعتقد أن رئيـس الدولـة لا يعلم كل شيء قبل وقـوعـه.. بل قـد يعرف بعـد وقوعـه.. ويؤكـد لك ذلك ما سأرويـه بعد لحظـات.. فعندمـا كنت قريبا مـن الرئيس

السادات وكانت علاقتي به طيبة حتى ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧.. قال لي إن هناك طريقة ما يلجأ إليها الحاكم في حالة وجود ما يعكر صفو النظام.. وكان ذلك ردا على ما أثرته آنذاك من لجوء السلطة إلى تقييد حرية المفكر واعتقاله.. ومنعه من الكتابة دون أن يعرف هو ذلك.. وأحيانا يكون الاعتقال لأمور ملفقة يتم اكتشافها أثناء إجراء التحقيقات في النيابة أو أمام القضاء..

وفي رده على ما أثرته.. قال لي الرئيس السادات الذي كان يمتاز بحسن استماعه حتى لخصومه.. إن آلية هذا العمل يأتي بالشكل التالي: هناك مجموعة ما من الوزارة قد قررت أن تأخذ موقفا ما من كاتب أو مفكر.. مثلا من لطفي الخولي.. فعندما تشرع في كتابة تقاريرها للرئيس عبد الناصر تذكر اسمه بشكل هامشي في إحدى التقارير الأمنية.. انه شوهد مثلا يصافح فلان وفلان.. وهما من أعداء عبد الناصر أو من خصومه.. ثم تمضي أسابيع ويذكر في تقرير آخر أن لطفي الخولي قد اجتمع مع بعض هؤلاء المعارضين.. وقال ضمن ما قال إنه لابد من إعادة النظر فيما هو قائم من نظام سياسي.. ثم يبدأ بعد سطر وسطرين... ثم إلى فقرة.. ثم إلى ورقة في التقرير.. إلى أن يتم كتابة التقرير كله عن لطفي الخولي وعن تحركاته.. ويلاحظ أن ذلك يتم بشكل مكثف في فترة زمنية قصيرة.. مما يلفت نظر الرئيس عبد الناصر.. الذي يطلب من أحد معاونيه وليكن مثلا سامي شرف.. معرفة حكاية لطفي الخولي بالتفصيل.. في الوقت الذي يكون فيه التقرير جاهزاً للعرض على الرئيس وفيه كل ما يدين لطفي الخولي من اتهامات صحيحة وغير صحيحة.. وأحيانا عبد الناصر كان يرى بعد فوات الأوان أن ما جاء في التقرير غير صحيح.. وكان عليه أن يأخذ به لأنه تقرير مرفوع إليه من جهات عليا في الدولة.. وأنا هنا لا أعفي عبد الناصر من المسئولية لأنه كان عليه أن يضع آلية معينة تضمن صحة التقارير التي ترفع إليه بدون تحيز أو اتهامات باطلة لأحد.. بجانب أن الاعتقال بدون تهمة هو شيء مذموم.. أضف إلى ذلك أن ما جاء بهذه التقارير يضعك تحت المراقبة وأحيانا تمنع من السفر ومضايقات أخرى كثيرة..

وفي اعتقادي أن ما يحدث من مثل هذه الأمور هو جزء من الصراع السياسي الذي يعالج بطريقة غير صحيحة وفردية.. وعبد الناصر لم يكن دكتاتورا ولكنه كان حاكما

فرديا.. لا يـؤمن بالديمقراطية باعتبـارها عقبة معطلة للانطلاق نحـو التنمية.. وطبعا كان ذلك تصورا خاطئا إلى أبعد الحدود..

وبأمانـة الكلمة.. أقول لك إن الـرئيس السادات في نهاية تعقيبـه على ما أثرتـه معه آنذاك.. قد وعدني بشكل عام أنه لن يلتفت لتلك التقـارير.. وأنه قد قطع عهدا على نفسه بأنه سوف يناقش كل مفكر يأتي ذكره في أحد هذه التقارير.. ومواجهته بهذه التهم..

***وأخيرا.. لو كان الأستاذ لطفي الخولي رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين معتقلين منهم لطفي الخولي.. ماذا سيفعل؟..**

- الحقيقـة أنك تضـعني في مـوضـع مستحيل.. وهـذا نوع من الأسئلـة الصحفيـة الذكية.. وأحب أن أؤكـد لك أنني لم أجرب أن أكون رئيس حكومة أو وزيـرا للداخلية.. ولـذلك لا أستطيع أن أقـول لك لأن رئيس الحكومـة يكـون مقيدا بـأنظمة أمن معينـة ومتطلبات جماهيريـة مفروضـة عليه.. ولكن بشكل عـام أحب أن أؤكد لك إننـي ضد الاعتقـال على طـول الخط لأنه لا يفيـد.. ولم تنجح عمليـة اعتقـال المفكـرين.. لأنك في الحقيقة تعتقل الجسـد ولكنك لا تستطيع أن تعتقل العقل الذي يخرج منه هـذا الفكر.. لأن خروج الفكـر من عقل الإنسان حتى في هـذه الحالة يصبح الفكـر ملكا للغير وليس ملكا للمفكر فقط..

الحكاية السادسة يرويها جمال الغيطاني:

واكتشفت أن صرخات التعذيب داخل المعتقل.. اسطوانة

العثور على كلمة تصلح كي تكون بداية موفقة لمثل هذه الحوارات.. مهمة شاقة وعسيرة.. وربما تنبع هذه المشقة من إحساسك بأهمية الموضوع.. وأيضا أهمية الضيف المتحدث، من أجل ذلك وفى مثل هذه المواقف وهذه المهام العسيرة أستمع جيدا.. واقرأ ذلك بنفس الصفة.. أملا فى العثور على ما أبحث عنه وتكوين بداية طيبة ومرضية.. ومعبرة عما سوف أقوله من بعدها..

والكاتب الأديب الصحفى المفكر الغيطانى يجعلك تعيش لحظات رهبة وخوف وقلق حين يحدثك عن مثل هذه التجربة التى أثارت بداخله الشجون.. وعادت بذكرياته ألف عام.. حتى قبل أن يولد.. لأنه لم يكن يتصور فى يوم من الأيام أنه سوف يدخل السجن ويعتقل.. ويزج به فى زنزانة ضيقة.. وحيدا مكروبا.. ولسوف تشعر عزيزى القارىء بأنك مشدود مثلى مع كل كلمة قالها لنا خلال هذا الحوار الذى لم يخل من لقطات إنسانية تذيب القلب.. وتوجع البدن والعقل..

وبالاستماع الجيد والإنصات لكلمات المفكر والأديب جمال الغيطانى من خلال شريط التسجيل اكتشفت أنه قد دخل تجربة الاعتقال، وهو لايزال صغير السن.. وقبل أن يدخل عالم الصحافة.. فقد كان وقتها لايزال فى بداية الطريق نحو عالم الأدب وعالم الشهرة.. ولولا الإصرار بداخله.. واحساسه بمرارة الظلم الذى وقع عليه لكان قد انسحب من الساحة كلية وآثر السلامة واعطى للأدب والصحافة والفكر ظهره.. والتحم بالحياة العملية.. خوفا ورعبا من تكرار نفس التجربة.. ولكن الذى حدث هو العكس.. فقد ولدت لديه تلك التجربة الرغبة فى مواصلة المشوار نحو عالم الفكر والأدب بمفهوم جديد.. لايقترب من عالم السجن.. ولايخاف منه.. ولكنه يحاول من خلال قلمه أن يقاومه كظلم يقع على الإنسان.. وتراه فى ذلك قد عبر عن هذا العالم الغريب ومآسيه المتنوعة فى العديد من كتبه ورواياته.. وإن لم يكن بشكل مباشر على طريقة كتابة المذكرات أو تسجيل وقتى لأحداث تلك الفترة..

أضف إلى ذلك أن تعرضه لمثل هذه التجربة وهو فى سنه المبكرة دون أن يكون ذا باع طويل فى عالم الفكر والمفكرين.. أثار حفيظته وخلخل كيانه.. وفرض على واقعه سلسلة طويلة لاتنتهى من الأسئلة.. يأتى فى مقدمتها السؤال التقليدى.. لماذا؟.. ومن أجل البحث عن إجابة شافية له، قرر أن يدخل المعركة بفكره وبقلمه ينقل الصورة بلا رتوش.. أملا فى أن يستفيد غيره من المفكرين من هذه المحنة التى اعتبرها البداية الحقيقية لوجوده داخل هذا العالم.. وبصرف النظر عن الانتماء الفكرى أو السياسى الذى ليس هو مقصدنا من هذا الحوار.. فقد دخل جمال الغيطانى السجن بتهمة الشيوعية.. وهو لم يكن يدرى وقتها ضخامة هذه التهمة أو المصير الذى ينتظره من جراء الاقتراب من مجالها.. ولكن ذلك قد حدث وكان عليه أن يقرر وأن يختار..

وفى بحثنا الدائم عن كلمات سطرها المؤلف هنا أو هناك تكون معبرا نطمئن إليه.. فى بداية حوارنا كمدخل للحديث القادم.. وجدنا تلك الكلمات نائمة فى أحضان مجموعة قصصية.. صحيح أنها ليست الوحيدة من نوعها.. بل كتب غيرها الكثير متأثرا بتجربة السجن.. إلا أنه وبنفسه قد رشح لنا هذه المجموعة كى نبحث بين سطورها من أجل العثور على المطلوب.. ولقد وجدنا ضالتنا فى بعض عبارات وجمل هذه القصص مثل قوله فى قصة «رسالة فتاة من الشمال»: عبرت الأرض الساخنة الصفراء، حرارة تخترق نعل الحذاء الخفيف وتؤلم باطن قدمى.. لم يقترب موعد الغداء، عندما تتجاوز الشمس منتصف السماء وتميل عنه.. عندما يزحف الظل الرمادى من أول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثانى والثالث حتى الرابع.. ينطلق نفير الغداء، بجوار جدار حجرى قصير البناء فكروا يوما فى إقامته ثم عدلوا، جلس أربعة زملاء..

وفى موضع آخر من نفس القصة يقول معبرا عن تلك المشاعر التى سجن من أجلها على لسان الفتاة التى بعثت إليه برسالة من بلاد الجليد.. أننى آسفة قد أكون آلمتك بهذا الوصف لذوبان الجليد، لأننى أعرف أنك مقيد، لكننى أحترمك جدا.. ولا أعرف هذه المبادىء التى قيدوك من أجلها ربما لا أميل إليها لكننى أحبك وأحن إليك وإلى من معك.. فأى شىء أعظم من أن يسجن الإنسان من أجل مبادىء يؤمن بها.. إننى فتاة من آلاف يعشن فى بلاد الثلوج البعيدة عنك، ولن ترانى ولن نتصافح بالأيدى.. ولو لم أقرأ اسمك فى نشرة الجمعية التى أنتمى إليها لما سمعت عنى أبد.. كذلك أنا لا أعرف عمرك ولاسنك ولا أوصافك.. لكنى أعرف أنك لاتمشى فى الشارع كما تشاء ولا تأكل كما

يجب، ولا تنام كما ينبغى أن تنام.. وأعرف أنك إذا رغبت فى رؤية أهلك لن تراهم.. كذلك صديقتك وزوجتك..

***

وكلمات كثيرة نثرها جمال الغيطانى هنا وهناك.. من أجل أن يصف لنا تجربته مع السجن.. وفى كل مرة سوف نتوقف عند إحداها.. وعلينا منذ هذه اللحظة أن نعد أنفسنا من أجل سماع تفاصيل الحوار الذى دام أكثر من ساعتين.. وتم تسجيله على ثلاث مراحل.. وقد لعبت الحالة النفسية للأديب والمفكر دورا عظيما فى تحديد مواعيد هذه المرات الثلاث.. فلم أكن أتصور ولا هو كذلك أن مثل هذا الحوار سوف يفتح عليه أبواب التاريخ وذكريات الماضى.. ويقلب مواجع القلب التى لعب الزمان دوره فى شفائها.. وكأنما رأيته لأول مرة وهو يدخل المعتقل.. خائفا مرتجفا.. صحيح أنه رحب بالفكرة.. ولكننا عندما بدأنا التسجيل.. ومع دوران الشريط.. انفعل بشدة.. وخرجت الذكريات من فمه مصحوبة بآلام ذلك الماضى القريب والبعيد فى آن واحد..

وآه لو كنتم معى حين التسجيل.. وسمعتم كلماته التى أخذ رنينها يزداد داخل الغرفة التى ضمتنا لحظتها.. فحتما سوف تشعرون بسخونة هذه الكلمات ولهيب تلك الجمل الاعتراضية العديدة التى نقلت لنا الصورة بدون رتوش.. وكان لابد من التسجيل.. فهى كلمة للتاريخ بصرف النظر عن الفكرة السياسية أو الانتماء.. مادام صاحبها ينادى بها فى سلام وبعيدا عن استخدام وسائل العنف، لإيماننا بأنه لا يقارع الحجة إلا الحجة وأن اللجوء لاعتقال العقل والبدن كوسيلة لإبطال مفعول الفكرة.. هو تصرف عاجز.. ويدل على القصور فى التصرف.. وما هذه الحوارات إلا خطوة على طريق تصحيح المسار وتنمية الشعور العام والإحساس بأن المفكرين مهما شطحت آراؤهم وأفكارهم لايكون مصيرهم السجن ماداموا لايلجأون إلى العنف من أجل تطبيق هذه الأفكار.. وحتى لو ثبت عليهم هذا الأمر.. فإنهم لابد وأن يحاكموا وفقا للقانون.. ولا يصدر ضدهم أوامر فوقية قبل سماع دفاعهم.. أو يزج بهم وراء القضبان قبل النطق بالحكم.. فالقضاء العادل هو رمز الحرية.. وهو السيف المسلط فوق جميع رقاب العباد دون تفرقة.. والعبرة هنا بالأدلة..

وكما تعودنا.. سوف نترك للضيف حرية التصرف.. وبداية الكلمة ونهايتها.. ولن

نتدخل إلا من أجل إدارة الشريط وإيقاف دورانه.. أو وضع ملامح لسؤال نراه بداية لحوار جديد.

***

وكانت بداية الحوار هكذا بعد كلمات الترحيب والثناء المعتادة..

*** نريد أن نعرف من الأديب المفكر الصحفي جمال الغيطاني كم مرة دخل فيها السجن؟..**

ـ مرة واحدة فقط. وكانت بالتحديد في ٩ أكتوبر ١٩٦٦ فجراء حين طرق الباب واقتحم شقتنا الصغيرة جدا بحي الجمالية ضابط مع مجموعة من العساكر بزيهم المدني.. وكان وقتها عمري لايتعدى الواحد والعشرين عاما.. تقدم مني الضابط في ذلك الوقت المتأخر من الليل بعد أن فتحت له الباب.. وذكر لي اسما أعتقد أنه اسم غير حقيقي.. وإن كنت مازلت أذكر ملامح وجهه جيدا حتى هذه اللحظة..

المهم دخل شقتنا ومعه ثلاثة من المخبرين الذي انتشروا بسرعة داخل الشقة التي كانت في ذلك الوقت غرفتين وصالة.. وبدأت عملية تفتيش واسعة لكل الموجود بالشقة.. ولفت نظري إصرارهم على تفتيش كل ورقة وكتاب موجود بالشقة.. ويبدو أنني كنت سيىء الحظ.. لأن هذا الضابط أخذ مني كمية كتب ضخمة أنا مازلت حتى هذه اللحظة متحسرا عليها وحزينا بشدة لأن أغلبها كانت كتبا من كتب التراث النادرة.. حيث كانت هوايتي في هذه السن المبكرة تدور في فلك كتب التراث القديمة.. وأسعى جاهدا لجمعها ولشرائها بأي ثمن.. أيضا استولى على كمية ضخمة من الكتب الماركسية التي كانت متداولة بكثرة في ذلك الوقت..

أيضا على ما أذكر استولى الضابط على كمية من الورق الأبيض الذي كنت أكتب عليه وكنت أحصل عليه من عملي أو من أحد أصدقائي العاملين بالآلة الكاتبة.. والغريب أن رزم الورق هذه قد آلمتني كثيرا وسببت لي أزمة نفسية لأنني أبدا لم أكن أكتب إلا وهي بجواري.. وتقدر تقول.. ربما يرجع ذلك إلى عدم إحساسي بالأمان في هذه الآونة والخوف.. وقد تتعجب حين أقول لك إن مجموع ما حصل عليه الضابط من هذه الكتب وهذه الأوراق قد ملأ ثلاث ملايات سرير.. حملها المخبرون فوق أكتافهم حين غادروا منزلنا وأنا معهم في الفجر..

ولا تتصور أن اعتقالي في مثل هذه السن المبكرة.. وبهذه الطريقة قد أثار أسرتي

الصغيرة.. وأصابها بالفزع والهلع.. فوالدى رجل كان طول عمره فى حاله.. وقد عاش فى القاهرة لأكثر من خمسين عاما ولم يدخل خلالها إلى قسم بوليس أو ذهب فى مرة من المرات إلى المحكمة.. أما بالنسبة لوالدتى.. فكان هذا الحدث فى حياتها بمثابة الزلزال.. أضف إلى ذلك أنه بالنسبة لبقية أفراد أسرتى وعلى وجه الخصوص على أخى الصغير فقد أصيب بصرع منذ هذه الليلة.. وظهرت عليه هذه النوبات ابتداء من عام ١٩٦٧ بعد الإفراج عنى.. واستمرت معه هذه النوبات.. وظل يعالج حتى برأ منها منذ سنوات قريبة..

لقد ولد عنده هذا المشهد الذى رأى فيه هذا الكم من رجال البوليس الخوف والفزع والصرع الذى ظل ملازما له طويلا وأعتقد لمدة ١٨ عاما.. لقد كان ذلك إحدى النتائج المباشرة والعنيفة لعملية الاعتقال.. جانب آخر أن الاعتقال كان يتم فى ظروف اقتحام.. ودون أن يذكروا لك أو لأسرتك إلى أين أنت ذاهب الآن.. وهل سترجع أم لا؟.. لقد كنت تذهب إلى المجهول.. وفى حالات كثيرة كان يتم هذا الاعتقال بإهانة ووحشية.. سواء فيما يخص الشخص المطلوب اعتقاله أو أهله.. ومن هذا المنطلق أؤكد لك أن ظروفى فيما يتعلق بهذه الخصوصية كانت جيدة.. ولعب الحظ دوره فى عدم تعرضى لأى نوع من أنواع هذه الإهانات التى كنا نسمع عنها أو شاهدنا بعضها.. بل بالعكس حاول الضابط وقتها أن يهون علينا هذا الأمر.. فتحدث مع والدى عن بلدته ومولده وأشياء أخرى من أجل التخفيف عليه من وقع هذه المصيبة.. ولكن حينما خرجت فوجئت بأفراد الشرطة وقد وضعونى بين أذرعهم خوفا من الهرب.. والمسدس فى ظهرى من جانب آخر.. وكانت من المشاهد التى أثارت سخريتى فيما بعد.. فقد تصورت نفسى من المجرمين العتاة.. أو زعيم عصابة.. لم يصدقوا أنفسهم حين اعتقلوه..

وعلى بعد خطوات من المنزل وخارج الحارة فى شارع قصر الشوق بالجمالية.. وقفت سيارة شرطة رمادية اللون على رأس الشارع لأنها فشلت فى دخول الحارة لضيق ممراتها.. وركبت معهم وسط حراسة مشددة.. إلى مبنى المباحث العامة.. ومكثت هناك ساعة.. وأذكر وأنا موجود فى إحدى الغرف هناك أننى تقابلت مع أحد الصحفيين ويدعى محمود عزمى، وكانوا قد أتوا به مع مضبوطات من الورق والكتب.. وقد لفت نظرى داخل هذه الغرفة كذلك صورة تعلو الحائط للسيد زكريا محيى الدين ومن فوقها الآية القرآنية: «رب اجعل هذا البلد آمنا»..

ولقد لصقت بذهني طويلا للدرجة التي جعلتني أكررها كثيرا في روايتي «الزيني بركات».. طبعا أنا كنت داخل هذا المبنى.. وأثناء تنقلي في شوارع القاهرة قبل الوصول إليه.. كنت أسترجع الصور الحية للشوارع والأشجار والمباني.. لإيماني بأنني ربما لن أشاهدها مرة أخرى.. يعني احتمال القتل أو الموت كان ماثلا في ذهني، لأنه كانت لدى معرفة سابقة بأن مثل هذه الأمور تحدث وراء القضبان.. وربما تكون من نصيبي.. وكان السؤال الذي يتردد في ذهني وأنا أتجول ببصري طوال رحلتي داخل شوارع القاهرة قرب الفجر.. وأنا وسط هذه الحراسة المشددة.. هو متى أشاهد هذه الشوارع من جديد؟.. وهل سيقدر لي أن أراها مرة أخرى أم لا؟.. وبعد أكثر من ساعة داخل مبنى المباحث العامة اقتادوني إلى سجن مزرعة طرة الذي كان مقاما في ذلك الوقت داخل أحد معسكرات الجيش.. ودخلت المعتقل.. وأثناء تدوين البيانات.. لاحظت أنهم كتبوا أمام اسمي «شيوعي» ونسيت أن أقول لك إنني طوال الرحلة من المباحث إلى السجن كنت مقيدا بالكلبشات ولا أعتى المجرمين.. فكان ذلك طبعا شعورا غريبا بداخلي.. حيث أحسست فعلا أنني تحولت هذه اللحظة إلى زعيم عصابة.. وأنا هنا داخل المعتقل، ومما أثار نفسي أيضا أنني بمجرد دخولي تعرفت على أحد جيراننا بحارة الطبلاوي.. كنت طول عمري أعرف وأسمع عنه أنه دائم الدخول إلى المعتقلات بسبب أنه من الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٥٤.. ووجدته ينظف أرضية السجن ببدلته الزرقاء التي كانت تختلف عن البدلة التي كنت أرتديها.. وكان لونها الأبيض هو اللون المميز للمعتقلين.. وكان اسمه الأول أحمد..

وفور لقائي به.. أعطاني هدية غالية جدا لم أكتشف قيمتها إلا بعد فترة من وجودي بالسجن.. تعرف ماذا كانت هذه الهدية؟ قطعة جبنه مثلثة الشكل «نستو».. وأوصاني بضرورة الاحتفاظ بها وألا آكلها مباشرة.. وفعلا بعد فترة من وجودي داخل المعتقل اكتشفت قيمتها الغالية على حد تعبير عم أحمد.. وهذه النقطة تجرنا للحديث عن نوع المعيشة والطعام داخل الجدران السوداء.. فالوجبات الثلاث من الفول المهروس بالسوس والزلط.. وكنا نأكله بعد معالجة بالزيت وأشياء أخرى حتى يمكن ابتلاعه بسهولة..

وكانت أنواع الجبن والسالمون.. والمعلبات الأخرى نوعا من الترفيه لايحصل عليه إلا المحظوظ.. وبوسائل ملتوية.. كنا في الغالب نحصل عليها بالفلوس لأنها كانت تباع

لمن يقدر على الدفع.. المهم أنني دخلت حجرة كبيرة جدا.. وبداخلها فوجئت بعدد كبير من أصدقائي خارج السجن وعدد آخر ممن لا أعرفهم.. وعلى ما أذكر كان من بينهم صلاح عيسى الذي كانت تربطني به علاقة قوية في تلك الفترة للدرجة التي اعتبرت نفسي في طريق الاعتقال بمجرد أن عرفت أنه قد اعتقل قبلي، وآخرون سبقوني إلى نفس المعتقل منهم على ما أذكر عبد الرحمن الأبنودي.. وعلى الشوباشي.. لقد كانوا من الكتاب والمثقفين المصريين المستنيريين في تلك الفترة.. وبعد فترة اكتشفت أن هؤلاء قد اعتقلوا قبلنا ومنذ خمس سنوات.. أما أنا ومعي الشاعر سيد حجاب كنا ندخل المعتقل لأول مرة.. وهؤلاء كان يجمعهم انتماء واحد يدعى آنذاك «وحدة الشيوعيين».. والذي دخلت السجن بسببه لأول مرة في حياتي..

في نفس الوقت تم اعتقال مجموعة من أعضاء الاتحاد الاشتراكي بتهم انتمائهم لتنظيم يدعى «القوميين العرب».. ومنهم مسئولون كبار في ذلك الوقت.. وعلى ما أذكر منهم الدكتور محمد الخفيف «الله يرحمه».. ولطفي الخولي.. وأمين عز الدين.. والدكتور إبراهيم سعد الدين هؤلاء الذي كانوا على مقربة من النظام في ذلك الوقت.. الأمر الذي جعلنا نتصور ببلاهة أنه قد وقع انقلاب يميني في مصر.. مما أدى بهؤلاء إلى دخول المعتقل..

*** ليسمح لنا الأستاذ جمال الغيطاني أن نقاطعه كي نسأل.. كم مدة قضاها داخل السجن؟..**

- أنا مش فاكر. لكن أقدر أقول لك .. إنها بدأت بأسبوعين انقطعنا خلالهما عن العالم تماما.. ثم بدأ استدعاؤنا في مجموعات إلى السلخانة وهو لفظ كان يطلق على سجن القلعة.. للتحقيق ووقتها كنت أصغر معتقل ربما في مصر كلها، ولذلك لم أكن أملك خبرة في هذا المجال.. وقد تعرفت في هذه الآونة على بعض الشيوعيين من الطبقة العمالية منهم مثلا عم منصور زكي ومحمد بدر.. وقد بهرتني شخصيتهم.. واكتسبت من وجودهم قبلي خبرة طويلة.. للدرجة التي جعلتني مصدر تشجيع دائم لهم طوال إقامتي في السجن الحربي.. حتى وفي فترات التعذيب أيضا.. المهم في ليلة من الليالي.. فوجئت بأنهم ينادون على اسمي.. فخرجت أنا والدكتور صبري حافظ.. أستاذ الأدب العربي.. وشخص ثالث لا أذكر اسمه.. وتوجهنا إلى إحدى السيارات التي سوف تنقلنا إلى سجن

القلعة للتحقيق.. وأثناء جلوسي بـالقرب من ضابط الحراسة وقع بصري على الجواب الخاص بالترحيل.. وقرأت فيه عبارات تقول: أمر بترحيل فلان وفلان.. وفلان.. تحت الحراسة المشددة مع العلم بأنهم من الخطرين..

وبناء على ذلك شـددوا الحراسة علينا وأحـاطوا سيارتنـا بسيارات أخرى أمـامنا وخلفنا.. وفي هذه اللحظة انتابني احساس بأنني لن أعود مرة أخرى، خصوصـا ونحن في طريقنا إلى السلخانة ومعقل التعذيب بأنـواعه المختلفة.. وللمرة الثانية أسمح لخيالي بالتقاط صور من الشـارع فربما لن يسعـدني الحظ وأراها مرة أخرى.. وداخل القلعة تـوقفت بنا السيارة أمام بـاب أثري عتيق.. وأخـذونا معصـوبي العينين في طابـور، ووضعوني في زنزانة كان رقمها آنـذاك (٣٤) وحبست فيها انفراديا.. وقبل أن أدخلها سبقني إليها أحد العساكر المدنيين حيث قام برش أرضية الزنزانة بماء مثلج.. وأمرني بعدهـا أن أدخل كي أنام.. وكنـا وقتها في شهـر أكتوبـر والبرد على أشده.. ولا تـوجد أغطية سوى بطانية.. والنوم على الأسفلت.. لقد قضيت هذه الليلة واقفا..

وحين نعود لحكاية الأكل داخل هذا المعتقـل الجديد.. أقولها كلمة حق أن نوع الأكل كان جيدا إلى حـد ما عما رأيته في سجن مزرعـة طرة، وبعد يومين مـن وصولي.. بدأت حرب الأعصــاب.. فقد بدأت أسمع يـوميا صراخ طفل يعذبونـه.. وعلى ما يبدو كـانوا يصعقونه بالأسلاك الكهربـائية في بعض أعضـائه التناسلية.. وأقول لك إنني لم أسمع في حياتي مثل هـذا الصراخ الذي كان يـذيب قلبي وعقلي ويهزني من الداخل للـدرجة التي جعلتني أقضـي يومـي بأكمله داخل الزنـزانة واقفا مـرعوبـا محـاولا أن أبعد عن أذني هـذا الصراخ المروع.. وفي تجربتي أعتقـد أن صـوت التعـذيب أقـوى تأثيرا من التعذيب نفسه.. وبعد أن مكثت أسبوعا على هذه الحالة السيئة وداخل الزنزانة الحقيرة التي لايتعدى حجمهـا عن أربع خطوات.. استـدعيت للتحقيق.. واقتادونـي معصوب العينين مع وجبـة دسمة مـن الضرب بالشـوم والـركل حتى تصل إلى المحقق.. وحتى عندما وصلت هناك دخلت مكانا لم أشاهد معالمه لأنني كنت لا أزال معصوب العينين.. وبعد لحظـات انهالوا على جسدي النحيل وفي هذه السـن المبكرة ضربا وركلا بطـريقة وحشية لم أسمع عنها من قبل..

ثم فوجئت بهم يرفعون عني عصـابة العين ويدخل رجل أنيق طلب مني الجلوس.. بعد أن عنفهم على هذه الطريقة فجلست فوق كرسي بدون ظهر.. ويقف خلفي رجلان

يحمـلان الشــوم.. وبدأ يســألنى عن شخصى واهتمامـاتـى الشخصيـة وانتمائى السياسى..

ولما لم أستجب شتمنى بأمى.. ولا أغالى حين أقـول لك أن هذه الشتمة هى أكثـر ما آلمنى فى هذه الرحلـة.. ومن بعدها اقتادونى مرة أخرى بنفس الطـريقة، حيث زنزانتى من جديد.. وهـذه المرة أحسست براحة نفسية بـدون أن أعرف السـبب.. واسـمح لى أن أقول إنه تنتابنى حالة عصبية كلما أحكى هذه المواقف فاعذرنى..

ثم مرة أخرى استدعيت للتحقيق من جديد وتعرضت لنفس التعذيب.. وبعد أسبوع آخر اكتشفت ولعلـك سوف تضحك أن صراخ الطفل الـذى حكيت لك عنه منـذ لحظات كان مجرد اسطوانة مسجل عليها هذا الصوت وكان الغرض منه إرهاب المعتقلين.. وقد اكتشفت ذلك من تكرار إذاعة نفس الصوت وبنفس الطـريقة وربما فى أوقات مختلفة.. وكانوا يتعمدون إذاعة هذه الاسطوانة عند قدوم دفعة جديدة من المعتقلين..

ولعلى أذكر أننى قد قضيت فى الحبس الانفرادى داخل هذه الـزنزانة أربعة وثلاثين يوما.. دون أن يتم أى اتصال بيننا.. ولكن مع الأيام استطعت أن أعرف من هم جيرانى من المعتقلين وعلى ما أذكر كان فى الزنزانة الانفرادية التى أمامى.. الشاعر عبد الرحمن الأبنودى.. وعرفت بوجـوده بالقرب منى عن طريق المخبرين الذين كـانوا يتسامرون معه اعتقادا منهم أنه شاعر الأغنية المشهورة «على حسب وداد جلبى» التى كان يغنيها عبد الحليم حافظ..

وقتها كان الأبنـودى شاعرا مشهورا.. وكـان نجما يحاول بعض المخبرين التقرب إليه.. واكتشفنا بعد ذلك أن تلك الحفاوة التى كانوا يعاملون بها الشاعر الأبنودى كانت تتم بناء على تـوجيهات شعراوى جمعـة ـ وزير الـداخلية ـ فى ذلك الـوقت.. والذى تم اعتقالنا بعد دخوله الوزارة بأربعة أيام تقريبا.. وقد سـمعت منه هذه التعليمات.. حين جاء لتعزيتى فى وفـاة والدتى عام ١٩٨٣.. وقتها تغير الزمن.. وبعدهـا صرنا أصدقاء خلال فترة السبعينات وما بعدها..

وفى أثنـاء لقـائى معه فى سرادق العـزاء سألنى.. هل اعتقلـوك يـاجمال؟.. فأجبتـه بالقول: طبعـا.. اعتقلت رابع يوم دخولك وزارة الداخليـة ياسيادة الوزيـر.. وكان هذا اللقاء فرصــة طيبة كى يحكى لى كيف تم اعتقالنا.. وكان يركـز فى حديث لى على وجهة

نظره الأمنية فيما تم اتخاذه ضدى وضد الآخرين من رجال الفكر الذين اعتقلوا معى أو قبلى..

أعود بك من جديد إلى حديث السجن.. فقد نقلونى مرة أخرى إلى سجن مزرعة طرة بعد هذه الأيام السوداء.. ولا أذكر لحظات فرح فى حياتى مثل لحظات خروجى من السجن الحربى إلى سجن طره..وكأنما ولدت من جديد.. ودعنى أقول لك إن لحظات الفرح فى حياتى تعد على الأصابع منها يوم حصولى على دبلوم الصناعة.. ويوم أن استلمت أول مرتب لى.. واليوم الثالث يوم انتقالى من سجن القلعة.. وعلى ما أذكر حين عودتى ولقاء الأصدقاء.. وأخذت أتحدث معهم ١٢ ساعةمتواصلة وبلا توقف.. وكانت المشكلة لمن كانوا معى فى السجن الحربى وعادوا معى من جديد إلى سجن مزرعة طره.. هى من الذى له الحق فى أن يتحدث أولا قبل الآخر..

وفى طره.. مكثت بالضبط خمسة أشهر وأربعة أيام.. وتم الإفراج عنى بعدها حين جاء إلى مصر الفيلسوف الفرنسى سارتر.. وتقريبا كان ذلك فى مارس عام ١٩٦٧.. ووقتها كان اعتقالنا له دوى خاص فى أوساط المثقفين فى أوروبا.. الأمر الذى جعل الفيلسوف سارتر يحمل معه إلى القاهرة طلبا خاصا للرئيس عبد الناصر بضرورة الإفراج عنا.. وتمت الاستجابة لهذه الطلبات، حيث أفرج عنا.. وحين خرجت من المعتقل وجدت نفسى مفصولا بقرار جمهورى من عبد الناصر شخصيا.. وكنت أيامها أعمل موظفا كرسام سجاد فى أدنى درجات السلم الوظيفى، وقبل وجودى هنا فى أخبار اليوم فى مؤسسة التعاون الإنتاجى وفقا لتخصصى كحاصل على دبلوم الصناعة تخصص السجاد..

المهم حينما ذهب والدى لاستلام مرتبى كالمعتاد.. أبلغوه بأننى أحلت إلى الاستيداع.. ومعنى ذلك أنه سوف أتسلم مرتبى لمدة ستة أشهر ثم أتسلم نصف المرتب لمدة ستة أشهر أخرى.. وقد شاهد والدى بنفسه توقيع جمال عبد الناصر الشخصى على قرار الإحالة والذى كانت تقول كلماته «يفصل جمال أحمد الغيطانى أخصائى السجاد بمؤسسة التعاون الإنتاجى ويحال إلى الاستيداع».

ولا تتصور كيف كان شعور والدى حين عرف بأننى قد فصلت بتوقيع عبد الناصر شخصيا.. فقد اعتقد أننى قد ارتكبت كارثة مثلا.. ضبطت فى شبكة تجسس أو اشتركت

فى قلب نظام الحكم.. حاجة كدة تساوى توقيع الرئيس عبد الناصر الشخصى على قرار فصل موظف مثلى..

***

*** نريد أن نعرف.. ما هو تأثير تجربة السجن على جمال الغيطانى كأديب وصحفى ومفكر أولا.. وثانيا على الفكر المصرى بشكل عام؟.**

ـ شوف.. أستطيع أن أقول لك إننى لأول مرة داخل السجن آخذ فرصة إجبارية للانفراد بالذات.. خاصة طوال الأيام الأربعة والثلاثين داخل الحبس الانفرادى.. لدرجة أننى اكتشفت نفسى معجبة بهذه الوحدة الإجبارية.. ولعلمك الزمن داخل الزنزانة الانفرادية يمر بأسرع مما تتصور لعدم وجود حركة.. إذن الزمن فى هذه الحالة قد تم إلغاؤه.. وفى داخل السجن قررت ألا يكون لى أى علاقة بأى حزب سياسى.. ثانيا: التفرغ التام للكتابة والفكر.. أما ثالثا: فقد زادت مرارتى من النظام.. الأمر الذى جعلنى أعبر عن هذه المرارة فى كل ما كتبت..

ولعلى أذكر لك أننى عبرت عن هذه التجربة فى أكثر من كتاب.. على سبيل المثال قصة قصيرة اسمها المغول وهى موجودة فى المجموعة القصصية «أرض أرض».. وفيها تجربة من التاريخ ثم المجموعة القصصية «أحراش المدينة» وأيضا تجد جدوى هذه التجربة تقف وراء قناع من التاريخ فى رواية «الزينى بركات».. المهم أن قضية قهر الفكر هذه ظلت شغلى الشاغل فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن، وتمثل ذلك فى إحساسى بالمطاردة والخوف من المستقبل، وأيضا كان لها وقعها على نفسى حتى قبل دخولى السجن.. وعلى ما أذكر.. أنه فى عام ١٩٦٢.. وكنت وقتها دائم الحضور فى ندوة نجيب محفوظ التى كانت تعقد فى كازينو الأوبرا القديمة بميدان الأوبرا ناحية العتبة وتصادف أن دخل علينا وقتها أحد الضباط.. وظل يراقبنا طويلا.. وبعد نصف ساعة تقريبا.. طلب من الاستاذ نجيب أن يكتب له تقريرا عما كان يدور بيننا.

طبعا رفض الأستاذ نجيب وأصر على إنهاء الندوة.. وعندما سألنا عن السبب عرفنا أن الرئيس عبد الناصر فى تلك الفترة كان ينوى زيارة منطقة الأزهر والعتبة ومطلوب من رجال الأمن كتابة تقارير أمنية عن هذه المناطق.. يعنى تقدر تقول إنه فى ذلك الوقت كان هناك جو ملائم لحدوث مثل هذه التجاوزات مع المفكرين ومع غيرهم.. والاغلبية

من المثقفين كانـوا يعدون أنفسهم لمثل هذه المرحلـة.. وقد صورت هـذه الفترة فى قصة بعنوان «أيـام الرعب» ولكنك تستطيع أن تجد تعبيرات مباشرة لى عن هذه التجـربة فى كتابى «تجليات» بجانب ذلك توجد بكل رواياتى إشـارات لهذه الفترة ولهذه التجربة..

*** ولماذا يسجن المفكر يا أستاذ جمال؟..**

ـ عندما يتناقض مع واقع النظـام.. وعلى عكس ما يتصور البعض أن الفكر العربى منذ أزمان بعيدة دائم الصدام مع السلطة.. وتقـدر تقول من أيام محنة الإمام أحمد بن حنبل الذى سجن بسبب اختـلافه مع الخليفـة فى مسألة رأى لاغير.. فكان عليـه إما أن يقول مثل قول الخليفة.. أو يسجن.. وقد فضل الاختيـار الثانى.. إنها مشكلة موجودة ولاتزال سمـة من سمات الثقافة العربيـة فإن الحاكم عادة ما يحاول أن يفـرض رأيه ونظامه أولا باللين.. والمراوغة.. وأخيرا بالقهر والعنف..

والمثقف بطبيعة تكوينه قلق ولذلك تجد دائما بينه وبين الواقع خلافـ.. وفى رأينا أنه إذا انتهى هـذا الخلاف فى داخل المفكر.. يكـون مصيره فى طريقـه إلى النهايـة.. فى عالم المفكريـن.. وفى حالة مـا إذا أصبح المفكر مـع أفكار السلطة على اقتنـاع حقيقى ودون تزييف أو منافقة، فإنه يصبح جزءا من النظام.. ويبتعد كلية عن طريقه أن يكون مفكرا إلى الاحسن.. أو تقدر تقول إنـه أصبح مفكرا موقوفا.. أمـا إذا أيد السلطة والحاكم عن عدم قنـاعة.. فهو فى هذه الحالـة يتحول إلى نصاب ومهرج.. إن المشكلـة الآن فى العالم العربى كلـه.. هو كيف يحافظ المفكر على استقـلاليته.. والمشكلة أيضـا هو كيف يفهم النظام فى هذه الدولة أن المفكر إذا اختلف معـه فهو ليس ضده وأن أفكاره لصالح بقية الناس.. والجماهير.. فكيف مثلا تقبض على كاتب قصة.. وتسجنه لمجرد أنـه قد كتب كلمات ضد هذا النظام أو ذاك.. ليس هذا فقط.. بل تصل فى كثير من الأحيان إلى تعذيبه وإهانته.. فى إنسانيتـه وشخصه.. ودعنى أذكر لك واقعة مرتبطة بعـالمنا الثقافى.. إننى رغم عدم معرفتى حتى هـذه اللحظة بملابسات إعدام المفكـر الإسلامى سيد قطب، إلا أننى على يقين أن الحوار معه كـان سيكون أفيد وأعظم لمصر وللنظام من إعـدامه.. لأن ارتكاب النظام لمثل هذه الواقعة قد فرخ الآلاف من سيد قطب، وأظن السـاحة السياسية المصرية تشهد بذلك الآن..

*** نعـود نسأل الأستاذ جمال الغيطانى.. عن عـدد الكتب التى كتبها سـواء فى مجال الـرواية أو فى غيرهـا داخل السجن أو تأثرا بهذه التجـربة رغم أننا عـرفنا بعضها أثناء الحوار؟..**

ـــ طبعا ظهرت تجربة السجن بشكل غير مباشر فى قصص قصيرة مثل «الزينى بركات» وكتاب «التجليات» وفى مجموعة «وقائع حارة الزعفرانى»، وإن كانت فى كتاب التجليات تقترب من الواقع قليلا.. أما تجربتى داخل المعتقل لم أكتبها حتى الآن.. وفى داخل المعتقل نفسه لم أتمكن من كتابة أى عمل أدبى.. وذلك لأسباب وكما تعرف منها عدم استطاعة الإنسان التعامل مع الورق والقلم، ومع ذلك فقد تمكنت من كتابة قصة صغيرة على ورق «البفرة» ورق لف السجاير زمان.. وقرأتها فى إحدى الأمسيات التى كنا نعقدها يوميا داخل السجن.. ثم نشرتها بعد ذلك.. وكان اسمها «أحراش المدينة»..

والغريب أننى كنت مشغولا بفكرة السجن قبل دخوله وقد بدا ذلك واضحا عندما كتبت قصة بعنوان «القلعة» عام ١٩٦٣.. وقصة أخرى نشرت عام ١٩٦٥ بعنوان «رسالة فتاة من الشمال»..

*** وهل كانت تجربة السجن بالنسبة لك.. فترة تعتبرها سوداء أم كانت نقطة انطلاق نحو عالم أوسع داخل مجال الفكر والرأى؟..**

ـــ فى بدايتها كانت فترة سوداء.. ولكنها فيما بعد تحولت إلى دفاع حقيقى نحو الاستمرار داخل عالم الفكر والرأى والأدب.. اننى أعتبرها بحق نقطة تحول.. بعد ما اكتسبت خبرة من واقع التجربة.. وربما يرجع سوادها فى بداية التجربة إلى افتقادى لعامل الخبرة والخوف والفزع.. ولكنك حين تندمج فى الحياة الجديدة وتخلو لنفسك كثيرا تتحول إلى إنسان آخر.. يفكر بعمق ويقرر أيضا بعمق وروية.. وانتصارك على نفسك فى هذه الظروف يكوّن إحساسك بقيمتك وكيانك.. وبالتالى تقرر أن تواصل المسير نحو هذا العالم بثقة أكبر..

وأعود وأقول لك إننى أعتبر فقط.. فترة التحقيق معى فى داخل السجن الحربى هى النقطة السوداء التى لا أحب أن أعود إلى ذكرها لأنه قد صاحبتها، وكما ذكرت لك، ألوان من التعذيب لى ولغيرى من المثقفين.. أما فى أيام السجن الأخرى فقد كانت خلوة إجبارية تم خلالها عقد صفقة رابحة بينى وبين نفسى، حيث اتخذت مجموعة من القرارات وحددت لحياتى أساليب جديدة.. مازلت أسير عليها حتى الآن.. ومن أبرز هذه القرارات اعتبار الأدب الاهتمام الأول والأخير لنفسى.. وإنه لاشىء يعادل تأثير الأدب بالنسبة للأديب إلا مواقفه المعلنة التى تكمل مسيرة حياته.. وبشكل عام كانت فترة السجن تحديا حقيقيا لنفسى.. ولقدراتى.. وإننى حينما أوضع فى مثل هذه المواقف

أكسب لقدرتي على تحمل المنافسة والتحديات لذلك كانت فترة خصبة في حياتي..

واعترف لك أن أكثر الأعمال الأدبيـة الجميلة التي كتبتها بعـد خروجي من السجن مباشرة تأثرا بهذه التجربـة لإيماني أن الشيء الصعب يمكن تحويله إلى دافع له أهمية يمكن أن يستفيد منه الإنسان بشرط توافر المقدرة لدى هذا الإنسان..

*** لو قلت لك.. ما رأيك في سجون مصر الآن.. وهل تـواكب تطور الجريمة في مصر الآن؟..**

ـ السجون في مصر الآن هي وريثة عصـور مظلمة في التاريخ.. أيام العصر العثماني والمملـوكي.. وكل مـا أتمناه الآن أن تتحـول السجـون إلى معسكرات عمـل للإنتـاج.. فتصـور لو كل هـذا الجيش الكبير أو الطابـور الطـويل من المسجونين قـد توجـه إلى الصحـراء.. لاستصـلاحـها.. طبعا النتيجة معـروفة والفائدة كبيرة.. في مثل هذه المناطق يتم إنشاء وتكوين معسكـرات عمل تضم هذه الطاقات المعطلـة.. ولا أميل أبدا لتحويل السجون في مصر إلى سجـون فندقيـة كما يحدث الآن في أوروبا.. في هـذه الحالة تخرج عن وظيفتها كوسيلة من وسـائل العقاب والردع.. وبشكل عام فإن عالم السجون لدينا عالم رهيب ومخيف.. وبالنسبة لنا.. كان لدينا في المعتقل بعض التقاليد ومراعاة بعض الظـروف الإنســانية.. ولكن مـا كنـا نسمعـه عما يقـاسيه المسـاجين الآخـرين شيء لايصدقه عقل..

وفي داخل هذا المجتمع تنتشر الجرائم والرذائل.. وبالتالي يتحول السجن في مثل هذه الظروف إلى بوتقة لتفريخ مـجرمين آخريـن.. إذن فالسجن هنا لا يؤدي دوره كوسيلة للإصـلاح والتهذيب.. بل يساعـد على المزيد من الجرائم.. أما فيما يتعلق بخصـوصية تبعية السجـون.. فأنا أفضل أن تكون تابعة لوزارة العدل وليس لوزارة الداخلية.. حتى يكون للوزارة حق التفتيش الدائم.. لأن السجين بعد الحكم عليه يتحول إلى وديعة في يد الدولة مسئولة عنه حتى يخرج.. وكذلك مصلحة السجون.. لابد أن تكون تابعة إداريا لوزارة الداخلية أما تفتيشا وإشرافا فلا بد أن تتبع وزارة العدل..

*** ولو كان جمال الغيطاني مأمورا لأحد السجون الموجود بداخلها مفكرين.. ماذا كان يفعل؟..**

ـ في الواقع أنـا أذكر أنه كان يوجد في المعتقل في فترة وجـودي أحد الضباط اتصف بالإنسـانية.. وعلى أية حـال.. فإن مأمور السجن في كل الحالات ما هـو إلا رجل منفذ

للتعليمات.. وأقدر أقــول لك من خلال تجربتى إننى قد تعــرضت لنوعين من السجن.. سجن التحقيق وسجن الاعتقال.. الأول تـديره المبـاحث العامة.. والآخر يديـره أحد ضباط مصلحة السـجون واسمه فتحى.. هذا الرجل كان على علاقة طيبة جدا بالمفكرين وكان صديقا للجميع كما كان يعرفنا جميعا.. ويدخل علينا الزنازين فى أى وقت.. وكان يتصدى لحل أية مشكلة تواجهنا..

اما فى حالة وجودى كمسئول عن السجن.. سوف أحاول إنسانيا أن أقترب من عدد اكبر من هـؤلاء المسجـونين المفكـرين.. وأحـاول التقـرب منهم مع التـزامى الكـامل بالتعليمات والاوامر.. ويكـون تعاملى مع المساجين فى حدود هـذه التعليمات وكذلك فى التطبيق.. لأننا اكتشفنا فى كثير من الحالات أن هناك تجاوزات عديدة تصدر من بعض الضباط والبعض الآخر كان ينفـذ التعليمات وهو مجبر عليها.. وأحب أن أقول لك إننى لم أتخيل نفسـى ولو فى الأحلام ضـابط سجون.. حتى ولو فى أعمالى الروائية..

*** ولو كنت رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليك كشف بأسماء معتقلين مفكرين.. ماذا كنت تفعل؟..**

ـــ بصراحـة.. أسعى للحـوار معهم أولا.. وبـالعكس بـدلا من أن أصـدر أوامـرى بالقبض عليهم أواعتقالهم.. لاننى على يقين أن مـن يسجن مفكرا او اديبا لايستحق أن اسميه.. ومع ذلك لابد أن تعـرف أنه ليس هناك أديبا أو مفكرا فـوق القانون.. المهم أن تحاكمه أولا.. وإذا تمت إدانته يقبض عليه فورا وينفذ فيه العقوبة.. وهذه تندرج تحت حالات الإدانة والتحقيق التى يتعرض لها أى إنسان فى المجتمع.. ولكن إذا كانت التهمة فكرا معـارضا فـلا ألجأ مطلقا إلى عقـوبة الاعتقال أو السـجن.. بـل أسعى إلى مجادلته وحواره.. وبـالعكس فإن الآراء المعـارضة عـادة ما تؤدى إلى فـائدة كبيرة للمجتمع.. وأضيف أننى إذا كنت رئيسا للحكومة ومقتنعا بالآراء المعارضة أسعى للحوار معها.. فمن المؤكد سوف أختار وزيـرا للداخلية يتميز هو الآخر بنفس الصفـة بجانب صفاته الامنية الأخـرى.. ولكن للأسف هذا لايتم عادة فى دول العـالم الثالث.. لأن كل رئيس حكومة همه الأول إرضاء الحاكم وفقط..

الحكاية السابعة يرويها صلاح عيسى:

حكايتي مع السجن بدأت في عهد عبد الناصر!!

لم أجد كلمات تعبر عن محنة السجن بالنسبة للمفكر، فيها الصدق والمعاناة.. والألم والقوة.. سوى ما كتبه الزميل الصحفي صلاح عيسي من كلمات كان ينشرها هنا وهناك بين الحين والآخر.. هذه حقيقة نقلتها بإخلاص ولا أعرف السبب.. فقد حرصت أثناء إجراء هذه الحوارات على قراءة أكبر عدد من الكتب التي طرحها هؤلاء المفكرين.. سواء قبل أن أسجل معهم أو بعد التسجيل.. ورأيت في بعض كلماتهم التي سطروها في هذه الكتب مدخلا دفعني بقوة نحو المضي قدما نحو عالم السجن وتأثيره على المفكر وحياته وتكوينه..

وكثيرا ما كنت أمر على ما كتبوه بسرعة دون أن أتأثر أو يصيبني الغم والهم.. إلا صلاح عيسى.. لقد ظلت كلماته التي قرأتها عن تجربته في السجن واقفة فوق صدري ليال طويلة.. وكثيرا ما حاولت الهرب من تأثيرها.. وسرعان ما يهاجمني هذا التأثير كلما أعاود الكتابة عن هذه التجربة من واقع حواري معه مثل غيره من المفكرين المصريين الذين كانوا ضيوفي عبر هذه الصفحات.. وكنت أفكر في أن أنقل إليكم بعض هذه العبارات والكلمات، ولكنني تراجعت في الوقت المناسب.. وعقدت العزم على أن أكتفي فقط بما قاله لي وما سوف أنقله إليكم عبر هذه الصفحات من واقع شريط التسجيل ولكنني ربما أضطر إلى الاستعانة ببعض كلماته وسط الحوار.. كي أنقل صورة صادقة لمعاناة المفكر وأحواله داخل الزنزانة.. تعجبا على تلك الأوضاع السياسية التي تسمح لمن يقتربون منها بأن يتم وضعهم في السجن بلا محاكمة مع اقتناعهم الكامل بأن المفكر هو أثمن رجل في المجتمع.. وبه وبأفكاره يتم إثارة عقول الجماهير.. ولكنها الأزمنة الغابرة التي ترفض وتفرض على الإنسان والمجتمع أوضاعاً يكرهها.. وإن قبلها فهو القهر بعينه..

وبصرف النظر عن شخصية الحاكم أو فترة الحكم.. فإن الحديث يتناول قضية تأثير السجن على الفكر المصري ولماذا يلجأ رجال السلطة عادة إلى السجن كعقوبة لأصحاب الفكر والرأي..

*****

قبل كلمات هذه المقدمة بثوان كنت أفكر في استخدام عنصر الزمن كمدخل لحديث هذا الحوار.. ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أنني قد استخدمته من قبل.. ومن ثم كان علينا أن نبحث عن طريق غيره.. وقد كان.. لقد وجدت في كلمات صلاح عيسى التي كتبها في أحد كتبه تحت عنوان «تباريح جريح» خير مقدمة.. توجع القلب والعقل.. وتجعلك تخاف من الفكر حياة المفكرين.. ولكنها ضريبة الذين يحملون مشاعل الفكر.. ويحلمون بواقع حياة جديدة.. ويتوقعون أيضا حياة النوم فوق الأسفلت وأكل الفول أبو زلط.. مع أنه من العدل أن يعيشوا وفقا لفكرهم ويستفاد بآرائهم مهما اختلفنا معهم.. فإن الخلاف في الرأي ليس معناه عقوبة السجن والاعتقال..

بقيت لنا كلمة قبل أن ندير الشريط كي نستمع جميعا لتفاصيل الحوار، إنني لا ابغي من وراء هذا المجهود المضني سوى تسجيل كلمة حق لله وللتاريخ عن واقع فترة زمنية مرت بها بلدنا الحبيبة مصر.. بصرف النظر عن الاختلاف أو الاتفاق في الرأي أو المذهب السياسي أو العقائدي.. لأن الفكر لا يفرق بين هذا وذاك مادام الطريق الوحيد هو الكلمة.. ولا شيء غيرها..

والآن حان الوقت كي ندير الشريط ونسمع الأستاذ صلاح عيسى يتكلم وأنا من بعد التسجيل معه أنقل لكم تفاصيل الحوار عبر هذه الأوراق..

***

*** نريد أن نعرف من الأستاذ صلاح عيسى.. كم مرة دخل فيها السجن أو المعتقل أو التحفظ باعتبار أنها ألفاظ لمسمى واحد؟..**

ـ أنا اعتقلت في أول مرة في ٤ أكتوبر عام ١٩٦٦ والسبب ثلاث مقالات نشرتها في إحدى صحف بيروت وتسمي «ملحمة الحرية».. والمقالات كانت بعنوان «الثورة بين المصير والمسير».. وقد اعتبرها القائمون على ثورة يوليو آنذاك أنها نقد حاد للثورة وقادتها.. هذه المقالات نشرت من يوليو إلى سبتمبر.. وبمجرد الانتهاء من نشرها اعتقلت.. وكنت ضمن عدد كبير من الصحفيين والكتاب والمفكرين المصريين.. مثل سيد

حجاب وجمال الغيطاني وعبد الرحمن الأبنودي وآخرين..

ورغم أن هذا الاعتقال كان قصير المدة فقد استغرق ستة أشهر، إلا أنه كان كثيف التعذيب في فترتـه الأولى.. وأفرج عنا في مارس عام ١٩٦٧ ثم أعيد اعتقالي في مارس ١٩٦٨.. والسبب الاتهام بالمشاركة في مظاهرات الطلبة التي اشتعلت آنذاك من ١٧ إلى ٢١ فبراير عام ١٩٦٨.. وهذا الاعتقال كان أطول من سابقه.. فقد مكثت ثلاث سنوات بالمعتقل وخرجت عام ١٩٧١.. أما المرة الثالثة.. فقد كانت من عام ١٩٧٥ واستمرت كذلك عدة أشهر وفيها قدمت للنيابة من الناحية الظاهرية فقط.. أما في جوهرها فكانت أيضا اعتقال.. ومن عام ١٩٧١ حتى هذه الفترة لم أسلم من المضايقات والتحقيقات وبدأ الاعتقال في صورة أخرى مثل الرفد من الوظيفة عام ١٩٧٣..

في هذه المرة الأخيرة التي ذكرت لك فيها أنني مكثت أربعة أشهر تم الإفراج عني فيما يسمى قانونا على ذمة القضية التي لم تتم حتى الآن.. وفي المرة الرابعة عام ١٩٧١طلبت في التحقيق بمناسبة أحداث ١٨ و١٩ يناير ولكنني نجحت في الهرب هذه المرة لمدة عشرة أشهر.. فقد جاءوني فعلا من أجل اعتقالي مثل كل مرة.. وفور معرفتهم بي نجحت في الإفلات والهرب إلى أن قبض علي في أكتوبر أو سبتمبر من نفس العام، وقدمت للمحاكمة على ذمة القضية بعد أن مكثت أربعة أشهر داخل السجن.. وكنت من بين الذين برأتهم المحكمة في هذه القضية..

أيضا في عام ١٩٧٩ قدمت للمدعي الاشتراكي للتحقيق معي، ولم يصاحب هذا التحقيق دخول السجن.. وفي يناير عام ١٩٨١ ألقوا القبض علي عندما وزعنا بيانا في معرض الكتاب الذي عقد آنذاك نطالب فيه بمقاطعة الجناح الإسرائيلي في المعرض.. واعتقال هذه المرة لم يستمر طويلا.. لأنه قد أحدث ضجة في حينها.. وعلى ما أذكر استمر ثلاثة أسابيع.. وتم بعدها الإفراج عني على ذمة القضية.. ولتصفية حساب هذه الفترة تم اعتقالي أيضاً لآخر مرة في سبتمبر عام ١٩٨١.. وتم الإفراج عني بعد وفاة الرئيس السادات.. وكنت ربما آخر دفعات هذا الإفراج..

*** يعني نقدر نقول كم مرة يا أستاذ صلاح؟**

ـ الحقيقة أنا لم أعدها، ولكن تقدر تقول.. ست مرات حتى الآن والحمد لله.. لم يمسسنا شيء في عهد الرئيس مبارك.. ولا أظن أنه سيحدث إن شاء الله..

*** في تصور الأستاذ صلاح عيسى.. ما هو سبب كل هذه الاعتقالات؟..**

ـ طبعا السبب الأساسي هو في معظمه يتعلق بالفكر والموقف السياسي.. وأيضا بالصحافة كممارسة.. يعني المرة الأولى كانت بسبب مقالات نقدية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. وكنت أطالب من خلالها بمساحة أكبر مما كان متوفرا للحرية والديموقراطية.. وقد اعتبرها عبد الناصر كما نقل لي بعد ذلك خروجا على نظام الثورة.. وعارف السبب يرجع إلى تفتح وعيي السياسي قبل الثورة وارتباطه بديمقراطية حزب الوفد.. لقد كانت قبضة الديمقراطية تأثرا بالجو الذى كان سائدا قبل الثورة.. هي شغلي الشاغل.

وعلى فكرة فى المرة الأولى أنا لم أعتقل فقط، بل فصلت، فقد كنت موظفا وأكتب في الصحف المصرية والعربية.. وجاء هذا الإجراء بناء على مذكرة كتبها السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت.. وقدمها إلى الرئيس عبد الناصر الذى وقع عليها بالتنفيذ للاعتقال والفصل..

برضه فى المرات التالية.. كانت بسبب موقفي من الديموقراطية فمثلا في عام ١٩٦٨.. كانت أول مظاهرات تقوم بعد الثورة ويتقدمها شباب الجامعات.. وفى عام ١٩٧٥ كانت التهمة الموجهة إلى أننى كنت أذهب إلى الجامعة.. وألقى محاضرات.. وأنادى بالديموقراطية والتعددية الحزبية وفى عام ١٩٧٧.. كذلك ارتبطت بقضية الديموقراطية رغم ارتباطها بانتفاضة الطعام.. وكانت التهمة أننى من خلال الكتابة والمحاضرات كنت أهيىء الجماهير وأثيرهم من أجل هذه الانتفاضة.. وفى وقتها حدث بيني وبين رجال النيابة مناقشات على جانب كبير من الأهمية.. لاننى اكتشفت أن ما أقوله فى المحاضرات وما أكتبه وينقل عني.. كله فيه تحريف.. من هنا تستطيع أن تقول إن السبب يرجع إلي السعي الدائم من أجل قضية الديموقراطية رغم أننى كنت ومازلت اشتركيا.. ولكن الديموقراطية فى تصورى هي جزء من الاشتراكية.

*** ما هو تأثير تجربة السجن على فكر صلاح عيسى أولا.. ثم على الفكر المصري آنذاك؟..**

ـ هو طبعا تجربة السجن.. من التجارب التي لا يمكن أن يمر بها إنسان وخاصة لأسباب فكرية وسياسية دون أن تترك تأثيرات أساسية فى حياته.. سلبية أو إيجابية حسب طريقة الإنسان في التفاعل مع التجربة وحسب الظروف السياسية التى تعتقل خلالها.. الحبس مثلا في عهد عبد الناصر، كان سببه معارضته شخصيا.. لأن المعارضة

فى أيامه لم تكن مقبولة.. وربما كان يرجع ذلك إلى قوة شخصيته التي جعلت إحساسك بالمعارضة أمامه لا تساوى شىء.. وأيضا إحساسك بأنك ريشة تقاوم تيارا قويا لدولة تملك كل شىء.. ورجل يحكم بمفرده..

وعلى سبيل المثال.. كنت أعمل موظفا فى الدولة التى يحكمها عبد الناصر.. وبعد دخولى السجن وخروجي منه.. فصلت من العمل، وحاولت البحث عن عمل فى مكان آخر ولم تفلح محاولاتي، لأن الدولة فى ذلك الوقت كانت تملك كل شىء حتى مقادير وأرزاق الناس.. فالشركات ملك الدولة.. والحكومة ملك الدولة.. وكل شىء.. مما جعلني أعتبر هذا الرفد نوعاً من الإعدام البطىء.. لأننى كنت موظفاً حكوميا خريج جامعة.. وأعمل أخصائيا اجتماعيا.. ولو كان في يدي مهنة أخرى لكنت مارستها.. ولكنني خلقت هكذا موظف وكاتب ومفكر.. لقد كانت تجربة قاسية هزت داخلى بعنف.. ومع ذلك أقدر أقول لك إنها أعطتني في الوقت نفسه نوعاً من التفاؤل الداخلى.. يعنى كل شىء لا يدوم وأن الأمور فى أصلها مصيرها الزوال، وبالتالى ولدت عندي قوة دفع إلى الأمام.. يمكن ذلك لم يظهر لى فى أول مرة، فحين خرجت آنذاك أمشى بجوار الحائط تجنبا للإهانة التي ذقت مرارتها فى أيام السجن داخل الزنزانة.. لأننى قد تربيت فى أسرة عودتنى على احترام الذات وكره الإهانة.. وبالتالى تولدت بداخلى ما يمكن أن تسميه كرامة الطبقة الوسطى.. ولكن بشكل مبالغ فيه بالنسبة لى شخصيا..

وفي الاعتقال الثانى.. حاول السيد خالد محيى الدين ونايف حواتمه التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عنى.. ولكنهما أرسلا لى رسولا يحمل لى كلمات عبد الناصر الذى نقل لهما أنه لن يفرج عن صلاح عيسى مادام هو على قيد الحياة.. ولم يقصدنى وحدى بل كنا ثلاثة معتقلين أناوالشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم.. فلا يمكن أن تتصور أنك سوف تخرج إلى الحياة بعد هذا التهديد.. ولم نكن بالتالى نتصور أنه سوف يموت وهو في عز قوته.. وبجانب أننى رغم هذا التهديد لم أكن أحسب أن يموت عبد الناصر..

بصرف النظر عما أنا لاقيته وزملائى من المفكرين على يد رجاله.. وكذلك تفاجأ بقدوم عام ١٩٧٠ وأن عبد الناصر مات.. وأنك خرجت من المعتقل بعد وفاته.. وكأنما تحققت كلماته.. وفعلا لم نخرج إلا بعد أن مات.. فقد خرجت فى فبراير بعد أربعة أشهر من وفاته حيث مات في سبتمبر عام ١٩٧٠.. حين قرر الرئيس السادات تصفية

المعتقلات، يعنى تقدر تقول حياتي منذ الاعتقال الأول كانت بين الافراج والاعتقال والرفد والصعلكة في الشوارع.. رغم أننى أنتمى إلى أسرة مستورة إلا أن اتجاهى السياسي لم يكن يروق لها.. أضف إلى ذلك أن بعض أفراد أسرتى أغلبهم يعمل في الحكومة في مناصب حساسة مثل البوليس.. الأمر الذى جعل أغلبيتهم يتنكر لي، خوفا على مناصبهم..

من هنا أخذت اختيارى على عاتقي وبمفردى.. واتخذت من عقوبة السجن وسيلة دفع إلى الامام حيث الاستمرار في العمل السياسي والفكر والكتابة والتمسك بحرية الرأى والدفاع عنها.. وفي كل مرة أخرج فيها أجد الحياة بالنسبة لى تبدأ من جديد.. مثلا تجد عملا جديدا أو مصدر رزق جديدوهكذا.. لقد كان ذلك أحد التفاعلات الإيجابية الهامة لتجربة السجن.. من حيث أنها عودتنى على الصبر وحسن الاختيار والانطلاق إلى الأمام بلا رجعة إلى الخلف.. ولذلك تجدنى ووفقا لهذه التفاعلات لم أراجع اختياراتى كثيرا.. ورغم كراهيتى الشديدة لعقوبة السجن إلا أننى بعد المرة الأولى لم أعد أخاف منها.. ولم أخف من تكرارها في حياتى مرة أخرى.. وأبدأ في ممارسة طقوس هذه الفترة العقابية.

مثلا تجدنى أظل نائما في زنزانتى أكثر من أسبوعين متواصلين لاننى بالفعل لم أكن انام خارجها بالقدر الكافي، ربما بسبب التكالب على الرزق.. ومن جانب آخر لاعتقادى الشديد أنك يجب الا تفكر في أمر الخروج. لأنك وحسب تجاربى في هذا الميدان.. لابد وأن تعيش خلف هذه الجدران أكثر من أربعة اشهر.. ثم تبدأ في التفكير في عملية الخروج أو الإفراج.

إن السجن بشكل عام له تاثير مهم وخطير على المفكر المصرى بشكل عام.. واذكر لك مثلا المفكر المصرى سلامة موسى.. في كتابه «تربية سلامة موسى».. الذى سجل فيه تجربته داخل السجن.. حيث وجد نفسه بعد أربعين عاما من الكتابة والتفكير والعمل العام.. وسط الحرامية والنشالين والقتلة.. بدلا من التكريم.. وقد قبض عليه أيام صدقى باشا.. إن هذه التجربة تخلق لدى الإنسان نوعا من المرارة.. وعايز أقول لك إن السجن فعلا قرين التفكير في بلاد تسود فيها الدكتاتورية.. ولا تقبل الخلاف في الرأى وتضيق بأصحابه، وتجد أن السجن هى المكان الطبيعى لهم.. ولكن من الناحية العملية تجد أن السجن فرصة للتأمل مفروضة عليك بالقوة.. وخاصة فيما يسمى

بالحبس الانفرادى الذى حرمته منظمات حقوق الإنسان.. وكثيرا ماكنا نفكر ونتساءل عمن هو الشرير الذى ابتدع فكرة السجن الانفرادى.

لقد كانت مسألة صعبة جدا.. أن تأتى برجل وتضعه بين أربعة جدران وتتركه أياماً أو شهراً دون أن تعذبه.. فذلك الموت بعينه ومقاومة هذا العذاب يتوقف على ثرائك الداخلى.. بحيث تحاول أن تستثمر هذا السجن وهذا العذاب المتمثل فى الوحدة.. فى إبداع فكرة.. أو تصور واقع.. أو تخطيط لحياة جديدة.. ويأتى ذلك كله من تركيز حياتك فى التأمل.. وهذا فى تصورى هو الطريق الذى يمكن أن يسلكه الكاتب والمفكر فى كسر سم هذه الفترة.

*** وإذا خصصنا هذا السؤال وقلنا.. لماذا يسجن المفكر فى مصر أو فى دول العالم الثالث على وجه العموم؟**

ـ هو طبعا.. الأنظمة عموما فى دول العالم الثالث وفى مصر فى فترة من الفترات قد قامت على فكرة أن الحاكم لايقبل الخلاف فى الرأى، وأن الخلاف بالنسبة له يعتبر تطاولاً عليه شخصياً وانتقاصاً مما قد يؤديه فى وطنه.. وقد يكون يؤدى فعلا لوطنه خدمات.. ولكن المسألة بالنسبة للمفكر هو حالة الاعتراض المستمرة والشاملة التى ربما تكون للكون كله، وفى هذه الحالة لايجد الحاكم الدكتاتور أمامه من وسيلة لإسكات صوت المفكر إلا السجن والاعتقال.. وبالنسبة لمصر كان هناك فى العهد الناصرى خطة عن قناعة تبلورت فى ضرورة تصفية العناصر المعارضة أو المضادة للثورة، ودمج كل التيارات المختلفة فى تيار واحد يقف خلف الثورة.. والذى كان يخرج عن هذا التيار كان لابد من أن يتعرض لعملية بلورة داخل السجون والمعتقلات حتى يخرج كى يؤيد ويقف أمام النظام بدلا من الوقوف خلفه أو ضده، وذلك من جراء مايلاقيه فى هذه المعتقلات من معاملة غير إنسانية وعادة ما يصاحبها نوع من التعذيب والتغريب والمهانة.

وحتى عندما تخرج من السجن تبدأ المرحلة الثانية من هذه البلورة والتى تتمثل كثيرا فى عرض المناصب والإغراء المادى وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. والنتيجة تكون كما يتوقع رجال الثورة.. يصبح المعارض رجلا مبسترا.. قابلاً لأن يقف معهم بكل كيانه ويفقد بذلك فكره و رأيه ويحضرنى فى ذلك مثال سمعته فى جلسة خاصة.. كان يحكيه المتحدث كمثال لما يجرى فى أحد الانظمة العربية.. قال إن ٩٠٪ من شعوب العالم

الثالث تقبل العيش حتى على الكفاف.. والحاكم الدكتاتورى الشاطر هو الذى يستطيع أن يمد هذه النسبة بما يكفيهم من الطعام والشراب، وهناك ٧٪ من هذه الشعوب لاهم لهم سوى جمع الأموال والسرقة، وهؤلاء أمر معالجتهم ميسور.. أما نسبة الـ ٣٪ الباقية فهى تمثل أصحاب الرأى والفكر.. وعادة مايحاول الحاكم القضاء عليهم بالتصفية والقتل حتى يأمن شرهم.. ويتمكن من الاستمرار فى حكمه فترة أطول.. لأنه يعرف مقدما أنه سوف يفشل فى التفاهم معهم بالطرق العادية المرتبطة بالبطون والجيوب.. وأن القضاء عليهم بهذه الصورة سوف يجنبه شرهم الذى يمكن أن يمتد لبقية النسبة من السكان.

*** وماهى الطريقة المثلى فى رأيك لمعالجة الرأى الآخر.. بعيدا عن شبح السجن..؟**

ـ أن تسود حقوق الإنسان فى أن يعارض ويقول مايشاء ويكتب مايشا.. ولابد من الاعتراف بها.. وتنظيم الوسائل التى بها تسود هذه الحريات.. عندئذ فإن حجم المخاوف المصاحبة لسيادة هذه الحريات.. حين الممارسة سوف تقل.. أو تنعدم.. والمهم هو الاعتراف بحرية الرأى والرأى الآخر وفقا للشريعة والقانون والأخذ بهذا الرأى مهما كان معارضا مادام يقدم الحلول.. وعلى ذلك لابد من أن نتوقف عن الاعتقاد بأن الحاكم مقدس ولايجب نقده.

*** نريد أن نعرف بالضبط.. ماهى الشخصيات السياسية والشخصيات العامة التى تعرفتم بها داخل السجن؟ وماهى أهم المواقف الطريفة والمواقف المحزنة التى واجهتكم؟..**

ـ ياه.. كتير قوى.. وفى كل مرة من مرات السجن أتعرف على الكثير ويمكن أعرفهم قبل الدخول إلى المعتقل بحكم انتمائى السياسى إلى اليسار المصرى الذى كان فى فترة من الفترات أكثر الجهات السياسية تعرضا للاعتقال.. ولكن فى آخر مرة من مرات الاعتقال عام ١٩٨١ شاهدت داخل المعتقل نوعيات مختلفة من المفكرين والسياسيين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية والفكرية.. وأنا أذكر فى اليوم الأول لانتقالنا من سجن الاستقبال إلى السجن الملحق بطره.. وقفت فى زنزانتى أتابع طابوراً من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزنازين المجاورة.. رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها.. تقلبت عليهم العهود والأزمان.. وقد استغرقنى مشهد المرحوم

عبدالعزيز الشوربجي نقيب المحامين الأسبق.. وكانوا قد اعتقلوه من فراش المرض وهو يصعد السلم بأعوامه السبعين.. بخطوات بطيئة واهنة وحوله عبدالعزيز محمد وأحمد ناصر يحاولان مساعدته فيرفض بإباء..

وحين استقرت الأوضاع وجدت نفسي فى زنزانة واحدة وكانت رقم (١٤) مع محمد عبدالسلام الزيات وفؤاد سراج الدين وقد قاوما بشدة ونبل حقيقي تطوعي بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسيطة فى زنزانتنا المشتركة بحكم سني الصغيرة، لكنهما اضطرا للرضوخ، ولأن الزنزانة كانت الوحيدة التي لا إضاءة بها، فقد أمضينا الليالى الأولى نستمع إلى ذكريات فؤاد سراج الدين، بينما بقية الزملاء يقضونها فى سمر.. ويوما بعد يوم كانت آلامي النفسية تزيد وشوقي لأبي يملأ القلب وخوفى أن يموت فتحول الأسوار بيني وبين أن أقبل جبينه.

هذه الآلام كنت أصرفها عادة فى تأمل مناضلي الحرس القديم وهم يتجولون فى فسحة الضحى أمام زنزانتي.. ومنهم كان فتحي رضوان الله يرحمه وفؤاد مرسى وإسماعيل صبرى عبدالله وابراهيم طلعت وآخرون.

ومن الشخصيات المهمة التي اقتربت منها كذلك فى هذه الفترة عبدالسلام الزيات الذى كان يتميز بأنه قليل الكلام، وبدا لى فى أوقات كثيرة كأنه رجل داخل نفسه.. وكان يوم ١٧ سبتمبر عام ١٩٨١ واحدا من أيام الحزن العظيم بالنسبة لعلاقتي بهذا الرجل.. فقد جاء الطبيب والمأمور كي يطلبا من الزيات أن يجمع حاجياته لينقل فورا إلى المستشفى، فالسجن غير مسئول عن حياته لأن حالته الصحية حساسة للغاية ورفض الزيات بعناد أن يدخل مستشفى السجن.. وبعد عدة اتصالات وافق المسئولون على نقله إلى أحد المستشفيات الجامعية وليس إلى أحد مستشفيات السجون.. ومن ثم غادرنا الزيات قبل الغروب بقليل واحتضنته مودعا ومشجعا..

أما عن الحكايات والمواقف المحزنة التي صادفتني وراء القضبان فهى حكاية موت عبدالعظيم أبو العطا.. فلم يكن قد مضى علينا فى السجن سوى عشرين يوما.. وأذكر أنه وصل ذات غروب.. حين صاح النقيب سامي سرحان من الدور السفلى أن ضيفا جديدا قد عاد من مستشفى سجن الاستقبال وهو عبدالعظيم أبو العطا وزير الرى الاسبق.. لقد رأيته فى الصباح وأنا أسلم الزنزانة رقم ١٧ صحفها، رحبت به وحييته وسألته عن أماناته وعما يريده من الكانتين كي أدبره له.. وفى ضحى اليوم نفسه رأيته

مرة أخرى في العيادة والطبيب يفحصه وقد بدا لي شاحبا وهزيلا أكثر من المعتاد.. ولم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية، لكن وزنه كان يزداد هزالا وكان مصابا بالقرحة في المعدة ويتطلب غذاء خاصا.. لذلك كان ولأسابيع طويلة يعيش على اللبن الزبادي فقط..

وفي اليوم المشئوم كنا في انتظاره، فاليوم كان مخصصا لمناقشة محاضرة ألقاها قبل أيام داخل السجن عن مشكلة الأرض الزراعية.. وكنت مازلت أعد الكوبونات التى أوزعها على زملائي.. وكان عبدالعظيم أبو العطا قد دخل زنزانته ليستريح كما سمعته يقول للأستاذ هيكل، ولا أذكر أننى رأيت زميلنا الطبيب على نويجى وكمال الابراشى وهما يدخلان الزنزانة رقم ١٧، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعورا ويصرخ طالبا أنبوبة أوكسجين.

لقد تحركت على الفور فالأنبوبة كانت في عهدتى داخل الزنزانة وبسرعة شديدة انتقلت الأنبوبة الضخمة إلى الزنزانة رقم ١٧.. وجلست صامتا ولاهثا، عرف الوافدون للمشاركة في الندوة أن «أبو العطا» يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين.. ومرت دقائق طويلة.. وربما ثوان خرج الطبيب بعدها يصرخ: مات عبدالعظيم أبو العطا.. وعلى الفور أخطر الشاويش محمود الإدارة.. ومضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم، ضباط كبار وضباط صغار.. دخلوا الزنزانة رقم ١، خرج كبيرهم وقال لنا البقية في حياتكم.. وأنا أذكر وقتها أننى ظللت جالسا أمام الزنزانة حتى تقدم الليل.. جهزوا الجثة استعدادا للرحيل خارج السجن إلى المقابر.. وقتها حاولت أن أمنع نفسى من البكاء فلم أستطع..

*** نريد أن نعرف من الكاتب الصحفي والمفكر صلاح عيسى هل من رأيه أن يكون للمفكرين سجونا خاصة.. أم يزج بهم وسط غيرهم من المسجونين الذين تمت إدانتهم في قضايا سرقة ومخدرات؟..**

ـــ هو من ناحية الخبرة الإنسانية.. فإن معاشرة أى أنماط أخرى من البشر هى تجربة مفيدة بالنسبة للمفكر.. وبالنسبة لي أنا شخصيا فقد استفدت كثيرا من هذا الاختلاط، سواء وسط تجار المخدرات أو اللصوص أو القوادين.. أو جرائم الثأر.. لقد كان اختلاطا جميلا ومفيدا.. وعلى فكرة أن للسجن طقوسا خاصة به.. وتآلف وتعاطف اجتماعي بعيد الأثر، وأيضا تجد بداخله قوى الصراع والحاجة.. بحكم

الظروف التي تفرض عليك داخل السجن وفيه أيضا نوع من أنواع التسامح باعتبار وجودنا داخل هذه الجدران إقامة جبرية.. وعلى ذلك فلا يجب علينا أن نتشاجر أو نتخاصم ونصدر أحكاما ضد بعض.

ويحدث ذلك أيضا بالنسبة للجرائم الجنائية وإلى آخره.. ومحصلة التجربة.. عالم جديد بالنسبة للمفكرين من الممكن الاستفادة منه والخروج بتجربة ثرية وعظيمة.

ومن ناحية الراحة والمعاملة الحسنة والاحترام، فلابد وأن يكون بالفعل للمفكرين سجنا خاصا بهم أو على الأقل إذا مكثوا في نفس السجن، فلابد وأن تتوافر لهم حياة أفضل ومعاملة أحسن.. لأن المفكر يحتاج إلى أشياء لايحتاجها المسجون العادى.. من أجل ذلك إذا لم يكن هناك مكان خاص لهؤلاء المفكرين فلابد من الاستجابة لبعض هذه المطالب الأساسية مثلا المفكر يحتاج إلى القراءة والكتب والورق والقلم مثل الأكل والشرب تماما.. وأيضا الاستماع إلى الإذاعات .. فمثل هذه الحاجات لابد وأن تكون مكفولة له داخل السجن.. سواء داخل السجن الخاص به كمفكر أو السجن المختلط.. وعموما السجون المصرية تحتاج الآن إلى ثورة حقيقية لتغيير أوضاعها.. وكان كل مايشغلنا ونحن داخل هذه الجدران أننا حين نخرج لابد لنا وأن نطالب بقوة من أجل وقفة جماعية عن طريقها نناشد بتغيير السجون المصرية شكلا وموضوعا.. وللأسف حينما نخرج لايتم لنا ذلك وكأننا نريد أن ننسى هذه الفترة العقابية من حياتنا.. وفي إحدى المرات على ما أذكر ونحن داخل السجن أقمنا ندوة كبيرة حضرها مثلا الدكتور حلمي مراد واتخذنا قرارات من أجل مناشدة المسئولين من أجل تحسين أوضاع السجون في مصر.. سواء كنا بداخله أو خارجه.

وعن نفسي حاولت الوفاء بهذا الوعد فور خروجي من السجن.. وعلى صفحات الأهالي خلال أعوام ٨٢، ١٩٨٣ حاولت أن ألفت الأنظار للمعاملة غير الإنسانية التي يلقاها الإنسان المصري داخل السجن وجندت لهذه الحملة مجموعة من المحررين الشبان من أجل إثارة هذه القضية ومحاولة تحسين الفلسفة العقابية من منطلق أن كل هذه السجون في مصر اقيمت في عهد الاستعمار.. أو قل معظمها.. وشهدت فترة من التخلف تبعد عن الفلسفة العقابية المقصود بها.. هو الانتقام.. وليس الإصلاح.. ولكن الغريب إنني حينما حاولت أن أبدأ هذه التحقيقات.. فوجئنا بنقص المعلومات.. بل ورفض المسئولون عن السجون إعطاءنا بيانات صادقة عن السجون.

مثلا عددها وعدد المقيمين بها وهكذا.. أضف إلى ذلك أننى أعرف مثلا انخفاض مستوى معيشة السجانين.. الأمر الذى يؤدى إلى سوء المعاملة وتحولهم فى بعض الأحيان إلى وحوش آدمية لا هدف لها سوى امتصاص دماء المسجونين..

*** ذكرتم لنا فى حديثكم ردا على السؤال قبل السابق.. أنكم التقيتم بالعديد من الشخصيات العامة والسياسية.. فهل تذكرون شخصيات أخرى غير سياسية أو فكرية؟ وبالضبط شخصيات من المسجونين غير السياسيين؟**

- طبعا.. لقد تعرفت على العديد منهم.. وبعضهم من الضباط.. أيوه بعضهم كان من ضباط السجن.. فقد تعرفت على اثنين من ضباط السجون.. منهم واحد كان وقتها عقيد واسمه ناصف مختار.. وأرجو من الله أن يكون مايزال حيا.. لقد كان مدير معتقل طره السياسى وهو مسيحى.. فى الفترة التى اعتقلت فيها عام ١٩٦٦.. وأقول إنه كان مسيحى الديانة لأنه كان قائد معتقل طره الذى خصصته الحكومة لاعتقال الإخوان المسلمين، فى ذروة معاداة النظام للإخوان.. وقد اكتشفت فى هذا الضابط نموذجا عاليا من الرجل المصرى الطيب الشهم.

بالفعل لقد كان نموذجا لضابط السجن المصرى الذى يمكن أن تسميه رجل الواجب الذى يؤدى واجبه بالذمة والقانون والضمير وليس له شأن فى أن يعامل الآخرين بما يفهم منه استغلال السلطات.. مع أنه كان يمكن أن يكون ذلك وأكثر.. واللوائح والقوانين كانت تعطيه هذا الحق.. إننى أشهد أن هذا الضابط المصرى لم يستغل وظيفته ولا سلطاته فى إيذاء الأخرين طوال إقامتى داخل سجن طره.. لقد كان نموذجا غير طبيعى.. وللأسف لم تدم علاقتى به بعد الخروج، رغم أننا قد تعاهدنا على ذلك كثيرا معه.. ومع غيره من الأصدقاء.. وكان منهم مثلا اللواء أحمد مصطفى الذى كان فى ذلك الوقت برتبة عميد..

لقد كان هؤلاء نموذجا مشرفاً للضابط المصرى الذى كان يعامل المساجين معاملة تليق بآدميتهم.. وكثيرا ما كان ينجح فى التعامل مع مختلف المعتقلين من مختلف التيارات السياسية.. ولقد كان يتمتع بدرجة كبيرة من المرونة. وتطبيق القانون وروحه حتى المخبرين داخل السجن وجدت فى بعضهم الإنسانية.. وأنا أذكر فى مرة من المرات أننى كنت معلقا للتعذيب وظللت كذلك طويلا نظرا لتردد المخبرين فى القيام بهذه

المهمة اللاإنسانية لقد شاهدت منظرا ملأ قلبي بالإيمان.. فقد رأيت أحدهم يحاول التهرب من تنفيذ عقوبة التعذيب الخاصة بي.. ويدفع زميلا آخر له.. الذي كاد أن يتنصل من هذه المهمة لولا نظرات الوعيد من أحد رؤسائه.

*** وكم كتابا ألفه الأستاذ صلاح عيسى في السجن؟**

ـ من الكتب التي ألفتها بشكل مباشر في السجن مجموعة قصصية صدرت بعنوان «بيان مشترك».. وقد نشرت في العديد من المجلات الادبية فور خروجي من السجن.. ورواية أخرى بعنوان «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا» وطبعت في بيروت عام ١٩٧٩.. ويعاد طبعها الآن..

هذه الكتب تم تأليفها مباشرة داخل المعتقل.. بجانب ذلك هناك فصول من ذكرياتي داخل السجن نشرت في بعض الكتب مثل كتاب «تباريح جريح» وبعضها نشرت في الصحف والمجلات ولم يتم تجميعها لاصدارها في كتاب أيضا. وفكرة كتاب «حكايات من دفتر الوطن» نشأت وتبلورت داخل السجن.. ولم أستطع تنفيذها هناك لأنه احتاج مني العديد من المراجع.. ولكنني بعد الخروج انتهيت منه وهو الآن موجود بالأسواق.. وعلى فكرة أقدر أقول لك أنا لا أستطيع أن أحصر كل الافكار والموضوعات التي نبتت في ذهني في هذه الفترات.. ولكن عموما لقد كانت فترة السجن فترة ثرية.. ومهمة.. خاصة لمن لديهم الاستعداد لإيماني أن هذه الفترة تفجر بداخلك طاقات كامنة يمكن استغلالها بنجاح، ودليل ذلك على ما أذكر أنه كان أحد العمال مسجونا معنا في عام ١٩٦٨ وكان يعمل برادا.. وكان بجوارى في زنزانته الفنان التشكيلي محمد حسين هجرس.. الذي كان يمارس هوايته الفنية في فترة اعتقاله، ففوجئنا في لحظة أن صاحبنا ألذي من حلوان يحاول تقليده ويصنع لنا تمثالا من الحديد والحجر، لقد تأثر بالجو الذي كان يعيشه.. وأعرف أيضا من بين الأدباء والشعراء الذين كتبوا في السجن الشاعر مجدى نجيب.. حيث كان محبوسا معنا عام ١٩٦٦.. لقد سمعنا وعشنا آلاف القصص والحكايات التي صاحبت فترة السجن بالنسبة للفنانين والأدباء وكانت لهم مصدر إلهام وتفجير لطاقاتهم المكبوتة.

*** ما رأى صلاح عيسى في سجون مصر الآن.. وهل يفضل أن تكون تبعية السجون لوزارة العدل أم لوزارة الداخلية.. ولماذا؟**

ـ سبق أن حدثتك عن أوضاع السجون في مصر من حيث المأكل والمشرب والمعاملة..

أما فيما يتعلق بـالنصف الثانى من السـؤال.. فأنا على مـا أذكر أن السجن فى فترة من فترات العهد الملكى كان يتبع وزارة الحربية وكان مـرتبطا مثلا بشخصية اللواء محمد حيدر بـاشا.. فإذا أصبح وزيـرا للحربيةأصبح السجن تـابعا لـوزارته.. وإذا أصبح وزيرا للداخليةأصبح تابعـا له.. وهكذا مـن منطلق أن الملك فاروق كان يـريد تشغيل المساجين فى جمع المحـاصيل واستصلاح الأراضى.. وكـانت هذه مهمـة حيدر بـاشا شخصيا..

أما فى الوضـع الحالى فأنا اقترح أن تكون السجون تابعة لمؤسسة يشترك فى إدارتها وزارتى الـداخلية والعـدل.. وأن يكون عليهـا رقابـة قضـائية صـارمة تتـابع تطبيق لوائحها وفقا للمعاملة الإنسانية.. وخصـوصـا معاملة المسجون المفكر.. إننى اؤكد لك أنه لابد من وجود رقابة قضائيـة مباشرة حتى فى إطار القانون القائم الآن الذى يعطى للنيابـة حق التفتيش على السجون.. وفى هذه الحالـة يمكن اكتشاف المخالفـات التى قد لاتتعلق بـالمسجون نفسه.. ولكن بـالأوضـاع داخل السجـن عموما من حيـث السرقة والاختلاس وأشياء أخـرى من هذا القبيل، خاصة وأن السجـون تتعامل مع متعهدين وهيئات أخرى لها مصـالحها أيضا بالنسبة للمسجـون الذى يعتبر أمانة لدى الدولة وأن إساءة معاملته من الممكن أن يسىء للدولة نفسها.

*** وماذا تفعل لو كنت مأمورا للسجن فترة اعتقـال مفكـرين ومنهم صلاح عيسى؟..**

ـ بأمانة.. كنت سوف أفرج عن صـلاح عيسى من السجن فوراً.. و غير ذلك وايمانا منى بأن الفلسفة العقابية من وراء السجن هى إصـلاح السجين.. من المؤكد كنت سوف أقـوم بمهمتى فى حدود هـذا التصـور.. حتى يخرج مـواطنـا صـالحا وليس الثأر ممـا أرتكبه.. لاعتقادى ان الانسان دائما يخطىء ودائما فى حاجة إلى من يتبهه للخطأ.. لذلك أرى أن الفلسفـة العقابيـة لابـد وأن تقوم على محاولـة إصـــلاح السجين وإعادتـه إلى المجتمع نافعاً وليس ناقما.. فلـو كنت مأمورا للسجن كنت افرجت عن نفسى وطبقت هذه السياسة على ٩٠٪ من المساجين إلا النسبـة القليلة التى يستعصـى عليها العلاج.. وهم مانسميهم المرضى النفسيين الـذين يحتاجـون إلى جانب جهود المأمـور.. جهود أطباء النفس..

*** وماذا يكون رد الفعل لدى صلاح عيسى إذا كان فى مقام رئيس الحكومة أو وزير الداخلية وعرض عليك أسماء معتقلين مفكرين مطلوب القبض عليهم؟**

ـ أنا من حيث المبدأ مع مساواة المواطنين جميعا أمام القانون بشرط أن تسود الديمقراطية وتحقيق مصلحة عامة للوطن.. وبالتالى لابد أن يتساوى الجميع مفكرين وغيرهم أمام هذا القانون.. فى ثلاث حالات إذا كان قانونا ديمقراطيا.. ويحقق مصلحة عامة.. وصادر عن إرادة الشعب.. فإذا ارتكب مفكر أو صحفى أو كاتب أو أى إنسان خطأ يعاقب عليه القانون بهذه المواصفات بما يعنى وجود مخالفة تمس الصالح العام وفقا للقانون الذى ارتضيناه جميعا.. من هنا تكون الفلسفة العقابية قائمة على ردع الذين يرتكبون مخالفة ضد الصالح العام وليس ضد الحاكم وحده.. فى هذه الحالة لايكون من سلطاتى أو من صالحى استثناء مفكر أو غير مفكر من القبض عليه والتحقيق معه وفقا لهذا القانون.. لكننى فى ضوء ملاحظاتى العامة لما يجرى داخل المجتمع المصرى لا أعتقد أن المفكر يرتكب مثل هذه المخالفات التى تمس سيادة الصالح العام.. فستكون القضية فى واقع الأمر مجرد مخالفة فى الرأى.. وفى هذه الحالة.. لابد وأنا فى منصب رئيس الوزراء أو وزير الداخلية أن أستدعى هؤلاء المفكرين وأناقشهم.. لاعتقادى أن المفكرين هم الذين يقدمون عصارة أفكارهم لخدمة المجتمع..

وحتى فى حالة ارتكاب نوع من هذه المخالفات.. فهى فى اعتقادى تتم عفويا وبدون قصد.. وعلى هذا الأساس تدور مناقشاتنا مادام هدفنا هو الصالح العام.. إما أن يقنعنى أو أقنعه.. وحتى إذا اختلفنا وتمسك كلانا برأيه فلا يجب أن أعتقله. بل أتركه لأننى على ثقة من أن المفكر ليس لديه فى الحياة سوى رأيه وقلمه لا خطر على المجتمع منه. ولا أقدم على خطوة الاعتقال إلا إذا تحول المفكر إلى إرهابى بمعنى أن يستبدل القلم بالسلاح.. ونادرا ما يحدث ذلك.. وحتى فى هذه الحالة سوف أوافق على القبض عليه ومحاكمته وفقا للقانون الذى سبق وأن تحدثت معك عنه منذ لحظات والذى لايفرق بين مفكر وغيره من أفراد المجتمع..

*** فى أعتقادك.. لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع رئيس الدولة؟..**

ـ لأنه قرار سيادى.. يرتبط بوجود أعلى سلطة فى الدولة ولكنه يفوض فيه وزير الداخلية، وعادة مايبادر رئيس الدولة بإصدار هذه الأوامر لأن المفكر له شعبيته

وفكره وتلاميذه، وخوفا من إساءة استخدام السلطة ضده.. فهو يبادر بمتابعة أمر اعتقاله بنفسه ويحسب حسابه بدقة شديدةحتى لايؤدى هذا الاعتقال إلى نتائج عكسية.. وهذا ماحدث فى بعض الحالات.. لأن قرار الاعتقال.. هو فى حد ذاته قرار مصادرة حرية الآخرين بدون سند قانونى.. أما إذا كان هناك سند قانونى فلا يلجأ الحاكم إلى الاعتقال بل يترك الامر للنيابة والمحاكم.. فإذا رأت جريمة فلابد من معاقبته..

ومن هنا يظل الحاكم محتفظا بحقه فى هذا الاعتقال.. من أجل تقييد حرية من يراه خطرا عليه وعلى خطه وعمله فى مرحلة ما..

وكثيرا ما يخطيء الحاكم فى استخدام هذا الحق.. وتقدر تقول إن ذلك لايحدث دائما إلا فى ظل أنظمة الحكم الدكتاتورية.. حيث هناك شبه إرادة على سلب حرية الآخرين الذين يقفون فى صفوف معارضة الحاكم.. أما فى حالة سيادة الديمقراطية.. فأنا أعتقد أن احتفاظ الحاكم بحق اعتقال المفكر يكون أفضل من احتفاظ غيره به.. وذلك لأننى أرى أن الحاكم فى هذه الحالة هو أقدر الناس على تقدير قيمة المفكرين لاتساع أفقه وخبرته..

الحكاية الثامنة يرويها جمال بدوى:

دخلت المعتقل.. وخرجت منه أحترم وأقدس حرية الرأى

كل الذين قابلتهم وتحدثت معهم فى هذه السلسلة من الحوارات أصيبوا بالدهشة حين علموا بأن أستاذنا الاديب والصحفي والمفكر جمال بدوى قد تعرض لتجربة السجن والاعتقال فى بداية حياته العملية.. وهو لا يزال طالبا بالسنة الخامسة الثانوية.. وأن هذه التجربة المبكرة فى حياته كانت الدافع الأساسى نحو دخوله عالم الصحافة والتمسك بمبدأ حرية الرأى.. رغم أنه كان فى هذه السن المبكرة لا يزال يبحث عن ذاته.. ويتحسس البداية الذى سرعان ما وجدها فى أفكار ومبادىء الإخوان المسلمين.. للدرجة التى جعلته ينخرط فى فكر هذه الجماعة ويصبح وهو لا يزال طالبا فى هذه السن المبكرة قائدا مهما داخل هذه الجماعة وفكرها.

كانت البداية وكما قال لى فى عام ١٩٥٤ حين ألقوا القبض عليه.. ولم يكن سنه فى هذه الحقبة المبكرة يتعدى السادسة عشرة.. ولأول مرة يدخل السجن.. وقدم للمحاكمة آنذاك مع من قبض عليهم من زملائه.. ولصغر سنه.. ولظروف اجتماعية أخرى سوف نعرفها حين ندير شريط تسجيل الحوار.. قرروا الإفراج عنه، ومع ذلك مكث فى السجن أكثر من سنتين.. ولم تقبل الحكومة تنفيذ حكم القضاء بالإفراج عنه.

ومرة ثانية دخل المعتقل خطأ.. ومكث به ساعة واحدة.. ومن بعدها أفرجوا عنه.. واعتذروا له.. ورغم قصر هذه الفترة التى قضاها هناك إلا أنه أصيب بحالة من الهياج والإحباط.. أكثر مما أصيب فى حالة دخوله السجن فى المرة الأولى.. فقد ألقوا القبض عليه عام ١٩٦٥ ضمن موجة القبض على رجال الإخوان المسلمين آنذاك.. رغم أنه كان فى تلك الفترة صحفيا كبيرا.. قريبا جدا من نظام عبد الناصر فى تلك الفترة.. فقد

تصادف قدومه من مدينة أسوان حيث احتفالات السد العالي، الذي كان يتابعها صحفيا هناك.

وعلى باب أخبار اليوم انتظروه.. وأبلغه أحد الزملاء أن أحد الضباط يسأل عنه.. وما هي إلا لحظات حتى كان في منزله كي يأخذ الشنطة التي أتى بها منذ ساعات من أسوان.. ولحظتها كانت القسوة تطل برأسها.. حين رأي طفلته الصغيرة تقف بباب المنزل.. وهم يأخذونه إلى سيارة البوليس.. وقتها لم يجد الكلمات التي يعبر بها عن هذه الرحلة المفاجئة، فتعلل بعودته إلى رحلة صحفية أخرى تم تكليفه بها وسوف تستغرق أياما وربما شهورا.

وبعد أن حبسوه مع آخرين لمدة ساعة واحدة.. جاء من يستدعيه إلى مكتب المسئول عن البوليس في تلك الفترة.. الضابط حسن أبو باشا الذي اعتذر له عن هذا الخطأ.

هذه مجرد بدايات حاولت التقاطها من صوت شريط التسجيل.. كي تكون مدخلا مثيرا لحكاية جمال بدوي كمفكر وصحفي وأديب في عالم السجون والمعتقلات.

***

أما البداية الفعلية للقائنا عبر هذه الصفحات.. بين كاتب هذه السطور وبين المفكر والأديب والصحفي ورئيس تحرير جريدة الوفد أستاذنا جمال بدوي، عبر جهاز التسجيل ولقطات المصور.. فقد مر بالعديد من الظروف التي فرضت علينا تأجيل بداية الحوار أكثر من مرة.. ومع الإصرار على إتمام هذه الرحلة.. فضلت الرحيل مبكرا حيث مكتب الأستاذ جمال بدوي الذي يقع بالدور الأرضي بجريدة الوفد التي احتلت الآن بالمشاركة مع الحزب فيلا الشريعي باشا.. أمام مبنى كلية دار العلوم القديمة بالمنيرة.. وفي الموعد المحدد.. نادى على كل من حوله بضرورة إغلاق المكتب.. وقطع كل الاتصالات التليفونية حتى إشعار آخر.

وهكذا.. وعلى مدى أكثر من ساعة ونصف بدأت تشغيل شريط التسجيل.. وكان هذا الحوار.

*** الأستاذ جمال بدوي.. نريد أن نعرف كم مرة دخلت فيها السجن أو المعتقل؟**

ـ تقدر تقول فى البداية إنها سلسلة.. والعبرة ليست بعدد المرات.. ولكنها مرتبطة بما اصطلح على تسميته «البلاك ليست» أو القائمة السوداء.. ووفقا لهذه القائمة.. فالإنسان معرض للاعتقال فى أى لحظة.. ولقد كنت فى شبابى ضمن هذه القائمة.. والسبب أننى كنت منتميا للإخوان المسلمين.. وتقدر تقول جاء هذا الانتماء فى المرحلة الثانية أيام المرحوم حسن الهضيبى.. وليس أيام المرحوم حسن البنا.. وكان عمرى وقتها ١٦ عاما.. ولقد استمر وضعنا فى الإخوان المسلمين وخلال السنتين الأوليين من قيام الثورة يسير فى طريقه السليم.. وعلى وفاق مع رجال الثورة.

إلى أن حدث الصدام فى عام ١٩٥٤.. حين تم حل الإخوان لأول مرة فى يناير من نفس العام.. وتم اعتقالى فى هذه الفترة حين كنت وقتها طالبا بالمدرسة الثانوية بمدينة طنطا.. ولم يستمر هذا الاعتقال سوى أيام أما حينما وقع حادث المنشية جاء دورى فى الاعتقال الثانى.. مع موجة الاعتقالات الكبيرة التى قام بها رجال الثورة ردا على هذا الحادث.. وبالفعل اعتقلت بدون جريمة وسجنت أيامها بالسجن الحربى بالقاهرة.. ثم رجعت مدينة طنطا مرة أخرى لاستكمال التحقيقات.. وبعدها قدمت للمحاكمة أمام محكمة الشعب الدائرة الثانية.. التى حكمت ببراءتى.. ورغم ذلك مررت على العديد من السجون مثل سجن مصر والقلعة والسجن الحربى حتى أفرج عنى فى يونيو عام ١٩٥٦.

لقد مكثت فى السجن فى هذه الفترة عامين.. رغم قرار الإفراج والسبب يرجع إلى اعتقال البوليس لتنظيم من شباب الإخوان المسلمين يجمع تبرعات لأسر المسجونين.. الأمر الذى جعل عبد الناصر يرفض قرار الإفراج.. ثم اعتقلت مرة أخرى وأنا أعمل صحفيا بأخبار اليوم عام ١٩٦٥ أيضا بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين.. رغم تغير الظروف.. واقترابى من السلطة آنذاك حيث كنت أيامها قادما من رحلة صحفية من أسوان لتغطية احتفالات السد العالى، ولكننى فوجئت بالبوليس ينتظرنى على باب أخبار اليوم وتم اعتقالى بالفعل.. ولهذه المرة الأخيرة قصة أغرب من الخيال دعنى أحكيها لك.

فبعد وصولى إلى مبنى المباحث العامة.. وبعد لقائى بزملاء المعتقل.. وفور وضع شنطة الملابس التى أتيت بها إلى هنا.. استدعيت فورا.. ومشيت وراء الشرطى الذى

جاءنى، ففوجئت بـأننى أمام غرفة مغلقة مكتـوب عليها المدير العام.. فـدخلت الغرفة ووجدت بداخلها شخصا وقـورا فى غاية الاحترام.. طلب منى أن أجلس.. ولم أصدق.. وأصابنى الخوف.. فاصر على أن أجلس أمامه.. وبأدب شديـد فوجئت به يقول لى: إننا فى غـاية الأسف لاعتقـالك.. ولم أصـدق حديثـه.. فكيف يأتـون بـرجل أعتقلوه منـذ لحظات.. كي يعتذر له مدير عام المباحث.

المهم.. مرت دقائق ولا يزال رجل البوليس الوقور يكرر اعتذاره هذا الرجل كان هو اللواء حسن أبو باشا.. ولحسن استقباله لى داخل المكتب فتحت معه حوارا ناقشت من خلالـه آلامى الذى سببهـا هذا الاعتقـال الأخير، وقتها اختلطت داخل نفسى مشـاعر متضـاربة بين الفـرح والحزن والضيق.. كما قلت لك إن السبب يرجع إلى أننى وقتهـا كنت صحفيـا أعمل بقسم التحقيقـات بأخبـار اليـوم وكنت وقتهـا راجعـا من رحلـة صحفية من أسوان ومتابعة احتفالات الثورة بالسد العالى.. لقد وصلت القاهرة فى ذلك الوقت السـاعـة التاسعة صباحا.. وهناك فى أسـوان أحسست بمشاعر الضيق والحزن الذى خيم على مدينة أسوان فى ذلك الوقت لاشتـداد تيارات الاعتقال بها خاصة اعتقال رجال الإخوان المسلمين.. وسط مشاعر فرح افتتـاح السد العالى.. لقد عشت لحظات فى منتهى التناقض.

فى هذه الأثناء وعندما رجعت من أسوان كنت أشعر بـالخوف لشىء لا أعلمه.. لقد توجهت من محطة الجيزة إلى منزلى فى التاسعة صباحا.. وفور وصولى وضعت شنطة ملابسى ثم اتجهت إلى الجريدة كى أكتب الموضوع الذى كنت أتابعه هناك.. ولكننى فى منزلى شاهدت أيضا الخوف يملأ الوجوه.. والرعب يسيطر عليهم.. ومما يدل على ذلك أن أختى الكبيرة جاءت من البلد.. وتعجبت من سرعة نـزولى من المنزل فى هـذا الوقت العصيب من وجهة نظـرها.. المهم كما قلت لك تـوجهت إلى الأخبار فى هذه السـاعة من الصباح.. وفور دخولى إلى صالة التحرير.. وبعد مرور أكثر من نصف ساعة فوجئت بزميلى الـراحل الأستاذ إبراهيم يـونس ينادى على من أول صـالة التحريـر بأن هناك ضابطا واثنين من المخبرين يسألون عنى.. ويطلبون مقابلتى.

وتتعجب حين أقول لك إننى وقبل وصـولهم كنت أتحدث عن موضـوع الاعتقالات ومنفعل بـه غاية الانفعـال.. وربما يرجـع ذلك إلى الخوف الذى لا يـزال مسيطرا على

نفسي حتى هذه اللحظة.. المهم طلبوا من الراحل إبراهيم يونس أن ينادينى بصوت خافت.. وقد كان.. حيث اصطحبوننى إلى سيارة البوليس التى كانت تقف بباب أخبار اليوم القديمة.. وبداخلها فوجئت بالعديد من المعتقلين من الإخوان.. وتعرفت على بعضهم كزملاء قدامى.. وفور دخولى إلى سيارة البوليس سألونى عن شنطة ملابسى.. وعندما عرفوا أننى تركتها منذ ساعة فى منزلى استأذنوا الضابط أن يفوت بالسيارة على المنزل لإحضارها.

وفعلا رجعنا العجوزة حيث أعيش مع أسرتى وواجهت موقفا حرجا جدا تمثل فى البحث عن حجة أقولها لأهلى ودون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لى.. عندئذ ادعيت أننى ذاهب فى رحلة صحفية جديدة إلى غزة.. وقد اخترت هذه المدينة بالذات لبعدها اقتناعا منى أننى لن أعود من هذا الاعتقال إلا بعد شهور طويلة وربما سنوات.. ووسط دهشتهم من هذا التصرف أخذت الشنطة ونزلت إلى السيارة من جديد.. ومما جعلنى وقتها أشعر بألم نفسى شديد وضيق منظر شاهدته على باب العمارة وأنا أركب السيارة.. طفلتى الصغيرة التى كان عمرها فى ذلك الوقت خمس سنوات، تنظر إلى فى تساؤل غريب ولقد مكثت أنظر إليها فترة طويلة.. والسبب أن الضابط قد تركنا داخل السيارة واستأذن بعض الوقت للسؤال عن سمسار عقارات يبحث له عن شقة.

فهل تتصور إنسانا يمر بهذا التناقض الغريب.. معتقل ينظر إلى طفلته الصغيرة التى تحاول أن تتساءل عن مصيره.. فى الوقت الذى يبحث فيه الضابط المسئول عن الاعتقال عن سمسار وشقة للإيجار.. مما آلمنى بشدة أن طفلتى الصغيرة «سمية» وهى الآن متزوجة ولها أولاد أخذت تنظر إلى فى دهشة وتساؤل.. ولا تعرف أين أنا ذاهب الآن.

أما الأمر الثانى الذى أثر فى نفسي أكثر.. أن ضابط الشرطة المصاحب لنا.. كان يقف أمام العديد من المنازل فى مختلف أحياء القاهرة وينزل من السيارة كي يسأل عن اسم أحد الأشخاص من أجل اعتقاله.. والمفاجأة أنه كثيرا ما كان يسمع عبارة ده مات من زمان أو ده هاجر خارج مصر.. هذه المشاهد كلها قد نقلتها بانفعال شديد للواء حسن أبو باشا أثناء لقائي به فى مكتبه لحظة الاعتذار الذي ذكرته لك منذ قليل.. وركزت على شخصيتى كصحفى باعتبار أن الصحفى لا يجب اعتقاله بمثل هذه المهانة.. أضف إلى ذلك حكاية المعتقلين الموتى أو المهاجرين الذين اكتشفهم الضابط لحظة السؤال عنهم..

والحقيقةأن الرجل قد امتص غضبي وقتها.. وشعرت باستجابة لما كنت أحكيه.

*** طيب.. نقدر نقول كم من الوقت مكث الأستاذ جمال بدوى في السجن خلال هذا الاعتقال الأخير؟**

ـ ساعة واحدة.. والساعة الثانية كانت في مكتب اللواء حسن أبو باشا.. وتعرف أخطر مشكلة واجهتني بعد قرار الإفراج والاعتذار هو كيف أستعيد شنطة ملابسي مرة أخرى.. وكنت قد تركتها مع زملائي المعتقلين وبعد هذه الساعة اضطررت للرجوع إلى مقر الاعتقال في مبنى المباحث.. والتقيت من جديد مع زملائي المعتقلين وأبلغتهم بقرار الإفراج العجيب.. ثم أخذت الشنطة ورجعت إلى منزلي.. هناك أصابتهم الدهشة وتوالت الأسئلة.. لكن أظرف شيء واجهني بعد رجوعي إلى منزلي.. أن زملائي المرحوم إبراهيم يونس والأخ الزميل سيد الجبرتي..حضرا إلى المنزل في الوقت الذي رجعت فيه بعد الإفراج.. عارف ليه.. كي يبلغوا زوجتي وأسرتي بقرار الاعتقال.

المرحوم إبراهيم يونس كان يرتدي نظارة سوداء تأثرا منه بهذا الاعتقال.. المهم عندما دخلا الشقة قمت بمقابلتهما.. وكانت قمة المفاجأة.. وصدقني كان مشهدا هزليا وامتزج فيه الضحك والبكاء.. لقد جاءا حالا لإبلاغ أسرتي باعتقالي ولكنهما فوجئا بوجودي بيتهما.. ولقد ظنا لأول وهلة أنني نجحت في الهرب من البوليس وجئت أختبيء في منزلي.. وبهدوء حكيت لهم القصة الغريبة.. قصة اعتقالي لمدة ساعة واحدة ثم الإفراج عني.. وانتهى الموقف بوليمة دسمة.. كانت قد جاءتني من البلد.

*** ولو سألت الأستاذ جمال بدوى عن علاقته بالإخوان المسلمين.. ماذا يقول؟**

ـ أرجوك أن تفسر.. ماذا تقصد بالفترة المعنية بالسؤال.. إذا كنت تقصد فترة الخمسينات فأنا أقول لك إنها كانت فترة تربية.. حيث كنت وقتها عجينة تتشكل.. وبالفعل تربيت في أحضان الإخوان تربية دينية أمينة جدا.. لقد كانت مدرسة تربوية من أعظم مدارس التربية على المستوى الديني والوطني.. وكل المستويات.. وقد استفدت منها جدا.. ووقتها كنت عضوا مسئولا وعضوا نشطا له تأثير في جماعة الإخوان والدليل أنني اعتقلت وقدمت للمحاكمة.. والاعتقال في هذه الفترة بالنسبة لي لم يكن جزافا.. بل كان بسبب وجودي في التنظيم السري للجماعة.. وعندما قدمت للمحاكمة..

وكما سبق أن قلت لك.. أخذت هيئة المحكمة بعين الرأفة حيث كنت وقتها تلميذا ومتزوجا أيضا ولى أولاد.. ورغم أنني وقتها كنت رئيس المجموعة داخل التنظيم.

والعجيب أن زملائي ممن كنت أرأسهم داخل الخلية حكم عليهم بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ وكانوا جميعا تلاميذ فى مثل سنى.. فى مدرسة طنطا الثانوية.. ورغم حكم البراءة مكثت سنتين داخل سجون مصر إلى أن أفرج عنى.

*** ما هو تأثير تجربة عقوبة السجن على الفكر المصرى بشكل عام؟**

ـــ أود أن أفرق لك أولا بين نوعين.. السجن والاعتقال.. لأننى لم أسجن.. بل تم اعتقالى.. والفرق بين النوعين شديد وكثير، فالإنسان الذى يعتقل تقيد حريته.. ويشعر أنه لا يعرف مصيره.. من حيث متى سيخرج أو يتم التحقيق معه؟.. بعكس المسجون.. فله حقوق.. ويعرف المدة التى سيقضيها خلف الجدران.. ولديه إحساس بالذنب.. هذا الإحساس ارتبط فى داخله بتنفيذ العقوبة.. وأبدا لا يفقد الأمل فى الإفراج عنه فى أى لحظة أما المعتقل.. فلا يدرى مصيره.. ولا متى سيفرج عنه إنه إنسان يعيش حتى بلا أمل داخل جدران السجن.

الحاجة الثانية.. أن المعتقل ليس له قانون.. بعكس المسجون العادى الذي تحكمه داخل السجن لوائح.. وله حقوق وعليه واجبات، والدليل أننا كنا ممنوعين من القراءة أو الكتابة ولا نجرؤ على ذلك إطلاقا.. ومن يضبط لديه أى مكتوب يعاقب بشدة.. ودعنى أحكى لك حكاية بهذه المناسبة وهى تصور ارتباطى بحساسة الصحفى فى هذه السن المبكرة.. رغم أننى لم أكن صحفيا.. وإنما كما ذكرت لك سابقا كنت طالبا بالثانوى آنذاك.. المهم لقد دفعنى حبى للقراءة أن أبحث عن أى شىء مكتوب حتى ولو على الجدران، للدرجة التى جعلتنى أجمع قصاصات من الصحف.. كانوا يبيعون لنا فيها أقراص الطعمية داخل المعتقل.

وأنا أذكر أننى جمعت كمية كبيرة من هذه القصاصات الملوثة بالزيت والتراب.. وكنت أجمعها فيما يشبه بجريدة صغيرة.. ونظل نتناوبها فى القراءة ليلا حتى لا يرانا أحد المسئولين عن السجن.. هذه القصاصات من ورق الصحف كانت تمثل لنا كنز المعرفة.. وقد تتعجب أكثر حين أقول لك إننى عرفت بموت الفنان أنور وجدى من تجميع هذه القصاصات.. فقد قرأت سطورا مبتورة لمقال كتبه المرحوم أستاذنا على

أمين.. ينعى فيه الفنان الراحل.. ومازالت كلماته أحفظها حتى هذه اللحظة.. حيث كتب يقول: عاش شبابه كى يشترى المجد.. ثم قال البائع لا يكفى.. ثم عاد فلم يجد البائع ولم يجد الدكان.

وقبل أن أنسى أقول لك.. هذه الواقعة حدثت لى فى سجن مصر الذى كان يسمى آنذاك «قره ميدان».. ولا تتخيل كيف كنا نقرأ هذه الجريدة الصغيرة والبسيطة.. فرغم ما بها من زيت ورائحة الطعمية وملوثة بالأتربة إلا أننا كنا ننتظر قدوم الليل ونحاول قراءتها حتى تحت البطانية خوفا من بطش رجال السجن.

إذن المعتقل خطورته أنه لا يحكمه قانون.. ومن حق السلطة أن تفعل بك ما تشاء.. تعذبك وتهين كرامتك وأشياء أخرى كثيرة.. وكم من مرات عديدة تعرضت فيها أنا شخصيا لتعذيب شديد.. خاصة فى فترة التحقيقات.. عندما كنت أذهب إلى السجن الحربى.. فكان لابد أن نذوق فيه ألوانا من التعذيب.. لأن من تقاليد هذا السجن العريق هو التعذيب البدنى الشديد والقاسى.. ولقد وضعت الثورة هذا السجن من أجل الإبادة وليس من أجل التعذيب.. فكم من المصريين الشرفاء ماتوا ودفنوا من جراء هذا التعذيب.. والسجين منا حين يدخل السجن الحربى عليه أن يتوقع تعذيبا شديدا سواء كان بريئا أو مدانا.

المهم.. لابد وأن يأخذ جرعة شديدة من هذا الهول.. لقد كانت الإقامة فى السجن الحربى شيئا لا يصدقه عقل حيث كانت اللغة الوحيدة المعترف بها بداخله هى لغة الكرباج.. وأنا مكثت بداخل هذا السجن فترتين وصلتا إلى أربعة أشهر منذ حادث المنشية عام ١٩٥٤.. وحتى يناير عام ١٩٥٥ ومن بعده انتقلنا إلى سجن القلعة الذى كان بالنسبة للسجن الحربى معناه أنك الآن مهيأ للخروج وللإفراج عنك فى أى لحظة.. فقد تحول سجن القلعة من سجن المجزرة إلى سجن الإعداد والانتظار للخارجين والمفرج عنهم.. وسجن الإعداد وغسيل المخ.. وبداخله عشنا لحظات طيبة فقد كان كل اثنين ينامان على سرير.. وأكل نظيف.. وسلسلة من المحاضرات والمحاضرين العظماء.. وكانوا يحدثوننا عن أفكار جديدة ومشاريع وطنية كانت تنفذها حكومة الثورة.. إلى جانب درس دينى كان يلقيه علينا أحد مشايخ الأزهر.. يعنى تقدر تقول كانت فترة إعداد ومصالحة.. وكنا على وشك الخروج لولا أنهم ضبطوا تنظيما من الإخوان

المسلمين من الشباب يجمع تبرعات لصالح أسر المعتقلين.. وكان هذا التنظيم يسمى تنظيم مارس.. وهو تنظيم مشهور جدا.

ولما علم عبد الناصر بأمر القبض على التنظيم الجديد رفض الإفراج عنا.. وانتقلنا من سجن القلعة إلى سجن مصر.. حيث قضيت بقية مدة العقوبة وهي سنتان.. ثم عدت إلى سجن القلعة مرة ثانية حين قرروا الإفراج عني لآخر مرة.. ومكثت به أسبوعين.. وأحب أن أؤكد لك أن سجن مصر لم يكن به تعذيب.. كنا أيامها موجودين بعنبر «ج» المطل على ميدان السيدة عائشة.. هذا السجن تم هدمه الآن وتحول إلى حدائق عامة.. وطوال فترة سجن مصر.. توالت علينا المحاضرات وتعرفت من خلالها على أساتذة تركوا أثرا طيبا في نفسي، وأذكر منهم الأستاذ الدكتور توفيق الشاوى.. والدكتور محمود أبو السعود.. كنا وقتها نسمع محاضرات متنوعة في الأدب والدين.

*** ما هو تأثير هذه التجربة على المفكر والكاتب الأستاذ جمال بدوى؟**

ـ شوف.. أنا وقتها شعرت أنني ولابد وأن أعمل في المجال العام كرسالة لابد أن أؤديها بأمانة.. إنما إيه بالضبط؟ لم تكن الرؤية واضحة.. وفي تلك الفترة قرأت وأنا ما زلت على أبواب السنة النهائية من القسم الثانوية في إحدى المجلات عن وجود قسم جديد بكلية الآداب.. هو قسم الصحافة، دوره إيه وماذا يقدم؟ لم أكن أعرف وقتها.. وكل ما عرفته هو ارتباطه بالدكتور عبد اللطيف حمزة.. وبدأت أجمع معلومات وأشغل ذهني بهذا القسم الجديد وأنا ما زلت مسجونا بسجن مصر.. إلى جانب التجربة نفسها وإحساسي آنذاك بقيمة الحرية وأثرها على مصير الإنسان وعلى حياته وفكره.. وظلت كقضية تشغلني بشدة وفرضت نفسها حتى على إحساسي بالعدل.. لأنني عرفت وقتها أن الحرية قرينة العدل.. والاعتقال في هذا السن المبكر جعل من هذه الحرية لدى نفسي قيمة ومبدأ لا مساومة عليه.

وهذا السبب هو الذي جعلني أغير فكرى وأنتقل به إلى الفكر الليبرالي وأحيد عن فكر الإخوان المسلمين.. ولعلني أتحدث معك عن هذا التحول وربما لأول مرة.. لأنني بعد الخروج من المعتقل ويمكن قبل أن أخرج بدأت أفكر في مسألة الحريات العامة.. تلك القضية التي لم تكن واضحة في أذهاننا وقت أن كنا في مدرسة الإخوان.. هذه القيمة الجديدة أضيفت إلى باقي القيم العظيمة التي تعلمناها في مدرسة الإخوان كالأمانة

والصدق والوطنية.. ويمكن أن أقولك: إن قيمة الحرية فى ذلك الوقت لم تكن مطروحة على الساحة السياسية آنذاك.. وفى داخل المعتقل عرفت بها وأحسست بقيمتها.. وعقدت العزم على أن أناضل من أجلها.. لإيمانى بأن تلك الحرية أثمن شىء فى وجود الإنسان.. وقد أكد هذه المعانى الجديدة فى ذهنى إقبالى على القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية.. وأيضا تأثير تلك المحاضرات المهمة التى كانت تلقى علينا فى تلك الفترة.

وخرجت من ذلك كله بنتيجة مهمة جدا وهى أنه لابد من وجود ضمانات واضحة لصيانة الحريات العامة.. وأنه إذا كان هناك أى كلام عن نظام حكم فى الإسلام.. فلابد أن يأتى فى المقدمة أهمية صيانة الحرية.. والاعتزاز بالحريات العامة.. من هنا تجدنى أرفض أن يأتى أى حاكم أو خليفة مسلم أو أى نظام ينتسب إلى الإسلام ويضحى بالحرية من أجل أى هدف آخر.. فأنا بصراحة حينما تعمقت فى قراءة نظام الحكم فى الإسلام.. وجدته نظاما من الناحية النظرية لا يضاهيه أى نظام حكم فى العالم.. ولكن المشكلة كانت فى التطبيق.. فكما قدم لنا التاريخ نماذج طيبة من الحكم فى الأيام الأولى للإسلام قدم لنا أيضا نماذج سيئة جدا لحكام يحكمون باسم الإسلام.. لا يعترفون بالحريات العامة ويدوسونها بأقدامهم.. رغم أن الإسلام فى جوهره يقوم على احترام هذه الحريات.. إذن كانت هذه نقطة التحول الأساسية فى حياتى الفكرية.. ولا أستطيع أن أقول لك التحول من فكر الإخوان المسلمين، ولكن التحول إلى فكر أكثر إيمانا بالحرية.. وعلى وجه الخصوص هذا التحول قد تم وأنا فى سجن مصر.. والسبب يرجع إلى أننى وجدت مصادفة بين مجموعة من الزملاء المثقفين داخل هذه الجدران العالية.. وهم من الإخوان المسلمين الذين كانوا أكثر منى استنارة.

هذه المجموعة كانت من شباب جامعة القاهرة.. وعلى ما أذكر منهم كان الدكتور ماهر حتحوت من شباب كلية الطب والأستاذ مدحت أبو الفضل من شباب كلية الحقوق وآخرين.. هؤلاء قد تأثرت بهم.. وهم ما زالوا من المتمسكين بالفكر الإسلامى.. ولا أستطيع أن أقول فكر الإخوان المسلمين.. وما حدث أن هذه المجموعة قد فتحت أمامى عالما جديدا.. ومحاضرات الدكتور الشاوى أيضا نقلتنى إلى عالم آخر تحدث فيه عن الديمقراطية والحريات وكانت وقتها عبارات وشعارات جديدة.

كل ذلك بجانب قراءاتى المتعددة.. وقد صاحب هذا الجو الجديد إثارة آلاف الأسئلة

داخل نفسي، وكلها كانت تدور حول مفهوم الحريات وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان.. ولماذا نحن هنا داخل المعتقل؟ ومن أجل من نناضل ونفكر؟

تلك كانت البداية التي تبلورت في الكفاح ضد ديكتاتورية الحاكم الفرد الذي تمثل في وجود جمال لعبد الناصر وغياب الحرية في ظل هذه الديكتاتورية.

*** وكم كتابا ألفتموه داخل السجن.. أو بعد الخروج منه تأثرا بهذه التجربة؟**

- أنا لم أكتب عن هذه التجربة في كتب صدرت لي.. ولكنني على ما أذكر ألفت كتابا واحدا عن هذه التجربة اسمه «شهداء وضحايا من تاريخ الإسلام».. إن عنوانه يوحي بأنني أتحدث عن شهداء المعارك الإسلامية مثل موقعة بدر وخلافه، ولكني في الحقيقة كنت أقصد شهداء الحرية الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأي خلال التاريخ الإسلامي كله.

وهذا ما كتبته فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأي خلال التاريخ الإسلامي كله.. وهذا ما كتبته فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل حرية الفكر من أمثال عبد الله بن المقفع وغيره.

وهؤلاء الذين تعرضوا للاضطهاد أيضا تجد في الكتاب فصولا عن التعذيب والمهانة التي يلاقيها المفكر من أجل دفاعه عن الحرية.. لقد كان همي من خلال هذا الكتاب إبراز كفاح هؤلاء المفكرين من أجل إعلاء كلمة الحرية .. الكتاب صدر عام ١٩٨٤.. وكنت قد نشرته من قبل مسلسلا في جريدة الاتحاد في دولة أبو ظبي حيث كنت هناك في خلال فترة من فترات حياتي الصحفية.. وتقدر تقول أيضا إن كل مقالاتي التي أكتبها الآن ومازلت في جريدة الوفد التي أرأس تحريرها تعبر عن هذا المفهوم.. وتعتبر تأثرا بتجربة السجن والاعتقال، وهي نوع من الموضوعات التي أكتبها في هذا الإطار المتعلق بالسجن وتأثيره على الحياة الفكرية في مصر الآن وعلى الحريات العامة بشكل مجمل.

تلك القضية التي اكتشفت نفسي موجودا بداخلها بعد تجربة السجن الأخيرة عام ١٩٦٥.. صحيح في هذه الفترة كنت أعمل صحفيا في أخبار اليوم وكنت مهتما بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية.. ولم أكن أقترب من القضايا السياسية.. ولكنني بعد هذا التاريخ ارتبط وجودي بقضية الحريات وضرورة الكفاح من أجلها.. وهناك كتب

أخرى كتبتهـا تأثرا بهذه التجربة مثل كتـاب تاريخ الفكر السياسى فى الإسـلام، وهو جولة فى تاريخ نظم الحكم السياسى فى الإسلام عبر التاريخ.

*** نريد أن نعرف من أستاذنا جمال بدوى رأيه فى عقوبة السجن أو الاعتقال كوسيلة من وسائل قهر الفكر المعارض؟**

ـ أنا زى ما قلت لك سابقا.. هناك فرق كبير بين السجن والاعتقال فى مجال العقوبة.. السجن يصـدر بـه حكم قضائى وللمسجـون بنـاء على ذلك حقـوق وعليه واجبـات.. والإنسان يدخل السجن إذا ارتكب فعـلا يخالف القانون الذى يردعـه.. ولا جريمة على عقوبة إلا بنص.. أمـا الاعتقال فهو إجراء تعسفى تلجأ إليه السلطـة من وراء القانون.. ويدخل صاحبه السجن فى أى وقت وفى أى لحظة.. وبـالتالى ليست له حقوق.. أما قولك بأن السجن يمكن أن يتحول إلى إحدى وسائل قهر الفكر وكبت الحريات.. فردى عليه.. شوف.. أقول لك رغم ذلك.. فإننى لا أدعو أبدا وفقـا لحرية الفكر إلى حرية الإلحاد لأن رأيى فيها صريح ولا مناقشة فيه.

أمـا فيما يتعلق بقضـايا الفكـر الأخرى.. طبعا السجن لا يمكـن أن يكون وسيلـة لإسكـات صوت الحريـة.. وأننى أرفض ذلكْ تمامـا.. خاصـة فى مجال حـرية الـرأى السياسى.. فإذا كانت الحكومة ديكتاتورية.. حتما سوف تصطدم بصاحب هذا الرأى.. ويكـون مصيره كما تقـول أنت السجن لتجنـب شر فكـره وآرائه.. وتشهـر فى وجهـه القانون كسلاح.. مهما كانت التضحيات.. وفى ظل الديمقراطية عادة ما تلجأ الحكومات إلى القانـون داخل المحكمة وليس القـانون الخـاص بها.. بمعنى أنك إذا كنـت مخطئا فى رأيك من وجهة نظر الحكومة تحيلك إلى المحكمة وفقا للقانون من وجهة نظرهـا.. وربما يكون للمحكمة وجهة نظر أخرى.

أيضا بالقانون.. فترى مثلا أنك غير مذنب.. وبـالتالى فلا تدخل السجن.. وهذا فرق كبير بين الحالتين.. ولكى نتم مشوارنا الديمقراطى علينا ونحن نضع الدستور أن ننتبه إلى تنقية مثل هـذه القوانين حتى نضمن حريـة الرأى وحرية الفكـر.. وتأتى النصوص مسـايرة للضمانـات مثلما يحدث فى أوروبا مثـلا ..وأعيد وأكـرر عليك أن قهر الفكـر والضيق من الحرية يتم بصورة كبيرة فى ظل الحاكم الديكتاتـور الذى تضايقه مثلا أن تختلف معه.. وفى ظل الأنظمة الديمقراطية تختفى صور القهر الفكرى.. كلما كان هناك

استقرار فى الحكم.. وهـذه نتيجة حتمية لهذا النوع من الحكم.. حيث يوجد احترام للحريات والحقوق.

ودعنى أسألك هل سمعت فى يوم من الأيام أن فى بريطانيا انقلابا عسكريا؟ طبعا لن يحدث ذلك.. لأنك سوف تفاجأ بالشعب يخرج ويقـذف الدبابات بالبيض ويتنصل من هذا الانقلاب ويقاومه.

*** هل تعرف الأستاذ جمال بدوى خلال رحلته داخل المعتقل على شخصيات معينة.. أثرت فى فكره؟ وما زال على علاقة بها حتى بعد خروجه؟**

ـــ آه طبعا.. لقد ذكرت لك أننى تعرفت على أخى وصـديقى الأستاذ مدحت أبـو الفضل.. وهو الآن محام كبير.. وكان قد مكث بدولة الكويت سنوات طويلة.. ثم عاد إلى القاهرة.. ومنذ ثلاث سنوات تجددت بيننا الصلات والعلاقات.. ومن هـؤلاء كذلك الدكتور توفيق الشاوى كمحاضر وأفكاره عن الحرية والديمقراطية قد أحدثت ثقبا فى عقلى أخـذ يتسع مع الأيـام فيما يتعلق بإيمانـى بما سمعت منـه فى المعتقـل عن الديمقراطية وعظمتها وأهميتها فى حياة الشعوب.. ومن غير المفكرين قد تأثرت بالعديد من الذين قـابلتهم داخل السجن.. ولى معهم حكايات ومـواقف جمعتنا داخل الجدران السوداء منها الطـريفة ومنها الحزينة.. وعلى ما أذكـر أنه كان لى أحد الأصـدقاء الذين كنت أرأسهم داخل المجمـوعة.. وحكم عليـه بـالسجن عشر سنوات مع التنفيذ وظلت علاقتى به طيبـة داخل الجدران السوداء.. وبعد أن أفرج عنى وخـرجت وتركته حيث قضى بعد خروجى أكثر من ثمانى سنوات.

المهم حين علمت بخروجه.. كنت فى غـاية الشوق لرؤيتـه وظللت أبحث عن عنوانه.. حتى عثرت عليه.. وعـرفت أنه يعمل موظفا فى إحدى محافظات الـدلتا.. وعقدت العزم على البحث عنه ولقـائه بعد هذه الفترة الطويلـة التى استمرت أكثر من عشرين عـاما.. وفعـلا نجحت فى الوصـول إليه.. ولكنـه للأسف اختفى منى ورفض أن يقـابلنى ولا أعرف حتى هذه اللحظة السبب.. المهم بعدهـا عرف أخوه بهذه الحكاية وجاء كى يعتذر معللا السبب بأنه الخوف وأشياء أخرى.

لحظتها أصـابتنى الحزن.. لأننى بالفعل كنت أحـب هذا الرجل وأود أن نتقـابل من

جديد.. وأقدم لـه أية خدمة.. لقد كنا أكثر من أخـوين حيث كنا زملاء في المدرسة حتى قبل تجربة المعتقل.. ومن المواقف الأخرى التي صادفتني وزملائي في السجن الحربي.. أنه كـان معنا أحد الطلبة الـذي أصبح الآن من علماء الدين الإسلامي المعدودين وهو الدكتور عبد الودود شلبي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

المهم ونحن داخل السجن.. لم يتمكن أحد الضبـاط من نطق اسمه كما يجب فناداه بقوله: عبد الود ـ ود.. فاستغـرقنا في الضحك أوقاتا طـويلة.. وكانت النتيجـة أننا قد جلدنا جميعا عقابا على الضحك.. ويومها عـذبونا أيضـا.. لقد كنا نضحك على جهل هذا الضابـط.. وأذكر موقفـا آخر.. رغم أنـه كان محزنًـا ومؤلما في نفس الـوقت.. ولكنني سوف أحكيه لك.. على مـا أذكر وكنا أيضا في السجن الحربي.. وكـان من أشق الأمور بداخله دورة الميـاه.. هذا السجن في الأصل كان بـه ٢٤٥ زنزانة.. وكانت لا تـوجد به مياه كافية.. وعدد المعتقلين بـه أكثر من ٥ آلاف شخص.. وتصور كيف يقضي هؤلاء حاجتهم وسط ندرة المياه.. وندرة المكان أيضـا.. أضف إلى ذلك أنك كنت وقتها محروما من النوم.. فقد كانوا يضعون في كل زنزانة لمبة قوتها أكثر من ١٠ آلاف وات.

ثم أنك كنت مجبرا على عـدم النوم لأنـه من المحتمل أن تسمع اسمك في أية لحظـة.. المهم نرجع إلى قصة أحـد زملائي داخل المعتقل.. هذا الرجل تحامل على نفسـه وغامر بدخول دورة الميـاه في آخر لحظة وقبل طابـور التمام كما كانوا يقولـون بلغة المعتقل.. وانتهـزها فـرصة وأخـذ حماما بـالماء والصـابون.. فبعـد أن نادى الضـابط على كل المسجونين الذين أعلنوا وجودهم بالطابور .. جاء ذكر اسم هذا الرجل المسكين.. ولما لم يجدوه.. بحثوا عنه أولا في دورة المياه.. ووجدوه بداخلها.. فأخرجوه عاريا والصابون على وجهه وجسده.. ولا تتخيـل ما حدث له وهـو على هذه الحالة لقد أخـذوا يضربونه بكل أنـواع العصي والكرباج حتى فقـد الوعي ووقـع على الأرض وهو ينـزف دمـا مخلوطا بالصابون.

*** يمكن لنا أن نخـرج من هذا السؤال.. إلى سـؤال آخر ربما يرتبط بـه من قريب أو بعيد.. وهو: نريد من أستاذنا جمال بدوي تقييما لموقف كل من عبد الناصر والسادات من قضية الفكر والمفكرين؟**

ـ شوف هذه القضية يجيب عنها الواقع.. وهذا التقييم تحدده لنا الظروف والملابسات التي صاحبت الأحداث التي جرت في كل من العصرين فمثلا.. إذا كانت السجون والمعتقلات عقوبة المفكرين في عهد عبد الناصر يصبح هذا العهد متسما بالظلم ولابد أن يدمغ.. أما إذا جاء عصر سمح فيه للمفكرين بالقول والفعل والاختلاف.. بقدر كبير من الحرية.. فلابد أن نشيد بهذا وهذه بالطبع إحدى سمات عصر السادات.. ولكن حين يأتي الرئيس السادات بعد ذلك ويزج بالمفكرين داخل السجون والمعتقلات فلابد أن ندين هذا الفعل ونرفضه.. إذن المسألة في رأيي ليست مسألة أشخاص.. وإنما المسألة متعلقة أولا وأخيرا بالمواقف.. بمعنى أنه إذا أتيحت هذه القدرة وتمكن الناس من التعبير في حرية وبعيدا عن الخوف.. نرحب بذلك ونسعد، وكلما تم التضييق على الناس في حياتهم وحرياتهم.. أصابنا الحزن والخوف على المصير.. لأن المفكرين هم حملة المشاعل الذين يضيئون الطريق نحو عالم أفضل.. فكلما أتيحت لهم فرص التعبير كلما واصلوا المسير.. والعكس هو الصحيح.

*** ما رأيكم في سجون مصر الآن.. وهل هي بوضعها الحالي تواكب تطور عصر الجريمة؟**

ـ والله أنا لا أعرف.. لأن صلتي قد انقطعت بها منذ فترة طويلة ولكنني أسمع أنها سيئة جدا ولا تساعد على إصلاح أحوال المسجونين.. بل ربما تفسدهم أكثر.. ومما أكد لدينا هذا الإحساس مشاهدتي لأحد الأفلام الروائية الحديثة.. الذي عبر تعبيرا صادقا عن أحوال السجن في مصر.. ولما سألت عن حقيقة ما رأيته، أكد لي البعض أن الصورة في الحقيقة أسوأ مما رأيته.. واسمح لي أن أقول لك لا أستطيع رغم ذلك أن أعطيك صورة صادقة ورأيا قاطعا إلا إذا شاهدت ذلك بنفسي.

*** طيب.. ولماذا وأنت صحفي كبير.. لم تفكر في زيارة سجون مصر لتأكيد معرفتك بأحواله؟**

ـ .. حرام عليك.. دا شيء كريه.. وأنا أذكر أنني في يوم من الأيام اضطررت أن أمر أمام السجن الحربي في مدينة نصر.. حتى بعد هدمه.. وشعرت بخوف وضيق وألم شديد.. وعلى الفور أسرعت من المكان.. ومرة أخرى دعوني لزيارة المتحف الحربي

بالقلعة الذى اقيم مكان السجن.. ولحسن الحظ أو لسوئه الله يعلم..تركوا زنزانتين على ما هما عليه.. هى الزنزانة الأولى والثانية.. وكنت فى أيام المعتقل مسجونا فى الزنزانة الثانية.. ولا تتصور حالتى النفسية.. فقد شعرت بانقباض شديد وألم نفسى.. وقد تحاملت.. حتى انتهت الزيارة إلى غير رجعة.. فلا أستطيع أن أقول لك إننى من الممكن أن أزور السجون الآن أو حتى أكتب عنها.

وهنا تصور آخر لى فى هذه النقطة.. إننى لا اكتب عن السجون ولكنى أكتب عن الحريات حتى لا نفقدها مرة أخرى، وندخل على إثر فقدها السجن، وأحب أن أؤكد لك أن السجن ليس شرا كله.. وإنما لابد منه كوسيلة عقابية، ولكنك تقدر تقول لابد من نظرة من أجل تطويره.. بعيدا عما كنا نسمع عنه مثلما يحدث فى سجون أوروبا.. والتى وكما يقولون تقارب فى شكلها وفى خدماتها فنادق درجة ثانية.. وإلا تحولت بذلك السجون عن رسالتها.. وفقدت قوتها كوسيلة ردع للمجرمين.. ولا مانع مع ذلك من مراعاة الحالة النفسية والإنسانية للمسجون.

وهنا لابد أن نفرق بين سجن المفكر وسجن المجرم.. فلا يتصور أحد مثلا أن نضع المفكرين مع غيرهم من القتلة والقوادين فى سجن واحد.. أيضا لأن المفكر لم يرتكب جريمة ولم يعاقبه القانون.. إذن لابد من وجود أماكن خاصة يحجز بها المفكر المعارض أو المختلف مع الحكومة أو السلطة..وألا يزج به مع الحرامية والنشالين.. إن ذلك فى رأيى جريمة أخرى فى حق الحكومة.. لأن من الواجب علينا صيانة حقوق المفكر وصيانة كرامته.. حتى داخل السجن.

*** لو كان الأستاذ جمال بدوى مأمورا للسجن.. فى فترة اعتقال مفكرين.. ماذا كان يفعل؟**

ـ يعنى كنت أحول هذا المعتقل إلى منتدى.. وأحاول الاستفادة من هؤلاء المفكرين فى إصلاح وتهذيب إخوانهم من المسجونين الآخرين وتثقيفهم.. بعيدا عن شبح التعذيب الذى أعتبره مرفوضا تماما ولا أقبله على المستويين.. مستوى السجين المفكر والسجين العادى.. وحتى إذا طلبوا منى القيام بهذه المهمة وفقا للوائح والقوانين.. أرفض ذلك.. أو على الأقل أستقيل.. أو أطلب نقلى إلى مكان آخر.

*** وماذا تفعلون لو كنتم رئيسا للحكومة.. أو وزيرا للداخلية وعرض عليكم كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم؟**

ـ لا.. شوف أقول لك حاجة.. أولا أنا لا أقبل مطلقا تقييد حرية أى إنسان.. سواء مفكر أو غير مفكر.. فما بالك بالمفكر.. خاصة السياسى منهم.. أرفض على الفور التوقيع على هذا الكشف.. أما بخصوص مسألة الإلحاد فإن موقفى معروف ولا حياد عنه.. لإيمانى أن خلاف المفكرين مع السلطة.. لا يعطى لهم الحق فى أمر اعتقالهم.. بل بالعكس أطلب مقابلتهم ومناقشتهم ولا ألجأ مطلقا إلى الاعتقال لأننى أعتبر من يلجأ إليه كوسيلة إنما هو فى موقف الضعيف.. والحكومة التى تلجأ لمثل هذا الإجراء هى بالتالى حكومة ضعيفة ويبرز ضعفها من فشلها فى الاقتراب من هؤلاء المفكرين والتعامل معهم الفكر بالفكر.

لكن عايز أقول لك حاجة مهمة جدا:إن الفكر إذا اختلط بالسلاح فلابد وأن أوافق فورا على أمر الأعتقال بمعنى أننى إذا وجدت المفكر يلجأ إلى غير القلم من أجل تحقيق رأيه وأفكاره فلابد من القضاء عليه فى حينه.. لأن ذلك يسمى إرهابا.. وأنا أشك أن المفكر الحقيقى يلجأ إلى العنف من أجل أن يقول رأيه وينشر فكره.. إن المفكر له مطلق الحرية فى أن يقول ما يشاء دون أن يقترب من منطقة العنف.. بل أكثر من ذلك أن إيمانى بلا حدود فى دور المفكرين فى إبعاد الناس عن التعصب والعنف.. وليس أمامى من وسيلة لعلاج هذا الإرهاب الفكرى.. إلا بالقانون.. حينما يقترن بالعنف.

الحكاية التاسعة.. يرويها مختار السويفي

بسبب لم أعرفه دخلت السجن مظلوماً

.. وتحدد اللقاء.. ومن بعده كان لابد من الذهاب إلى حيث حدد لنا الكاتب والمفكر والأديب مختار السويفي.. المكان الذي سوف نتقابل فيه.. وخلال جولة داخل شوارع القاهرة استغرقت نصف ساعة.. كنت هناك أقف أمام إحدى ناطحات السحاب المصرية.. أو ما يحلو لنا أن نطلق عليها عمارات الابراج.. وطبقا للمعلومات التي دونتها في ورقة صغيرة كانت هي كل ما أحمله.. مع جهاز التسجيل وكشف بأسئلة الحوار.. وقفت أمام مكتب الاستعلامات داخل العمارة المدونة بالعنوان، والذي أكد لي أن الكاتب الكبير موجود بالفعل هنا.. ولكن في الدور الثامن والعشرين!.. والمطلوب مني أن أستخدم الاسانسير الذي سوف ينقلنا من الأرض إلى السماء.. وقد كان.. ولن أصف بعد ذلك الاحساس الذي انتابني كلما اقتربت من شقة مختار السويفي.. وبطبيعة الحال لم يكن السبب فيما أحسست به هو الرجل في حد ذاته أو شقته العامرة.. وإنما وسيلة المواصلات الفوقية التي نقلتني عبر ثمانية وعشرين دوراً.. لقد مكثت أكثر من دقيقة داخل صندوق أنيق.. لا تسمع فيه إلا صوت الهواء الذي يصطدم مع الآلة الرافعة لذلك الصندوق العجيب. وقد تكررت نفس الرحلة بنفس الاحاسيس حين العودة.. لأننا بعد إتمام هذا اللقاء بسلام أخذني الكاتب الكبير في جولة سريعة داخل الشقة، فرأيت القاهرة الساحرة تنام في أحضان أضواء الكهرباء الجميلة. لقد نقلتني شرفة المنزل إلى مسافة عشرات الكيلو مترات.. ولولا زيادة كمية الضباب التي كانت عالقة بالجو آنذاك لرأيت كل معالم القاهرة.. الأهرامات والقلعة.. وبرج القاهرة!! وكل شيء بدون مجهود عضلي أو بصري.

وبعد هذه المقدمة التي رأيت أنها ربما تكون مدخلاً طيباً لتخفيف وقع كلمات

الحوار عليكم وعلينا.. رأيت أن أحدثكم عن شيء آخر أهم مما ذكرته آنفا.. وهو أنني قد اكتشفت أن هذا أول حوار أجريه عن هذه التجربة.. يتسم بالضحك والسخرية!!..

لقد اكتشفت أيضا أن الكاتب والمفكر مختار السويفي.. يتمتع بروح دعابة من النوع النادر.. هذه الروح هي التي مكنته من تحويل هذه المصيبة التي آتته ليلاً إلى مسرحية هزلية أخذ يضحك منها وعليها.. وتراه كلما حكاها لغيره يستغرق في الضحك.. وحتما لابد وأن تشاركه هذه السخرية من خلال ما يحكيه لك من مواقف تتسم بالعبثية المطلقة.. ولن أغالي حين أقول أنني وطوال الخمسة والأربعين دقيقة التي قضيتها مع الأستاذ مختار السويفي أقول له السؤال وهو يجيب عليه.. ضحكت وكأنما لم أضحك من قبل.. وربما كانت هذه هي المرة الأولى منذ اجراء هذه السلسلة الطويلة من الحوارات التي أشعر فيها بسرور وسعادة مصدرها الأساسي كان الشعور المتبادل بيننا والذي كان أساسه الحب والضحك.. ولو كانت الكلمات تسمع قبل أن تقرأ.. لدونت لكم هذه الضحكات عبر هذه الأوراق.. وهو ما سجله بالضبط شريط التسجيل الذي صاحبني في هذه الرحلة، على ارتفاع أكثر من مائة متر عن سطح الارض!

ولسوف تشعر أنت أيضا عزيزي القارىء بهذه السخرية الممزوجة بالمرارة، حين تقرأ كلمات هذا الحوار.. والسبب يرجع إلى أنها تجربة خاضها مفكر كبير وعالم من علماء الآثار المصريين.. ووكيل وزارة للنقل البحري.. وأيضا كاتب ومؤلف لأكثر من خمسين كتاباً في مختلف فنون المعرفة.. أضف إلى ذلك أنه كاتب صحفي وساخر عظيم.. أما الشيء الأكثر أهمية والذي نتج عنه القدر الكبير من الضحك والسخرية.. فهو أن صاحب هذه التجربة.. قد زجوا به خلف الجدران السوداء بلا تهمة ولا ذنب ارتكبه.. وإنما بسبب وشاية من آخرين.. هذه التهمة لم يقتنع بها حتى رجال الأمن الذين قدموا إليه مع ساعات الفجر الأولى.. ولم يجدوا في مكتبه سوى كتب تتغنى بحب مصر وآثارها وآدابها وفنونها.. ومؤلفات كثيرة كتبها في التخصص الذي اشتهر به في مجال النقل البحري..

ولعلك حين تسمع صوت هذا المفكر والأديب وهو يحكي لك كيف جاءوه فجراً ودخلوا عليه إلى حجرة مكتبه، وهو لم ينم بعد، حيث كان منهمكاً فى إنجاز تقرير تفصيلى مطلوب على وجه السرعة، يتناول المشاكل والمعوقات وطرق إزالتها أو معالجتها حتى يتم نقل كميات المواد التموينية الضخمة التى تستوردها البلاد فى مواعيد مناسبة وبإجراءات سلسة وطرق صحيحة.. لا تملك إلا أن تتعجب على هذه الأوضاع التى كثيرا ما تثير السخرية والحزن وأيضا الإستغراق فى الضحك!

حتى وهو رهين القيد الحديدى الذى وضعوه فى معصمه خوفاً من الهرب - على حد قولهم - لم يفقد الابتسامة التى عبر من خلالها عن هذه المسرحية الهزلية التى تمت ومازالت فصولها باقية.. لأن عليه أن يقضى عقوبة لجريمة لم يرتكبها ولم يعرف أبعادها بعد.. وهو يقول إن أول إشارة التقطها عقله وعرف من ذبذباتها أن التهمة ربما تكون بسبب الفكر والأدب والثقافة.. كانت حين عثروا على أربعة كتب، منها رواية الأم لمكسيم جوركى ومجموعة قصصية لأنطون تشيخوف.

وقد استكمل صورة مادار فى ذهنه حين زجوا به مع «الرفقاء» - وهى كلمة جمع.. مفردها «رفيق» - من أعضاء الحزب الشيوعى وبعض اليساريين المصريين!!.. لقد تحول الكاتب والمفكر والإنسان مختار السويفى فى لحظة واحدة - ودون أن يدرى - إلى معارض شيوعى أو يسارى!! مع أنه - وكما أكد لى وأكد لهم - لا يحب السياسة.. بل يكرهها كثيرا.. ولم يجد فى حياته عن طريق الديمقراطية. ولكن على حد قوله: لا تجد من يسمع إلا بعد ثلاثين يوماً.. حين تقدم على كتابة تظلم أمام قاض مدنى.. والذى له الحق فى الأخذ بما تروى ومن ثم يفرج عنك..

والأمر لم يكن بهذه السهولة.. كما يروى.. أو كما أكتب.. لقد وصل إلى سجن طره فى الصباح المبكر.. ودون كلمة واحدة، وبعدما أخذوا منه كل متعلقاته.. رموه فى زنزانة إنفرادية لمدة ثلاثة أيام!!

إنها بحق رحلة داخل عقل وقلب أحد فرسان الكلمة السوية الذين مازالوا فى عطاء دائم لم ولن ينقطع أبداً.. هذه العطاء المستمر لم تؤثر فيه مثل هذه الحادثة المنفرة التى جعلته يقضى أكثر من خمسة وأربعين يوما داخل جدران السجن.. وله ولنا مع هذه الأيام ذكريات نعرفها من خلال متابعة «متأنية» لتفاصيل هذا الحوار.

**** كم مرة دخل فيها الأستاذ الكاتب الكبير والمفكر المصرى المعاصر مختار السويفى السجن؟!**

– أنا الحمد لله لم ادخل السجن سوى مرة واحدة. وهى هذه المرة التى سوف أحكى لك عنها! وأرجو– بل وأتمنى – أن تكون المرة الاولى والأخيرة.. وظروف هذه المرة.. أو تقدر تقول سببها اننى كنت قد نشرت كام مقالة فى جريدتى الجمهورية والأهرام ما بين سنة ١٩٧٤ وأواخر ١٩٧٦..

**** اسمح لى أن أقطع حوار هذه النقطة.. وأسأل.. فى سنة كام دخلت السجن؟!.**

– فى عام ١٩٧٧.. فى أعقاب الحركة التى تمت فى مصر أيام ١٨ و١٩ يناير والتى أطلق عليها الرئيس السادات «انتفاضة» الحرامية..!

وحين نعود لحديث الأسباب.. أقول لك إننى كنت قد نشرت عدة مقالات فى جريدتى الجمهورية والأهرام.. وكنت وقتها أعمل «مدير عام» فى قطاع النقل البحرى، وكان الرئيس السادات قد أصدر ورقة أكتوبر التى كانت مقدمة لقرارات الانفتاح الاقتصادى.. وقد لاحظت من خلال متابعة خاصة أن هناك شبه هجوم على قطاع النقل البحرى الذى كنت أنتمى إليه.. هذا القطاع به العديد من التخصصات والأنشطة المتعددة.. ومع ذلك لاحظت وجود نوع من التركيز الهجومى على تخصص واحد فقط وهو «التوكيلات البحرية».. حيث اتضح أن غالبية الذين بدأوا فى الاخذ بسياسة الانفتاح يركزون جهودهم على هذا الجانب دون جوانب النقل البحرى الاخرى.. وطبعا السبب فى ذلك أن هذا القطاع من اكسب واربح قطاعات النقل البحرى.. أضف إلى ذلك انه قطاع لا يحتاج إلى جهد أو فن أو علم.. الحكاية مجرد دكانة أو مكان صغير حتى ولو صرف عليه نصف مليون جنيه.. واستطاع صاحب هذا المحل أن يحصل على توكيل ملاحى.. من المؤكد أنه سوف يعوض هذا النصف مليون فى الاسبوع الاول!!.

إذن فيما يخص هذا القطاع لم تكن العملية مقصودا بها الانفتاح من أجل مساعدتنا.. ولكن من أجل نهب أموالنا. وكان هذا هو موضوع مقالاتى التى كتبتها أولا فى جريدة الاهرام.. وتساءلت من خلالها: لماذا التركيز على جانب التوكيلات

الملاحية دون النظر إلى قطاعات النقل البحرى الأخرى؟!! وقد بلغ عدد هذه المقالات اثنتى عشرة مقالة.. ثماني مقالات بالجمهورية وأربع بالاهرام.. وكلها تناولت هذا الجانب وما يتفرع عنه من موضوعات أخرى.. أول مقالة نشرت فى هذا الموضوع كانت فى منتصف عام ١٩٧٤ وآخرها فى أواخر عام ١٩٧٦!.

ودعني أقول لك قبل الانتقال إلى سؤال آخر.. عن فحوى هذه المقالات، لأنه رغم أنها كانت تتناول هذا الجانب من موضوع النقل البحرى إلا أنها تناولته من مختلف الجوانب. فمثلا بعض هذه المقالات كان إقتصاديا صرفاً.. يعني أقول فيه على سبيل المثال شروط الإستثمار فى النقل البحرى.. وطالبت فى إحدى هذه المقالات بأنه إذا كان ولابد من تأثر النقل البحرى بسياسة الانفتاح فلماذا لا يأتون إلينا بسفن جديدة ترفع أعلام مصر.. أو ناقلات بترول.. أو إنشاء موانىء جديدة حتى ولو كانت قطاعا خاصا.. أو يدعموا الأرصفة البحرية الموجودة، إلى آخره.. بجانب ذلك كانت هناك بعض المقالات نشرتها بمساعدة الكاتب الكبير محسن محمد الذى كان يرحب بهذه النوعية رغم خوفى شخصيا وخشيتي من رفضه لها. ومن هذه النوعية ما كتبته عن أحد المستثمرين فى مجال قطاع النقل البحرى.. هذا المستثمر الذى ظهر فجأة على الساحة الاقتصادية المصرية.. حيث ادعى أنه مهندس وأطلق على نفسه كبير المستثمرين العرب!! إنه شيء وهمى من هذا القبيل. وهذا الرجل إستطاع فى سنوات قليلة أن يجمع ملايين الدولارات من المصريين فى الدول العربية وجاء إلى مصر وافتتح شركة للملاحة البحرية.. وقد لاحظت أنه رغم ما يبدو على نشاطه من مشروعية، إلا إنني اكتشفت فيما بعد أن هذا المستثمر قد جاء من أجل تخريب الاقتصاد القومى مستغلا سياسة الإنفتاح هذه، وقد إتضح هذا الاتجاه حين لاحظت إنه كان يلجأ إلى توظيف أبناء بعض المسئولين بالدولة من أجل التغطية على أعماله غير المشروعة.. وطبعا الحكاية كانت معروفة.. فقد جمع هذا الرجل كل هذه الملايين وإنطلق بها هارباً إلى خارج مصر. وبذلك اتضحت صحة شكوكى التى كتبتها قبل هروبه بعدة سنوات.

والملحوظة التى تستطيع أن تصل إليها فى نهاية الأمر أن كل هذه المقالات التى سجنت بسببها كانت مقالات فى موضوعات بعيدة عن السياسة.. ولم تخرج عن خط

نقد بعض السياسات الخاطئة فى مجال النقل البحرى!! ولعلك تندهش إذا ما عرفت أن هذه المقالات قد تركت أثرا طيبا على مستوى المهتمين بالنقل البحرى كله.. بل وعلى مستوى بعض الاقتصاديين المهتمين بهذا القطاع..

ولم يدر فى ذهنى أبداً.. أننى يمكن أن أدخل السجن بسبب هذه المقالات التى لم تكن تهدف سوى الصالح العام!

ولعلنى أذكر لك أن هناك - بجانب هذه المقالات - أسبابا أخرى تأتى فى المقام الثانى.. وهى موقفى من المرحوم عصمت السادات وأخيه الذى أراد أن يدخل مجال النقل البحرى.. ولولا وقوفى ضده فى هذا المجال لكان هو الآخر قد استطاع أن يجمع الملايين من قطاع التوكيلات البحرية!. ورغم أننى لا أجزم بوقوف عصمت السادات بشكل مباشر ضدى فى هذه القضية إلا أننى استنتجت ذلك.. والسبب ربما يرجع إلى أن هذه المقابلة وقعت عام ١٩٧٦ - ربما فى سبتمبر أو نوفمبر من عام ١٩٧٦ - وقبل وقوع هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة!

**** ليسمح لنا الكاتب والمفكر أن يحكى لنا عن ظروف اعتقاله؟!**

- هو أنا كان يوم الجمعة الساعة الثانية والنصف صباح يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٧.. وأثناء وقوع الأحداث التى سبق وحكيت لك عنها وهى أحداث ١٨ و١٩ يناير! وعلى ما أذكر أنه قد صاحب وقوع الانتفاضة منع التجول. ومع ذلك لاحظت وأنا كنت ساكن وقتها بحى غمرة الذى يطل على شارع رمسيس.. وكنت وأنا سهران أسمع الناس تهتف فى الشوارع رغم سريان هذا الحظر. ورغم أننى كنت أسكن بالدور السادس. وعلى فكرة أنا لا أنام بالليل كثيرا لأننى أعشق الليل وأعشق العمل فى هدوئه.. وقتها على ما أذكر كنت مشغولاً للغاية فى حل مشكلة متعلقة بالنقل البحرى.. وكنت وقتها أقلب فى أوراقى الخاصة من أجل البحث عن حل.. وكان معى وقتذاك ملف هذه المشكلة كى أدرسه بعناية.. وكنت قد بدأت ساعتها كتابة التقرير المفروض أن أقدمه وفيه الحل الذى نبحث عنه.. وفجأة دق جرس باب شقتى.. وقد أصابتنى الدهشة من طريقة الطرق على الباب لأنها كانت طريقة إستفزازية.. وأقسم لك بالله أننى حتى تلك اللحظة لم أكن أتخيل أنهم قوة من رجال البوليس.. وكل ما تصورته أنهم مجموعة

المشاغبين الذين كنيت أسمع أصواتهم منذ دقائق فى قلب الشارع! لذلك أصابنى القلق واتخذت وضع الاستعداد.. وقمت من فورى كى أتأكد مما تصورته.. فنظرت من العين السحرية الموجودة بالباب.. فوجئت برؤية عدة أنفار ومخبرين ومعهم اثنان من أمناء الشرطة وقائد من رجال البوليس بالزى المدنى.. قمت بفتح الباب.. وعلى الفور سألونى.. إنت مختار السويفى؟!. وقبل أن أجيبهم انطلقوا داخل الشقة!. وقاموا بحملة تفتيش واسعة!! خاصة فى المكتبة، وبعد أكثر من ربع ساعة رأيتهم وقد عثروا على بعض الكتب وأخذوها إلى جنب.. منها كتب أدبية لمجموعة من الأدباء الروس!. ويحضرنى هنا أن أروى لك أننى قد عزمت على هؤلاء الضيوف أن أقدم لهم أى تحية حتى ولو كوب شاى.. فرفضوا وخاصة ضابط البوليس. ولكن منظر المخبرين والإرهاق الظاهر فى وجوههم جعلنى أقدم لهم الشاى.. وسرعان ما استجاب الضابط هو الآخر حين عرضت عليه أن يشاركنى فى كوب الشاى.. بعد التفتيش عثروا كذلك فى درج مكتبى على مبلغ ألف دولار وألف جنيه وتذكرة سفر.. ومنذ هذه اللحظة التى أخذوا فيها هذه النوعية من الكتب أحسست بما هو قادم!!.. إننى أصبحت الآن محسوباً على التيار الشيوعى!! وإلا لماذا لم يأخذوا مثلا دائرة المعارف البريطانية أو كتبا أخرى من هذا القبيل. ورغم ذلك كنت شديد الاطمئنان لأننى كنت قد اشتريت هذه الكتب من المكتبات العامة.. ولا ضرر من الإحتفاظ بها..

المهم.. أعود كى أحكى لك قصة الألف دولار والتذكرة التى عثروا عليها وهى خاصة بسفرى إلى دولة سنغافورة.. لقد لاحظت أنهم أخذوا هذه الأموال.. وقد اعترضت بشدة، ولكن الضابط الذى تحول بعد لحظات إلى إنسان مصرى لطيف طمأننى بأن كل شيء محفوظ.. وبالتالى وضعهم بجانب الكتب.. والألف دولار هذه لا تتصور قيمتها على نفسى كبيرة، فقد حصلت عليها من مكتب الأمم المتحدة كى أصرف منها خلال رحلتى إلى سنغافورة.. حيث اختارونى محاضراً دولياً فى شئون النقل البحرى ممثلا لمصر ولدول الشرق الأوسط. وكنت سوف أسافر بعد هذا الحادث المشئوم بأيام إلى سنغافورة كى التحق بدورة تدريبية لإعداد محاضرين فى اقتصاديات النقل البحرى للدول النامية.

ولكن للأسف لم يتحقق هذا الحلم.. وأقول للأسف لأنني بعد تجاحي في الحصول على هذه المنحة الدولية ممثلا لمصر وممثلا للشرق الأوسط، لم أتمكن بسبب حادث السجن من تحقيق هذه الرغبة. وأنا أذكر أن هذه الدورة كان من المفروض أن تبدأ من ٦ فبراير عام ١٩٧٧ وتستمر لمدة ستة أشهر. وبعد تفتيش الشقة.. طلب مني الضابط أن يصحبني معه من أجل استكمال بعض الاجراءات على حد قوله!. وحتى هذه اللحظة لم أكن أتصور أن المسألة يمكن أن تكون عقوبة أو اعتقالا لأنني – وكما ذكرت لك – لم ارتكب ذنباً أعاقب عليه. وقد كرر الضابط على مسامعي أن المسألة مجرد شكليات وربما تستغرق ساعة واحدة، وبعدها تعود إلى المنزل. وقد وافقته على ما طلب مني.. وقد حدث أيضا شيء غريب في هذه اللحظة ويثير السخرية والضحك في آن واحد.. فعندما خرجت من غرفة المكتب من أجل تغيير ملابسي استعدادا للرحيل.. فوجئت باثنين من أمناء الشرطة يقفان على باب حجرة النوم التي أغير فيها ملابسي!!. وطبعا خوفا من الهرب أو أنني قد أقفز من الشباك أو شيء من هذا القبيل.

وبعد أن ارتديت ملابسي.. أشار عليّ الضابط بهدوء أن آخذ بعض احتياجاتي الشخصية في شنطة صغيرة.. وعلى الفور بادرته بالقول: إذن المسألة حتطول؟! فردد نفس كلماته الأولى بأنها مجرد شكليات! المهم أخذت الشنطة التي أشار عليّ بها.. وقبل أن نغادر الشقة استفسرت منه: هل لديه إذن من النيابة؟.. وكان يحمل بالفعل هذا الاذن المدون فيه بعض المعلومات العامة.. وليس فيه اسمي بالتحديد.. ونزلنا من الشقة وركبت معه في سيارته الملاكي الخاصة به. وانطلقنا نسير طوال الليل حتى سجن مزرعة طرة.. حيث فوجئت بأن السيارة لم تذهب بنا إلى مكتب المباحث كما وعدني.. بل ظلت تسير بمحاذاة كورنيش النيل مما زاد جرعة الشك في نفسي.. وأردت أن أتأكد فسألته للمرة الأخيرة: ما هي الحكاية؟! وأين نحن ذاهبون؟!.. فرد عليّ بنفس طريقته الهادئة: المسألة إن اسمك جاء في كشف المطلوب اعتقالهم.. وأنا من ناحيتي.. –والكلام ما يزال للضابط – أعرف أنك مظلوم.. وربما ما جعله يقول ذلك أنه حين جاء في الفجر فوجيء بي أكتب المذكرة التي حكيت لك عنها، وكانت نحو عشرين صفحة كان يظنها في بداية الأمر منشورات!! وقد أكد هذا المفهوم بداخله أنني أيضا طلبت منه توصيل هذه المذكرة إلى مكتبي في النقل البحري لأهميتها الشديدة في العمل.. وللحق فقد قام

بتوصيلها بكل أمانة.

المهم الآن ونحن على أبواب سجن طره.. شد هذا الضابط على يدى بقوة.. واعتذر لى باعتبار أن هذه المهمة من واجبه المكلف به. وقد ترك هذا السلوك فى نفسى أثراً طيباً.. فى وقت حدوث هذه المصيبة التى لم أكن أتوقعها.

وبعد دخولى إلى المعتقل.. وبعد حملة تفتيش واسعة لملابسى وملابس غيرى من المعتقلين الآخرين الذين قدموا معنا.. وزعونا على الزنازين.. كل واحد فى زنزانة إنفرادية حقيرة وقذرة.. ولم يكن بها أى شيء يدل على صلاحيتها للإقامة فيها حتى لكلب أجرب!.. وظللت بها هكذا لمدة ثلاثة أيام حيث أضافوا لنا فى نفس هذه الزنزانة ثلاثة مساجين معتقلين مثلى.. ولم تتعد مساحة هذه الزنزانة مترين×٢ متر!! فكيف نستطيع أن ننام بداخلها.. بل أكثر من ذلك – وبعد ثلاثة أيام أخرى أضافوا لنا معتقلين جدداً فأصبحنا خمسة أفراد فى المساحة الضيقة!!.

ودعنى أقول لك شيئاً هاماً جداً اكتشفته لحظة وجودى منفرداً داخل هذه الزنزانة القذرة.. هو أن الثانية والدقيقة كانت شيئاً ولا الدهر!.

ولك أن تتصور أننى بعد قضاء أسبوع فى هذا الحيز الغريب لم أكن أعرف سبب الاعتقال أو هدفه أو متى سينتهى؟!. وكل ما كنت أسمعه من بقية الزملاء الموجودين بالزنازين الأخرى.. أننى اعتقلت بسبب الشيوعية.. وقد عرفنى بذلك الشاعر أحمد فؤاد نجم الذى كان مسجوناً فى الزنزانة المجاورة.

**** لو أردنا أن نعرف من الأستاذ مختار.. كم قضى فى السجن.. ماذا يقول؟!**

– أنا قضيت فى الاعتقال وفى سجن طره بالضبط ٤٥ يوماً.. وهى المدة الشرعية بتاعتهم التى بعدها لابد من الإفراج أو تجديد الاعتقال.. وطبعا يرجع الفضل فى ذلك بعد ربنا إلى القضاء المصرى المدنى العادل.. حيث كانت ادارة السجن تسمح لكل معتقل أن يتظلم إلى محكمة مدنية.. ووفقا لما لدى هذه المحكمة من معلومات يحق لها أن تفرج عن المسجون أو تجدد حبسه أو إعتقاله. وكان لابد أن يتم النظر فى هذا التظلم خلال

شهر من الاعتقال.. والشيء الغريب أنك لابد أن تمكث خمسة عشر يوماً داخل السجن حتى بعد قرار المحكمة بالافراج عنك. وهذا بالضبط ما حدث لى..

**** يعني نقدر نقول: ما هي أهم الاجراءات التي تم اتخاذها من أجل الإفراج عنك؟**

– أعود وأقول لك إن إدارة السجن فى كل فترة تمر على الزنازين من أجل تسجيل أسماء المعتقلين الذين يطلبون التقدم بتظلم.. فيأخذون اسمك فى كشف كبير ثم يخبرونك فيما بعد بموعد الجلسة. وقد تقدمت بتقييد اسمي بجانب ما قام به بعض المحامين من أصدقائى حيث بلغ عدد هؤلاء المحامين خمسة محامين!.

وسبق أن ذكرت لك قصة الثلاثين يوماً ثم قصة الخمسة عشر يوما التى يجب أن اقضيها فى السجن حتى بعد قرار المحكمة بالافراج.. والسبب فى ذلك إتاحة الفرصة للحاكم العسكرى للتصديق على الحكم إما بالموافقة على الإفراج أو الإلغاء.. ولك أن تتصور كيف قضيت هذه المدة. لقد عشت أياماً مرعبة خاصةآخر يوم.. لقد كنت أتصور – رغم براءتي – أن الحاكم العسكرى من الممكن أن يرفض الإفراج عنى. والحمد لله فقد صدق الحاكم العسكرى على قرار الإفراج وخرجت مساء اليوم الخامس والأربعين. ولعلنى أسجل هنا بهذه المناسبة تحية خاصة لرجال القضاء المصرى العادل الذى تحمل خلال هذه الفترة عبء الإفراج عنى وعن غيرى من الزملاء المفكرين المعتقلين. وعلى ما أذكر أنه فى نفس الجلسة قد تم الإفراج عن أكثر من تسعة عشر من غيرى من المعتقلين.

**** .. كما عرفنا سبب الإعتقال.. ماهى الأسباب التى استندت إليها المحكمة فى قرار الإفراج؟!**

– والله الأسباب كما ذكرها المحامون المدافعون عنى.. هى جهودى فى مجال النقل البحرى وجهودى الفكرية والادبية.. بجانب أننى لم أكن منتمياً لاى حزب أو جهة سياسية.. ولاتتصور أن هذه الاسباب قد قيلت أمام المحكمة فقط.. بل سبقها تحقيق

داخل السجن.. ومن المؤكد أن المحكمة قد استندت إلى هذه الأسباب أيضاً. فقد آجرت نيابة أمن الدولة معنا تحقيقا ونحن خلف الجدران.. وقلت فيه إنني جئت هنا على سبيل الخطأ. وإكتشفت فيما بعد أنها كانت تحقيقات مبدئية للغاية. ولكنني في أثنائها عرفت التهمة الموجهة لي بالضبط.. لقد كنت متهما بالماركسية وأنني أكتب مقالات تهاجم الانفتاح الاقتصادي وتحمل أفكاراً ماركسية.. وأنني كنت أعد خطة للهرب إلى سنغافورة بناء على تذكرة السفر التي ضبطت بدرج مكتبي.. ليس هذا فقط.. بل إنني قد تلقيت دعما ماديا من الخارج بسبب الألف دولار.. وأكثر من ذلك أن الألف جنيه المصرية التي حكيت لك عنها.. كانت مسلسلة الأرقام وكل مائة جنيه منها كانت مدبسة بدبوس.. الأمر الذي جعل جهات المباحث تعتقد - بل تكتب في تقاريرها - أن هذه الأموال كانت معدة للتوزيع!! أيضا كانت هناك تهمة أخرى وهي أنني ألقيت محاضرة عن الديمقراطية لبعض العمال!. وكانت مفاجأة أيضا، فلم يحدث أبدا أن ألقيت أي محاضرة من هذا النوع.. وفي التحقيق اكتشفت ما يمكن أن يضحكك عاماً كاملاً. فقد كنت أزور الفنان والرسام زهدي أثناء قيامه بإعادة طلاء شقته، وكان بها آنذاك أحد العمال وزميله.. وقد اشتركا معنا في مناقشة كانت بيني وبين زهدي وزائر آخر أعرفه.. حيث وجه أحد هذين العاملين سؤالاً لي عن مفهوم الديمقراطية بإعتبار أنها كلمة يسمعونها كثيرا ولا يعرفون معناها!!. وبالتالي أخذت أشرح لهما معناها كما جاءت في اللغة اليونانية.. وتتصور أن الذي أوصل هذه المعلومة إلى رجال المباحث كان أحد هذين العاملين!!. وقد وجدتها مدونة أمام المحقق الذي جاء كي يأخذ أقوالي فيما نسب إليّ.. ليس هذا فقط، بل فوجئت بأن الزائر الآخر الذي كان موجودا معنا في بيت زهدي وهو الصحفي الأستاذ الفنان عبد المنعم القصاص قد جروا رجليه في هذه القضية بسبب هذه الزيارة مع أنه لم يتكلم إطلاقا، وظل ساعتها يستمع فقط.. هذا بالإضافة طبعاً إلى الفنان زهدي.. وتعرف التهمة المدونة كانت إيه؟!.. أننا نزود هؤلاء العمال بأفكار هدامة.. تصور!! لقد كانت هذه التهم بالنسبة لي تهماً بشعة ومرهقة نفسياً.

*** وهل نستطيع أن نقول أن نزاهة القضاء المصرى هى السبب فى خروجك من هذه الورطة إن جاز التعبير؟**

– دى فعلاً حقيقة!. وكانت فرصة كى أرد على كل ما جاء بتقرير المباحث من إتهامات.. وكانت المحكمة آنذاك واسعة الصدر حيث استمع القاضى إلى كل ما قلته وبأمانة. وعلى ما أذكر أن رئيس المحكمة كان هو المستشار الصدفى..

*** ما هو تأثير تجربة السجن على الكاتب والإنسان مختار السويفى..؟!**

– تبدأ هذه التجربة منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها الزنزانة التى حكيت لك عنها.. فى فجر يوم ترحيلنا من المنزل إلى سجن طره!.. لحظتها فقط شعرت بقيمة الحرية التى وهبها الله للإنسان.. لقد اكتشفت انها أعظم نعمة من الله، خاصة وأنت سجين زنزانة منفردة!. ومما زاد من آلام النفس قذارة المكان الذى دخلت إليه والذى بات عليك أن تقيم فيه رغماً عنك.. ولا أستطيع أن أصف لك مقدار هذه القذارة النابعة من الروائح الكريهة المنبعثة من «جردل البول والبراز» الموجود بجانبى لمدة ٢٤ ساعة!.

أضف إلى ذلك شكل الباب الحديدى الكئيب.. وهو باب الزنزانة الذى ينبعث منه صوت مخيف حين إغلاقه. واستمرت هذه الوحدة فى الحبس الانفرادى حتى أضيف لنا آخرون كما حكيت من قبل.

**** وبخصوص ما يتعلق بالورق والقلم.. هل كان يسمح لكم بالحصول عليه؟!**

– الورق والقلم كان من الأشياء المستحيلة.. لكن الشىء الجديد أنه فى الأسبوع الأخير قبل الإفراج.. سمحوا لنا بقراءة الصحف، كما سمحوا لنا بالكتب سواء التى تأتينا من الخارج أو التى نستعيرها من مكتبة السجن!

**** وهل تعرضتم لتعذيب؟!**

– أبداً.. وهذا هو الشىء الغريب الذى حدث فى سجون مصر فى فترة ما بعد منتصف

السبعينات.. ومقولك ليه؟!.. لأنه كان فى هذه الفترة تجرى محاكمة الضباط الذين اتهموا فى قضايا تعذيب المعتقلين.. وطبعا كان هذا فى تصورى هو السبب الرئيسى.. ولولاه لتعرضنا للتعذيب مثلما تعرض غيرنا من قبل. حتى أثناء إجراء التحقيقات معى داخل السجن.. كانت تتم بعيداً عن شبح التعذيب!.. وأكثر من ذلك فقد اتسمت معاملات ضباط السجن آنذاك بشيء من الرحمة والإنسانية.. ويمكن ده كان موضع استغراب.. وربما يكون ذلك راجعاً إلى إحساس الضباط أنفسهم بأننى دخلت هنا بقضية فكرية ملفقة!!.

**** كم كتاباً ألفتموه خلف الجدران؟!. أو حتى ما هى الأفكار التى خرجت بها من هذه التجربة!!.**

– أنا لم أكتب كتباً فى السجن.. ولكننى كتبت قصصاً قصيرة وهربتها إلى خارج السجن ونشرت فى مجلة صباح الخير وأنا مسجون. ومن بعد خروجى جمعت هذه القصص مع ما كتبته من قصص سابقة ونشرتها فى كتاب بإسم «مساخر من العاصمة والأقاليم». وعلى ما أذكر فى هذه الفترة وأنا داخل هذه الجدران السوداء كتبت قصة بعنوان «واحدة أرتيست».. وكان المرحوم حسن فؤاد رئيساً لتحرير صباح الخير، وكنت وقتها أنشر فيها القصص القصيرة التى أكتبها.. وبعد تهريبها نشرت فى العدد الجديد.

وقد نبهنى إلى نشرها حكمدار عنبر السجن وهو العقيد محمد صفوت.. وكان من الضباط المصريين المحترمين.. حيث جمعتنا سويا جلسات متعددة عرف من خلالها مشكلتى ووظيفتى.. وربما أقول إننا تحولنا إلى أصدقاء فى الفترة التى سبقت خروجى من السجن مباشرة.

**** .. وكم كتاباً ألفتموه بشكل عام؟!**

– هم حتى الآن بلغوا ٥٤ كتاباً..

**** .. وقبل الإعتقال..؟! كم كان عددهم؟!**

– مؤلفاتى جميعا قبل دخولى السجن.. كان معظمها فى مجال النقل البحرى.. وربما

أكون المصرى الوحيد الذى له مؤلفات بهذه الغزارة فى هذا الميدان.. لأن أغلب هذه المؤلفات كانت باللغات الأجنبية.. وكتبها مؤلفون أجانب.. بالإضافة إلى ذلك كانت لى كتب أخرى فى الفن والأدب ومسرح العرائس.

وقد تغير مؤشر النوعية بعد خروجي من السجن.. فكتبت أدباً ساخراً ومؤلفات عن آثار مصر وتاريخها القديم.. ومازلت أكتب كتبا عن النقل البحرى وآخرها «قاموس مصطلحات النقل البحرى والتجارة الخارجية».

.. ومن هى أهم الشخصيات التى قابلتموها فى فترة الاعتقال؟

- طبعا تعرفت على شخصيات كثيرة جداً.. بعضهم من اليساريين.. مثل الشاعر أحمد فؤاد نجم.. ومن غير اليساريين أحد المحامين واسمه صلاح القفص.. وهو محام من محافظة الغربية وأيضا كانت تجمعنى به علاقة خاصة من واقع دخوله السجن فى قضية سياسية ملفقة مثلى تماماً.

وأيضا تعرفت على الصحفى الأستاذ عبد المنعم القصاص.. زوج الزميلة الأستاذة الصحفية أمينة شفيق. وأيضا العقيد محمد صفوت الذى سبق الحديث عنه.. وكذلك المستشار يوسف دراز الذى حقق معى أثناء إعتقالى فى السجن.. وتقدر تقول إن علاقتى بهؤلاء قد قلت كثيراً.. وتتم الآن فى صورة ضيقة وبشكل تلعب فيه الصدفة دورها.

وهل هناك شخصيات أخرى جمعتكم بها قصص وحكايات داخل السجن غير الذين ذكرتهم؟!

- طبعا فيه كتير.. ودعنى أحكى لك عن بعض الحكايات الطريفة التى حدثت لى داخل السجن.. فقد كانوا يسمحون لنا بفسحة خارج الزنازين من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة ظهراً.. ثم فسحة أخرى من الساعة الثانية حتى الرابعة عصراً وهو موعد التمام واغلاق الزنازين على المساجين. وفى هذه الفسح تعرفت على الكثيرين من اليساريين الشباب المتحذلقين فى الاشتراكية قوى قوى.. والذين يتكلمون بلغة «الجنجورى» حسب التعبير الظريف الذى ابتدعه الكاتب الساخر الأستاذ محمود

السعدني.

وفي إحدى هذه الفسح تقدم مني أحد هؤلاء الشباب وسألني هامساً: هو حضرتك «طيار» (هكذا سمعت الكلمة).

فقلت على الفور: لا.. أنا باشتغل في النقل البحري..

قال: أنا عارف.. بس هل صحيح أنت طيار..

قلت: يابني بأقول لك أنا بشتغل في النقل البحري.. أبقى طيار إزاي..

قال: أنا قصدي هل أنت «تيار ثوري»..؟

قلت: وإيه التيار الثوري ده كمان؟

قال: حضرتك متعرفش تنظيم التيار الثوري؟!

قلت: لا والله.. دي أول مرة باسمع أن فيه تنظيم اسمه التيار الثوري!

وانتهى الحوار عند هذا الحد.. ولكن في اليوم التالي ذكر لي الشاعر أحمد فؤاد نجم أن الشباب بتوع تنظيم (٧ يناير) مبسوطين مني ومعجبين بي ويعتبرونني قدوة في القيادة التنظيمية، نظراً لأني السكرتير العام للجنة المركزية لتنظيم «التيار الثوري» ومع ذلك فأنا أخفي المنصب التنظيمي الذي أشغله ولا أبوح بسره لأحد!!

– يانهار أسود!.. إن هذا الإعجاب يوديني في ستين داهية!!.. وإيه حكاية تنظيم «٧ يناير» ده؟

استنكر أحدهم هذا السؤال وقال لي بحدة:

– أنت حتتريق علينا يا رفيق..؟!

أجبته بحدة أكثر: والله عمري ما سمعت عن تنظيم اسمه «٧يناير».. أنا أعرف إن ٧ يناير هو عيد ميلاد المسيح عليه السلام لدى طوائف الكنيسة الشرقية.. وأنه أيضا تاريخ ميلادي أنا شخصيا!

وهنا تساءل بسخرية: يعني حضرتك عايز تقول إنك انت اللي عملت تنظيم ٧

يناير..؟!

كان من الصعب أن يتم حوار معقول بينك وبين مثل هؤلاء المتحذلقين «الاسياخ».. كانوا لايملون الحديث عن الاشتراكية والمادية الجدلية وافكار ماركس وأنجلز ولينين وتروتسكي وماوتسي تونج. ولايطيقون الحديث عن تاريخ مصر القديم أو الحديث أو عن الزعماء الوطنيين المصريين أمثال عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول..

وحكاية طريفة لاتقل طرافة عن الحكاية السابقة.. فقد اكتشفت شيئا جميلا جدا في حوش العنبر الذى تـوجد الزنازين على جانبيـه، وهو حوش واسع عرضه نحـو ثلاثة أمتار وطوله نحو خمسة عشر مترا، ويتجمع فيه ساعة الفسحة نحو مائة معتقل..

وقبيل الظهر من كل يوم، تنكسر أشعة الشمس متخطية الأسوار العالية التي تحيط بالعنبر من كـل جانب، وتنعكس على ركن الجدار الأيسر للعنبر.. وكـانت هذه الجدران مدهونة بالجير الابيض منذ مدة طـويلة.. ربما منذ أيام محمد على الذى بنى ليمان طره في عهده.. وربما بسبب الرطوبة والـزمن تخمرت طبقة الجير الأبيض وكوّنت ذراتها في بعض الأركان حبيبات دقيقة جداً على شكل بللورات أو كريستالات متناهية في الصغر. ولكنها تعكس أشعة الشمس المنكسرة عليها وتحللهـا إلى جميع ألوان الطيف من اللون الأحمر في طرف إلى اللون البنفسجي في الطرف الآخر، مروراً بالألوان المبهرة الأخرى كالأزرق والأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر.

كنت أجد متعة عظيمة في النظر إلى هذه الكريستالات من زوايا مختلفة، حيث تتشكل الألـوان في تـركيبات طبيعيـة في منتهى الجمال والـروعـة.. وكنت أقضى معظم وقت الفسحة متأملاً في تلك التشكيلات اللونية ومستمتعا بسعادة لا حد لها.

وحتى هـذه المتعـة الرائعـة لايتركك الـزمـلاء لكي تتمتع بها.. فقـد تقدم إلى أحـد اليساريين المعروفين – وكان اسمه الأستاذ فاروق – وجذبني من ذراعي وهو يعاتبني بشدة على هذا الانزواء والوحـدة والصمت والإنعزال عن الآخرين.. وهم لايرضـون أن أضع وجهي في الحائط بمجرد خـروجي من الزنـزانة، ويجب على أن أتحمل وإلا أتألم على هذا النحو الغريب.

وعبثا حاولت أن أشرح له أني لا أتألم ولا يحزنون، وإنما أتمتع بمشاهدة التشكيلات والتكوينات اللونية التي تكونها بللورات الجير، ولكنه لم يقتنع بهذا الكلام، وقال إن مثل هذه الخيالات قد تؤدى بى إلى الجنون وإنى لابد أن اختلط بالآخرين واندمج فى الحديث مع الرفاق!

وطبعا تعرفت أيضا على بعض الشخصيات الأخرى من عالم السجن، فقد كان هناك بعض المساجين يأتون بهم إلى العنابر التى نقيم بها من أجل تنظيفها.. وخدمتنا.. ومن أهم الشخصيات التى تعاملت معها من هؤلاء شخصية السجين الحلاق!!. حيث سمحوا لنا بعد مرور أكثر من خمسة عشر يوماً بحلاقة الذقن.. وطبعا لايسمح لك فى هذه الحالات بإصطحاب أى ماكينة حلاقة أو موسى.. وأرسلت إلينا إدارة السجن هذا الحلاق ليحلق ذقن من يريد أن يحلق ذقنه.. وكان يستخدم فى عمله قطعة «جريد» طويلة وفى آخرها قطعة من شفرة موسى.. وتعرف كانت بتؤدى غرضها على أحن وجه.. وبعد فترة من تعاملى مع الحلاق اكتشفت إنه محكوم عليه فى قضية قتل، ولك أن تتصور مدى الرعب الذى انتابنى بشدة.. ومن يومها رفضت تماماً حلاقة ذقنى حتى خرجت!!.

شخصية أخرى تعرفت عليها من هذه النوعية.. ولكنه كان سجيناً أميناً.. فقد توثقت علاقتى به إلى درجة أنى إعتبرته أمين سر وجودى داخل الجدران.. فقد كان هو همزة الوصل بين أسرتى التى تبعث إلينا بالزيارة الأسبوعية وبينى، وكان له معى مواقف شجاعة.. إذ تحمل فى مرة من المرات تهريب إحدى خطاباتى لأسرتى، ولكن للأسف ضبط هذا الخطاب وعوقب السجين بسببى.. حيث رفض الاعتراف بأننى أرسلت معه الخطاب.. وهذا السجين كان يعرف كل أفراد أسرتى من كثرة تعامله معهم.

**** .. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر؟!**

– أنا أعتبرها أسود نقطة فى حياة الإنسان.. والمفروض فى السجن أن يكون رادعاً لمن يرتكب جريمة.. ولكن المفكر لا يرتدع بالسجن.. وأسألك: ولماذا ندخل فى الأساس إلى هذا المكان اللعين؟!.

وأرجو أن أقول لك أيضا أن أسود نقاط السجن تكون بالنسبة للرجل المظلوم.

**** .. وبشكل عام هل ترى فى السجن عقوبة رادعة للحد من الإجرام؟**

- شوف يا أستاذ.. إن الدارسين لعلم النفس الجنائى يرون فى السجن مثلما تقول فى سؤالك.. ولكن المفروض أن هذا الردع يخضع لعملية نسبية.. كيف!.. أقول لك.. إن القانون بنصوصه موجود منذ بداية حضارة الإنسان.. فهل تمكن هذا القانون من مقاومة الجريمة.. لا أظن؟.

وفى تصورى بالنسبة لأسباب وقوع الجرائم.. أرى ما يراه بعض الفلاسفة الذين شغلتهم هذه الخصوصية كثيرا من حيث أننا لو وفرنا الرفاهية التامة للناس فسوف تقع الجريمة.. وإذا عاش الناس فى ضيق أيضا تكثر الجريمة.. وهنا تظهر نظرية النسبية فى العقاب والتى حدثتك عنها.. فالجريمة إذن مرتبطة بحياة البشر على الأرض.. وبشكل عام لابد من العقاب الذى يختلف من مجتمع لآخر.. ونشترط ألا يصاحبه تعذيب.

وبالنسبة للمفكرين بوجه عام.. طبعا من العيب أن نزج بهم مع السفاحين والقتلة ومرتكبى الجرائم الأخلاقية.. وأتمنى ألا تكون هناك عقوبة أو سجن أو اعتقال للمفكر!.. وإذا ما تحولت نظرة المسئولين إلى المفكرين على أنهم مجرمون.. فلابد أولاً من محاكمتهم أمام محاكم مدنية.. ثم إفساح المجال أمامهم كى يقولوا كلمتهم.. وحتى لو فشلوا فى إثبات أنهم ليسوا مذنبين.. وحكم عليهم بالعقوبة.. فلابد من معاملتهم معاملة تخالف معاملة غيرهم من المجرمين الآخرين. والجرائم كثيرة، ومتنوعة. وأحب أن أسجل لك هنا شهادتى بهذا الخصوص.. إنه رغم السلبيات التى نعيشها وعشنا من خلالها، فإننا أسعد شعوب المنطقة العربية فيما يتعلق بهذه المسألة. فلدينا قدر كبير من الحرية.. وقدر كبير من الكلام.. حتى ولو لم يأخذ به، وهذا يجرنا إلى موضوع هام وهو كيف نعالج الرأى المعارض بعيداً عن شبح الإعتقال أو السجون. فلكل مفكر حريته فيما يشاء أن يقوله مادام يبعد عن العنف ولايخرج عن الورقة والقلم.. فالرأى المعارض له أيضا قيمة ولابد من الإستفادة به.. وليس معنى المعارضة الخصومة..

ولكن حين تخرج هـذه المعارضة عن شرعية الأوراق والقلم وتلجأ إلى وسـائل أخرى للعنف، فهنا لابـد وأن يتدخل القـانون- وبحزم - لـوقف هذا العنف الـذى خرج عن شرعية الفكـر، الذى لاينـادى أبداً بإستخدام أى وسيلة من وسـائل العنف. وأمـامنا القنوات التى يمكن أن نعبر من خلالها.. مثل وسائل الإعلام.

**** وما رأى الأستاذ مختار السويفى فى أحوال سجون مصر الآن؟!.**

- أنا حين اعتقلت دخلت مكـان اسمه ليمان طره.. وبداخلـه وضعت فى قسم اسمه قسم الإستقبال.. وكان فى نظرى - وحسب المدة التى قضيتهـا فيه - من أسوأ الأماكن فى ليمان طره.. ولم أشاهد أماكن داخل هـذا الليمان أسوأ حالاً منه.. ولكننى سمعت أن بـداخل هـذا الليمان أماكن أخـرى جيدة.. وبها وسـائل معيشة طيبـة مثل السرايـر والبطاطين.

****.. ماذا لـو كنتم مأمورا للسجن.. أثناء اعتقـال مفكـريـن.. كيف سيكـون تعاملكم مع هؤلاء المفكرين؟!**

- هو طبعا هذه الحكاية محكومـة بلوائح ونصوص.. وأنا كدارس للقانون أرى أن هناك عـدة طرق لتفسير هذه اللوائح وهـذه القوانين.. وفعلاً لو كنت كما تقـول فى هذا المنصب لأخذت الجانب غير الجامد فى تنفيذ هذه اللوائح داخل السجن. وأنا نفسى كنت أعامل داخل السجن فى أثنـاء فترة الاعتقال وفقا لهذه اللوائح، ولكن بتفسير غير جـامد ويتسم بالإنسانية من جانب بعض ضباط السجن.. وأقول البعض.. لان الأغلبية كانت تتمسك بتطبيق هذه النصوص بشكل جـامد وقاس.. وبالنسبـة للمفكرين كنت سـوف أتعـامل معهم من هـذا المنطلق.. خـاصـة العـامل الإنسـانى.. لأننى أتحرك فى حـدود اللوائح.

**** .. ومـاذا لـو كـان الأستـاذ مختار السويفـى رئيسا للحكـومة أو وزيـراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم. ما هو رد الفعل الذى سيكون لديه؟!**

- لو كانوا مفكرين ومطلوب القبض عليهم.. فى هذه الحالة أرفض وأصر.. وأنا أعلم

أنها أوامر عليا تفوق سلطاتي.. وأحاول أن أوصل صوتي بالإعتراض على هذا القرار.. وإذا لم أوفق أستقيل فوراً. وقد يتم تقديم هذه الاستقالة وقبولها سراً.. وقد يشاع وقتها أنني قد أقلت من منصبي.. إلا أنه فيما بعد سوف يفصح عن مضمونها وأسبابها.. وعندئذ سيقال.. إن هذا الرجل المسئول قد استقال، لأنه رفض أن يسجن مفكراً.. وما أقصده هنا مرة أخرى هو المفكر الذي لايستخدم وسائل العنف لتوصيل رأيه للناس.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٨٩٦٣ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 270 — 040 — 9



حكايتى مع السجن

كم مرة دخلت فيها السجن .. ولماذا .. ؟

وما هى أحاسيسك ومشاعرك عندما كنت تعيش وراء القضبان ؟ .. وما رأيك فى تجريم الفكر الخالص من شبهة العنف ؟ .. وهل يجوز أن يسجن المفكر مع المجرمين من اللصوص والقتلة ومرتكبى الجرائم الأخلاقية .. ؟

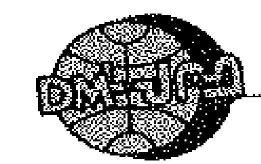
وما هو تأثير تجربة السجن عليك ككاتب ومفكر ؟ .. وهل ألفت كتباً وأنت خلف الجدران ، أو ما هى الأفكار التى خرجت بها من هذه التجربة .. ؟

وما هى أهم الشخصيات التى قابلتها أو تعرفت عليها أثناء وجودك بالسجن ؟ .. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر ؟ .. وما رأيك فى أحوال السجون فى مصر ؟ .. وإذا كنت مأموراً لأحد السجون فكيف تتعامل مع المسجونين بتهمة الفكر ؟ .. وإذا كنت رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليك قائمة بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم فما هو رد فعلك وكيف ستتصرف .. ؟

هذه نوعية من عشرات الأسئلة المماثلة التى صاغها الكاتب الصحفى المميز « الأستاذ حنفى المحلاوى » بطريقة ذكية لتسبر الأغوار النفسية والفكرية لمجموعة من الكتاب والمفكرين المصريين الذين اعتقلوا أو سجنوا بسبب أفكارهم وكتاباتهم النظرية الخالصة الخالية من أى عنف أو لجوء لاستخدام القوة ..

أما الإجابات على تلك الأسئلة ، فكانت تختلف باختلاف منهج وشخصية كل كاتب أو مفكر من الذين يحكون حكاياتهم مع السجن فى هذا الكتاب الممتع .. !

الناشر

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION